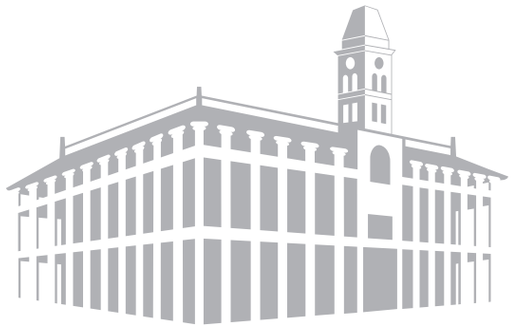
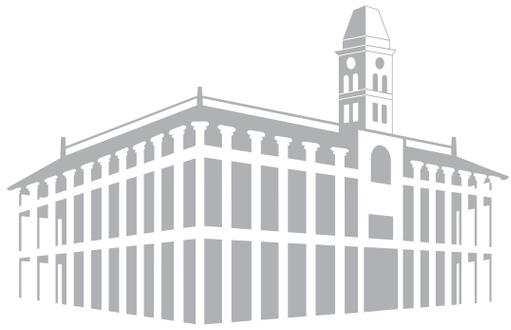
الحضور العُماني
في شرق إفريقيا



جورج بوب

الحضـور العُماني في شـرق إفريقيا

إنتاج مشترك بين شركة ديماكس (DEMAX GmbH) بألمانيا، ومجلة نزوى بسلطنة عُمان



الوجود العماني في شرق إفريقيا

الكتاب ترجمة إلى اللغة العربية من كتاب مؤلف أساسا باللغة الإنجليزية بعنوان"Omani Presence in East Africa".

حقوق التأليف والطباعة محفوظة © لمجلة نزوى، وزارة الإعلام، سلطنة عمان، 2023م.

صندوق البريد 974، الرمز البريدي 100. شارع الإعلام، مسقط. سلطنة عمان.

تأليف وتحرير شركة DEemaX GmbH Treffauersdtr. 18.81373، ميونيخ، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

كل الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة إنتاج أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، أو نشره بأي شكل من الأشكال المطبوعة أو الإليكترونية، بما في ذلك التصوير أو التسجيل، أو أي شكل من أشكال تخزين المعلومات أو استرجاعها دون الحصول على إذن مكتوب مسبقا من مجلة نزوى.

ISBN: 978-3-9824932-2-0

تصميم المادة التحريرية: Barbara Wolff، أوغسبورغ، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

مراجعة محتويات النص الأولي للكتاب باللغة الإنجليزية: Maria Popp.

الترجمة إلى اللغة العربية: خالد بن يوسف المالكي، سلطنة عمان.

مراجعة وتحرير النسختين العربية والانجليزية من الكتاب الأستاذ الدكتور عبد الله بن خميس الكندي، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.

التدقيق اللغوي للنسخة العربية من الكتاب: د. زاهر بن مرهون الداودي، جامعة السلطان قابوس، و أ. عبد الحليم بن عبد الله البداعي، وزارة العدل والشؤون القانونية، سلطنة عمان.

تصميم النسخة العربية من الكتاب: مركز صوت الحياة، سلطنة عُمان.

مراجعة وتدقيق النسخة الإنجليزية من الكتاب: Michael Dickinson،، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

الترجمة إلى اللغة السواحيلية: محمد خلف، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

مراجعة وتدقيق النسخة السواحيلية من الكتاب: سعدة البرواني، جمهورية ألمانيا الاتحادية.

تمت طباعة الكتاب وتجليده في مطابع شركة Longo AG، الجمهورية الإيطالية.

تقديم

أ.د إبراهيم الزين صغيرون

عرفت شعوب شبه الجزيرة العربية وساحل شرق إفريقيا وآسيا الهجرة الجماعية، والتنقل والترحال بين بلدانها الواقعة على السواحل المطلة على المحيط الهندي منذ آلاف السنين، فقد كانت أجيال من العائلات تتنقل ذهابا وجيئةً بين مسقط وصور وممباسا وماليندي وزنجبار ولامو. ولم يكن ذلك الترحال والتنقّل مستغرباً، بل على العكس تماما، حيث اعتادت هذه العائلات والتجّار الإقامة والاستقرار في أكثر من مكان. وفي الوقت الذي رأت فيه بعض أجيال هذه العائلات من مسقط وطنا لها، شعرت أجيال أخرى أن زنجبار هي الوطن، وفي الوقت نفسه ترى هذه العائلات اتخاذها مسقط وزنجبار معاً موطناً لها أمرا واردا جدا فقد صعب عليهم الاختيار بينهما.

وحيثما استقرّ العُمانيون أو تاجروا في الساحل الإفريقي أو في البرّ تجد أثرهم الاجتماعي والثقافي واضحا وملموسا، خاصة في نشر الإسلام، بدءا من الساحل ومرورا إلى الداخل الإفريقي في أوغندا والكونغو، وصولا إلى موزمبيق والبحيرات الوسطى في إفريقيا.

ولم يحمل العُمانيون فكرا تبشيريّا، أي أنّهم لم يأتوا إلى إفريقيا بهدف نشر الإسلام، لكنّ روح الإسلام انتقلت، معهم فانتشر الإسلام نتيجة لأخلاقهم وطريقة تعاملهم مع الناس التجارة، وتداخلهم مع السكان المحليين؛ وبذلك كسبوا احترام هؤلاء الناس لأنهم لم يرغموهم على اعتناق الإسلام، بل دخل إلى قلوبهم شيئا فشيئا دون إكراه، فتركوا للناس حرية اختيار الدين والمعتقد سواء كان وثنيا أو مسيحيّاً أو غير ذلك أو أن يختاروا الإسلام دينا.

حاول السكّان والقبائل الإفريقيّة تقليد طريقة عيش هؤلاء التجّار وتعاملهم مع الحياة لا سيما طريقة الصلاة والتحلي بالقيم والمبادئ الدينيّة. لكن ظلّت التجارة عامل الربط الرئيس ليس فقط في تبادل السلع والبضائع بل في التلاقح الثقافي كذلك.

ونظرا لاستغراق حركة القوافل التجاريّة أشهراً عديدة تمتد من ستة أشهر إلى سنة كاملة وفي أحيان كثيرة تستمر لسنوات؛ جعل هذا الأمر التجّار يفكرون خلال فترة قضائهم هذه الفترات الطويلة في الزواج لداعي الاستقرار، وليتمكنوا من أداء عملهم بأكمل وجه خلال فترة إقامتهم. وهذا ما أدى إلى استقرار الكثير منهم والإقامة الدائمة لا سيما في وسط المناطق التي تشهد حركة تجاريّة نشطة مثل زنجبار، وباجامويو وتابورا وكاسونجو.

وبفضل تعاملاتهم التجاريّة خلق العُمانيون علاقات اجتماعيّة متعددة ومميزة لعل أبرزها المصاهرة التي كانت الوسيلة المثلى لكسب ود السكّان المحليين، وهو أمر قدّره الأفارقة كثيراً، لأن مصاهرة التاجر لقبيلة ما تجعله فرداً من أفراد تلك القبيلة؛ يحترمهم ويحترم عاداتهم، مكوناً علاقة اجتماعيّة قويّة، تقود إلى تبادل الثقافات وانصهارها معاً.

ويعد هذا النوع من التبادل أحد أقوى الدوافع للتطوّر البشري، فهو بلا شك لست مجرد فكرة أو نمطاً أو أسلوبا يستبدل بآخر بل عمليّة أخذ وعطاء تحدث تغيرا وتحولا في كلا الطرفين على حد سواء وهو إثراء متبادل، وتكوين لتوليفة وخليط جديدين.

إنّ البحث والتنقيب عن آثار ذلك التبادل في سجلات التاريخ سيذكّر حاضرنا بجذوره وأصوله المتنوّعة، كما أن الاعتراف بالتبادل وأثره سيقود إلى فهم جديد للهويّة، التي لم تعد شيئاً يفرّق بين الناس، بل هي ما يجمعهم على قواسم مشتركة بينهم.

لقد أقام العُمانيون إمبراطوريّة تجاريّة عظيمة جلبت معها ثقافات عديدة ومتنوّعة تفاعلت مع بعضها البعض، وجمعتها المصالح الثقافيّة والماديّة. وقد انتشر في شرق إفريقيا ووسطها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بيت شعر عربي، يبرز مدى التأثير الذي أحدثته زنجبار في شرق إفريقيا:

إذا علا زامر في زنجبار *** رقص الناس في البحيرات رقصا

المحتوى

تقديم 5

مقدمة 10

عُمان: موطن التجّار وربابنة البحر 11

الفصل الأول: بناء العلاقات مع شرق إفريقيا

الآثار المبكرة للملاحة وصناعة السفن في عُمان 23
باتجاه الساحل الشرقي لإفريقيا 29
كيلوة كيسواني ، المركز التجاري المنسي 38
السواحيليون 42
الأوروبيون و"عصر الاكتشافات" 44
بناء قوة بحرية 48

الفصل الثاني: ميلاد إمبراطورية تجارية

تمهيد الطريق 53
مرئيات نقل مقر الحكم إلى زنجبار 54
الزيارة الأولى لزنجبار 58
مذكرات أميرة عربية 64
اقتصاد القرنفل 66
حكم السيد سعيد بن سلطان 74
حماية الإمبراطورية التجارية 77
تعزيز العلاقات الاقتصاديّة والدبلوماسيّة 84
رحلة السفينة سلطانة 92
سلطانة والطاؤوس 100
سلطانة وسيمثسونيان 105
تعزيز العلاقات التجارية 111
التبادل المعرفي العُماني السواحيلي 112
أحمد بن إبراهيم العامري 118

الفصل الثالث: اكتشاف قلب إفريقيا

رحلة البحث عن العاج 123
التوسّع في قلب إفريقيا 126
دور القوافل في نقل التكنولوجيا وتبادلها 129
الرقيق والحمالون في شرق إفريقيا 138
أوروبا تكتشف مسارات الأنهار 142

ملتقى الطرق في حياة ليفنجستون وستانلي وتيبو تيب 148
أعظم تجار العاج على مرّ العصور 150
حملة إغاثة ديفيد ليفينجستون 156
تيبو تيب في الكونغو 161
سلطان أوتيتيرا الجديد 164
مجازفة مشتركة وعواقب بعيدة المدى 168
الصراع على إفريقيا 178
رسالة متحف إفريقيا 184
التحديث تحت ظروف قاسية 188
بيت العجائب 197
قصر رائع ومتواضع في آن واحد 202
الصراع البريطاني-الألماني على شرق إفريقيا 204

الفصل الرابع: الإرث العماني في حاضر شرق إفريقيا

استمرار النفوذ تحت الإدارة البريطانية 211
رعاية التعليم الحديث 212
بين إمبراطوريتين، والقومية الإفريقية 216
تطوير التعليم وإدخال التعليم التقني 222
تمرير القناعات الشخصية 226
الوساطة عند نشوب النزاعات وتعارض المصالح 228
السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي 232
الرعاية الصحيّة في زنجبار 248
أرشفة وثائق التاريخ المشترك وحفظها 250
تراث ثقافي مشترك ما زال حيّاً 254
ترويج الحرف التقليدية 264
لامو والحفاظ على التراث الثقافي والتقاليد 272
مهرجان لامو الثقافي والمولد النبوي 280
الشعر في الثقافة السواحيلية 284
الشيخ عبد الله الفارسي وكتابه "قرآني تكاتيفو" 290
العُمانيون والمجتمع الشرق إفريقي اليوم 293

خاتمة

هجرة أم استعمار 299

الملحق

304

الهوامش والمصادر

309

مقدّمة



عُمان: موطن التجّار وربابنة البحر

إذا ما أردت التعرف من كثب على عُمان وأخذ فكرة عن شعبها، فما عليك سوى النظر في كتاب "ألف ليلة وليلة"، وقراءة حكايات التجّار السندباد لتجد ما يمكن أن يقرب لذهنك كيف ارتاد العُمانيون البحر، وسر حبهم للأسفار والتجارة.

ستتكشّف في ذهنك سريعا صورة من روعة الشرق، ومشاهد مليئة بالألوان والمناظر الخلابة متمثلة في صور لبضائع متنوّعة ومختارة في أسواق شرقيّة، مكدّسة في أزقة ضيقة ومتعرّجة من توابل نادرة، وسجّاد بديع، وذهب، ولؤلؤ، وحلي فضيّة تخطف الأبصار، إلى جانب مشاهد لتجّار يتساومون، وحكّاؤون، وباعة قهوة، ونساء فاتنات، وملامح وجوه أعراق مختلفة أخاذة أتت من مناطق شتى من العالم تملأ الشوارع بالحياة، وتجّار أثرياء كثيرين يقطنون في قصور أسطورية.

وفي المقابل والنقيض تماما، هناك صور لمغامرات ورحلات بحريّة شاقّة إلى عوالم مجهولة وخطيرة وُعد من يخوضها بالثراء الفاحش. ولقرون عديدة، ألهمت تلك الصور الأسطورية للشرق الفنانين، وأثّر ذلك العالم المتخيّل والمصوّر في قالب واقعي على الذهنيّة الغربيّة لدرجة تلاشت فيها الحواجز التي تفرق بين الصور الخياليّة والواقعيّة فاستحال معها التمييز بينها، فالصورة النمطية التي رسمتها العقلية الأوروبيّة للشرق غالبا ما تكون مبنيّة على الأعمال الفنية الإبداعيّة للقرن التاسع عشر الميلادي. ويفضل عند تكوين الصور الذهنية التي يستحضرها المرء من خلال قراءة هذه الحكايات إلقاء نظرة إضافية على نتائج البحوث والدراسات التي أجريت على مر القرون حول الحياة والتجارة في نطاق المحيط الهندي.

كان السفر عبر المحيط الهندي موسميًا، حيث تنشط الرياح الموسمية الشمالية الشرقية في ديسمبر ويناير لتُحرك السفن الشراعية جنوبًا باتجاه زنجبار ومدغشقر. في الجانب الآخر تدفع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في شهر يوليو والقادمة من الجنوب والغرب السفن من شرق إفريقيا باتجاه عُمان، والخليج العربي، والهند.

في عام 1980م بُنيت في سلطنة عُمان سفينة شراعيّة طبق الأصل، استخدمت فيها تقنيّة قديمة في خياطة الألواح بألياف من شجر النارجيل. وأطلق عليها «سفينة صحار»، وأبحرت من عُمان إلى كانتون، على المسار القديم لتجارة القرن الثامن الميلادي.



تعود الكثير من القبور الأثرية ذات الشكل المشبه لخلايا النحل، وتوجد توجد في منطقة جبال الحجر الغربي في عُمان، إلى حقبة تجارة النحاس مع سومر ووادي السند، ونظرا لمكانتها التاريخية فقد أدرجت في قائمة التراث العالمي باليونسكو.

وباعتبار أنّ معظم أساطير السندباد لها أصول وجذور تاريخية، فإنه ليس بالضرورة كما يروى أن تكون أحداث هذه الأساطير قد حصلت جميعها في بغداد في عهد هارون الرشيد، بل يحتمل أنها حدثت كذلك في عُمان في القرن التاسع الميلادي. ويعتقد أن ميناء صحار القديم كان موطنا للسندباد حيث كانت يومها المنطقة الواقعة على ساحل الباطنة المطلة على خليج عُمان، والمعروفة بسهولها الخصبة وقتها، أكبر وأهم ميناء بحري في العالم الإسلامي. وقد وصف أكبر مؤرخي ذلك الزمان شمس الدين المقدسيّ صحار بأنها: "دهليز الصين، وخزانة الشرق". واشتهرت برخائها وكثرة تجّارها، وازدهار أسواقها.



صمغ شجرة اللبان الثمين
(الاسم العلمي : boswellia sacra)

ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد، نقل بحارة "مجان" النحاس عبر البحر إلى حضارات سومر ووادي السند، وفي الألفيّة التي تلتها أصبح اللبان أبرز الصادرات التجارية من جنوب عُمان الذي غالبا ما تتجه صادراته إلى الفراعنة والرومان. وقد كان اللبان - دون مبالغة - يباع بوزنه ذهبا.





تشهد أطلال جيدي الواقعة على سواحل كينيا على أهمية المدينة التي تعد مركزاً تجاريّاً خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر الميلادي.

يدل وجود ثلاثة مساجد متقاربة على اعتناق أهل المدينة الإسلام خلال القرن الثاني عشر الميلادي. وقد استدل من خلال الطراز المعماري لبناء هذه المساجد على تأثر السكّان بالمذهب الإباضي السائد في عُمان.

ذاع صيت الرحالة والتاجر العُماني أبو عبيدة بن عبدالله بن قاسم في العالم أجمع خلال القرن الثامن الميلادي، خاصة بسبب رحلته الطويلة المليئة بالمغامرات، وهي رحلة قطع خلالها مسافة 7000 كيلومتر مرورا بسبعة بحار، انطلق فيها من صحار في عُمان حتى وصل إلى مدينة كانتون في الصين، وقد وضع خلال رحلته هذه أسس علم الملاحة الحديث، وخلد اسمه في سجلات التاريخ على أنه من عظماء زمانه، وأساطينهم. لم يكن ربابنة البحر والتجّار العُمانيون في تلك الأيام يبحرون باتجاه الشرق فقط، لكنهم اتجهوا أيضا نحو الجنوب بمحاذاة سواحل شرق إفريقيا، حيث ظهرت منذ القرن الثامن الميلادي قرى وبلدان عديدة تزايد عدد سكانها بمرور الزمن باقتصاديّات محدودة. وقد نمت أعداد هذه القرى والبلدان الصغيرة سريعا حتى أصبح عددها في القرن الخامس عشر الميلادي ما يزيد على 100 مدينة على ساحل امتداده 3200 كيلومتر في المناطق بين ما يعرف الآن بالصومال حتى موزمبيق جنوبا. وكانت الكثير من هذه المدن مثل ممباسا وكيلوا وجيدي موانئ ربط تجاريّة في المحيط الهندي، وارتبطت اللغة السواحيليّة بعدد من الثقافات ومنها ثقافة الهند وجنوب شرق آسيا والصين، لكنها ارتبطت بشكل أكبر بثقافة الجزيرة العربية.

وعلى الرغم من وجود تبادل وتواصل دائم ومستمر مع عدد من الثقافات والتقاليد والعادات المختلفة، وانتشار لغة البانتو الإفريقية التي نمت على امتداد هذا الساحل؛ إلا أن اللغة السواحيلية استعارت عبر القرون مفرداتها من لغات شركائها التجاريين ومنهال الفارسيّة والبرتغاليّة والإنجليزيّة، وخاصة وبشكل أكبر من اللغة العربيّة، حيث إن كلمة "السواحيليّة" مأخوذة من الكلمة العربيّة "ساحل"؛ لذا فإنّ اللغة وحدها تمثل أقوى شاهد ودليل على مئات السنين من التبادل الكبير والمثمر بين سكّان الساحل الإفريقي والتجّار العرب.

كما سيطر العُمانيون بعد هزيمتهم البرتغاليين في شرق إفريقيا على طرق الملاحة في المحيط الهندي، منذ القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر الميلاديين، وقد كانت الثروات التي يتطلعون إلى جنيها من المتاجرة بالعاج والذهب والأخشاب والبضائع الأخرى دافعا كبيرا لقدومهم إلى إفريقيا، وحافزا للمغامرة واستكشاف القارّة السمراء من الداخل.



أبحر التجار العُمانيّون، لقرون عديدة، من عُمان إلى سواحل شرق إفريقيا.



أُدرجت ستون تاون، وهي العاصمة التاريخيّة لجزيرة زنجبار أو ما يعرف بـ "المدينة الحجرية"، في قائمة التراث العالمي لليونسكو؛ وذلك نظراً للأهمية التي اكتسبتها من طابعها المعماريّ، الذي يعكس الحضارة والثقافة المختلفة لبلدان المحيط الهندي.

وبسبب كل هذه الدوافع والمحفزات توغل العُمانيون بعيداً في إفريقيا حتى بلغوا بحيرة فيكتوريا، وبحيرة تنجانيقا، والكونجو، وأسّسوا قرى تجاريّة صغيرة، على امتداد الطرق المؤدية إلى مدن الساحل. وحكمت عائلات عُمانية عددا من هذه المستوطنات لأجيال عديدة، وحتى اليوم يمكن مشاهدة أحفاد أولئك التجّار في تلك الأماكن التاريخيّة، فيما يعرف الآن بـ رواندا والكونجو وموزمبيق وبروندي وكينيا وتنزانيا.

وقد بلغ التأثير العُماني ذروته في عهد السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي، الذي قرر في عام 1832م أن يقضي وقتاً أكبر في زنجبار، مفضّلاً أن يحكم عُمان وشرق إفريقيا من زنجبار، بدلا من حكم شرق إفريقيا من عُمان. ولقد أدرك السلطان سعيد الأهميّة الاستراتيجيّة لجزيرة زنجبار، فطوّرها لتكون مركزاً لإمبراطوريّة التجارة العُمانيّة. وما لبثت أن أصبحت مدينة زنجبار، التي كانت عبارة عن مجموعة من الأكواخ المحليّة أكبر وأهم مدينة في سواحل شرق إفريقيا. كما جذبت زنجبار السفن التجاريّة في المحيط الهندي وذلك لامتلاكها ميناءً آمناً ووفرة مخزون مياه الشرب العذبة الأمر الذي أسهم في تنشيط الاقتصاد المحلّي للجزيرة، ومع مرور الوقت أصبحت زنجبار مركزا تجاريا مهما في شرق إفريقيا.

وقد أثارت ثروات زنجبار العظيمة، وازدهار التجارة فيها عبر تبادل السلع والبضائع الإفريقيّة والشرقيّة اهتمام القوى الغربيّة، ففي عام 1833م وُقّعت معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية، التي فتحت لاحقاً، قنصليّة في زنجبار في عام 1837م. وسريعاً ما تبعها افتتاح قنصليّات بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا والبرتغال وإيطاليا وبلجيكا والامبراطورية النمساوية الهنغارية. وأرسل السلطان سعيد عام 1840م بعثة تجاريّة إلى نيويورك، قادها أحمد بن النعُمان الكعبي، وقدّمت البعثة هدايا ثمينة لرئيس الولايات المتحدة، وكانت هذه أول بعثة عربيّة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. قادت كل هذه الأحداث والتطورات إلى أن تصبح زنجبار مركز ربط للتجارة العالمية المزدهرة في المحيط الهندي. وفي الوقت الذي اعتمد فيه هذا النجاح المنقطع النظير على الكثير من الأسس والقواعد الاقتصادية والتجارية، فقد تأسس كذلك وبذات الأهمية على قيم اجتماعيّة مارسها التجّار والحكّام العُمانيّون لقرون عديدة لعل أبرزها التسامح الديني، والتفاهم المشترك والتعايش السلمي مع الثقافات الأخرى.



يعد العاج أحد أكثر السلع الغالية والثمينة التي تشهد رواجا وطلبا. البضاعة التي تظهر بالصورة معدّة لشحنها إلى أمريكا.

أذهل هذا الانفتاح الغربيين، الذين أدهشتهم حقيقة أن أولى البعثات التبشيرية المسيحية التي وصلت إلى زنجبار استقبلت بحفاوة وترحيب في مجتمع غالبية سكانه من المسلمين، بل قام اهتمام هؤلاء المسلمين بمساعدة تلك البعثات في تطوير الصحّة والتعليم في الجزيرة، في أثناء قيامهم بنشر المعتقدات والتعاليم المسيحية، حتى إن بعض العلماء العُمانيين ساعدوهم في ترجمة بعض النصوص المسيحيّة إلى اللغة السواحيليّة. ومقابل أعمالها الخيّرة مُنحت هذه البعثات أراض واسعة - بموجب صك باجامويو- لبناء دور عبادة ومرافق تنطلق منها أعمالها في شرق إفريقيا، وهي لا تزال قائمة حتى اليوم. ولم يقتصر الأمر على قبول الأديان والثقافات الأخرى فقط، بل شمل أيضا قبول التقنيّات الحديثة؛ فهذه الجزيرة الصغيرة أصبحت أول بقعة، في جنوب الصحراء الكبرى، بها كهرباء وقطار ومطبعة وصحيفة. كما كانت المياه العذبة النقية تتدفق عبر أنابيب لتصل إلى سكان المدينة. ونظراً لتطوّر تقنيّات البناء وسبل الراحة الحديثة في القصر الجديد والعجيب الذي بناه السلطان برغش بن سعيد عام 1883م والذي كان مزوّدا بمصعد، أصبح يعرف باسم "بيت العجائب".

وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، تكالبت على الإمبراطورية التجارية العُمانية في شرق إفريقيا مجموعة من الظروف والأخطار من بينها تضارب المصالح الاستعمارية الغربية وثورة الابتكارات التقنية فضلا عن المؤامرات التي كانت تحاك ضدها من الداخل. كما أدّت وفاة السلطان سعيد إلى نشوء نزاع على السلطة بين ابنيه ماجد وثويني، اللذيّن كانا يمثلانه في زنجبار ومسقط. وفي عام 1861م أدّى التدخل البريطاني الذي جاء عبر تحكيم بريطانيا لحل الخلاف إلى فرض اتفاقيّة تقسيم الإمبراطوريّة العُمانية، وموافقة سلطنة زنجبار التي تتمتع بالثراء والازدهار على تقديم معونة ماليّة إلى سلطنة مسقط الأقل حظاً وثراءً، وضمنت بريطانيا العظمى دفع تلك الإعانات.



يحتل "بيت العجائب" مكانا بارزا كأكبر وأطول مبنى في الواجهة البحرية لمدينة ستون تاون عاصمة زنجبار ولكنه تعرض للانهيار الجزئي في ديسمبر 2020م.

مثّل افتتاح قناة السويس عام 1869م ضربة قاسية لمكانة زنجبار في مشهد التجارة العالمية، إذ سرعان ما فقدت الموانئ في شرق إفريقيا أهميتها لصالح عدن، بوابة البحر الأحمر. كما عزز ظهور البواخر هذا التراجع؛ فلم يستطع العُمانيون منافسة هذا التقدم التقني، واستمرت السفن الشراعية في الإبحار وأدت مهامها في مناطق أخرى، مثل التجارة مع الهند، إلا أن هذا الدور فقد فاعليته تدريجيا ليصبح دوراً جانبيا لا يمثل أهمية كبيرة.

وتزامن تدهور الأحوال الاقتصادية في عُمان مع تنامي قوة الدول الاستعماريّة الغربية وشن بريطانيا حملتها المناهضة للرق، مما فرض مزيدا من الضغوط على الحكّام العُمانيين الذين تعاقبوا على حكم زنجبار خلال تلك الفترة، كما أضعف ذلك، في الوقت نفسه، القوة الاقتصادية لمنافسي بريطانيا من الأوروبيين في المحيط الهندي، الذين كانت مزارعهم تعتمد بشكل كلي على استخدام الرقيق. ومع أنّ السلطان سعيد قد وقّع الاتفاقية الأولى مع البريطانيين عام 1822م للقضاء على تجارة الرقيق، إلاّ أنّ الرقّ كان لم يزل سائداً، وكان من الصعب إيقاف تجارة الرقيق بشكل فوري في يوم وليلة. لكن ينبغي الإشارة إنّ الاتفاقيات التي وقّعها السلطان برغش عام 1873م، والسلطان خليفة بن سعيد في سبتمبر في عام 1889م أشارت إلى أن كل فرد يدخل مناطق نفوذ السلطان يكون حراً.

وفي 11 نوفمبر 1890م، أُعلنت جزيرتا زنجبار وبمبا محميّتين بريطانيّتين، ومنذ ذلك التاريخ حتى 10 ديسمبر 1963م أدار البريطانيون شؤون الجزيرتين رغم بقاء السلطة تحت حكم السلاطين العُمانيين، واستمر العُمانيون يعيشون إلى جانب السكان الذين ينحدرون من أصول وثقافات مختلفة من الدول المطلة على المحيط الهندي معاً بسلام ووئام.



يذكر الشاهد الذي على قبر السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي، المتوفى عام 1856م في طريقه من مسقط إلى زنجبار، جميع المناطق التي كانت تحت سيطرته.



أحد الطوابع البريديّة القليلة التي صدرت أثناء فترة استقلال دولة زنجبار يشير إلى التسامح الديني في الجزيرة.

استمرت فترة الاعتراف بزنجبار على أنها دولة مستقلة لها مقعد في مجلس الأمم المتّحدة مدة قصيرة لم تتجاوز شهرًا واحدًا، من 10 ديسمبر 1963م حتى 11 يناير 1964م، عندما أُسقطت الحكومة الشرعيّة المنتخبة بانقلاب دموي راح ضحيته آلاف البشر، كان معظمهم من أصول عُمانيّة وهنديّة، قتلوا، أو هُجّروا قسرا، واتحدت على إثر هذا الانقلاب زنجبار وتنجانيقا، لتشكلا معاً دولة تدعى تنزانيا. ومع أنّ الثورة التي اندلعت كانت قاسية ومؤلمة لكثير من العائلات العُمانيّة التي عاشت هناك لأجيال عديدة، إلا أنها لم تقض على الحضور العُماني في زنجبار وشرق إفريقيا بشكل كامل؛ خاصة بعد أن قرّر أفراد من أغلب هذه الأسر البقاء هناك.

وفي عام 2007م أعيدت العلاقات الدبلوماسيّة بين جمهورية تنزانيا وسلطنة عُمان، وفتحت سفارتان من قبل كلا الجانبين، وبدأت إعادة العقارات والأراضي إلى ملاّكها الأصليين، ورُحّب بالاستثمارات العُمانيّة في مجالات التجارة والتربية والثقافة والمجتمع ليس في زنجبار فقط، بل حتى في كينيا ودول أخرى في شرق إفريقيا.



الفصل الأول


AETHIOPISCHES
HOCHLAND
HOCH
AFRIKA
Golf von Aden
ETHIOPIA
Galla Stämme
Machidas
Abagnes
Melinde
Mossegueios
Amulacas
Cachingas
Domger
PLATEAU DEMBO
HOCANGAS
MONJOUS
MOHENEMUGIS
Micoco
Fungono
Mahunga
Ginga
Quiloa
Majoas
MOROPUA
Mazavamba
Mocende
Cazember
Comoro
Anjouan, Johanna
Mohilla
Mayotta
Cap Ambro od. Natal
Ilhas do Almirante
Tumurkie
DARFUR
KORDOFAN
Dar Kulla, Gulla
Dar Fungaro
Dar Mora
Okansee
Asheera
GINGIRO od. ZENDERO
Land SZOMAL bewohnend
ADEL od. ZEILA
AJAN
Asum
Golungo-Batta
Zambre od. Zembere See
Zanzebar
Patram Bank
Amber Bank

بناء العلاقات مع شرق إفريقيا

الآثار المبكرة للملاحة وصناعة السفن في عُمان

إنّ تأسيس علاقات وصلات تجاريّة مع بلدان تبعد أكثر من 4500 كيلومتر كما هو الحال بين عُمان وشرق إفريقيا يتطلّب دراية وإلماما بعلوم الجغرافيا، ومعرفة بأحوال الشعوب وعاداتهم، ويتطلب أيضا وسائل نقل مناسبة وفعالة لحمل البضائع للاتجار بها عبر هذه المسافات البعيدة. وبالنظر إلى خريطة إفريقيا المشار إليها في الأعلى يتبين جليا أن التنقل عبر البحر يعد أسرع الطرق والمسارات وأكثرها أمانا. كما يستلزم مهارات وحرفية في كيفية بناء السفن وصناعتها، والإبحار، والملاحة البحرية.

وقد كشفت التنقيبات التي أجريت في عام 1982م وعام 1985م عن بقايا مستوطنة ومدافن في رأس الحمراء، بالقرب من منطقة القرم بمسقط. تظهر هذه الحفريات أن هذا الموقع كان مأهولا بالسكان بشكل مستمر خلال الفترة الواقعة بين 3500 حتى 2800 قبل الميلاد، وأن سكان هذه المنطقة كانوا يعتمدون على صيد الأسماك والحيوانات البرية لتكون مصدرًا من مصادر عيشهم، ومن المثير للاهتمام، أن بقايا الأسماك الضخمة المكتشفة، لا يمكن صيدها من البحر إلا عن طريق القوارب، مما يشير إلى أن صناعة القوارب كان لها دور عظيم منذ تلك الفترة الزمنية. وقد عُزّزت هذه الاستنتاجات باكتشافات مشابهة وصل إليها علماء آثار في رأس الجنز، وهي وجهة تجاريّة تقع في أقصى شرق شبه الجزيرة العربيّة، في نهاية حقبة الألفية الثالثة وبداية الألفيّة الثانية قبل الميلاد.[1]

هذا مقتطف من خريطة إفريقيا (اعتماداً على الاكتشافات الأخيرة ووجهات النظر الحديثة)، طُبعت في شتوتجارت، بألمانيا في 1828م، وتوضح النزر اليسير من المعلومات المتوفرة لدى الغرب في ذلك الوقت عن جغرافية شرق إفريقيا.

أشارت هذه الخريطة إلى معلومة مهمة مفادها: (إن هذا الساحل، الممتد من جزيرة مافيا حتى مدغشقر يقع تحت حكم العرب، إمام مسقط).

ولعل أبرز المعالم التي يمكن مشاهدتها بوضوح للمستوطنات التي أهلها الإنسان قديما في عُمان هي القبور الشاخصة على سفوح جبال الحجر وتعرف بقبور خلايا النحل نسبة إلى شكلها حيث بنيت الآلاف من هذه القبور في هذه الجبال، منذ منتصف الألفية



مقابر النحل في بات بعد أن رمّمها علماء الآثار.



خزين سبائك النحاس في «عقير» قرب بهلا.

الثالثة قبل الميلاد. وقد تعرضت هذه القبور للنهب منذ قديم الزمان، ولم يتبقَ بها سوى الأواني الخزفية، التي يظهر أنها لم تكن تمثل لدى لصوص المقابر أي قيمة. وقد تبين في هذه الأواني تشابها وتطابقا كبيرا مع أوان خزفية مكتشفة في بلاد ما بين النهرين، مما يدل دلالة واضحة على وجود تجارة قائمة بين عُمان والمناطق الواقعة بين نهري دجلة والفرات منذ تلك الفترة التاريخية المتقدمة. وقد أدرجت في عام 1988م مجموعة مميّزة من المقابر والمستوطنات لتلك المرحلة الزمنيّة، في شمال جبال عُمان في مناطق بات والخطم والعين، على قائمة اليونسكو للتراث العالمي. ووفقا لقائمة اليونيسكو للتراث العالمي، فإنّ هذيّن الموقعيّن والمواقع المجاورة لهما تشكل معا أكبر مجموعة متكاملة للمستوطنات والمقابر الكبرى في العالم تعود للألفيّة الثالثة قبل الميلاد.[2] وتقودنا علامات ودلائل حسن التنظيم الذي تتميز به هذه المستوطنات، ونجاح اندماجها في شبكة تجاريّة دوليّة إلى استنتاج أن الثقافة السائدة في تلك الأيام - حضارة أمّ النار- تمثّل واحدة من أهمّ تطوّرات تاريخ المنطقة. إن قصة بلوغ هذه الحضارة ذروتها ووصولها إلى هذا المستوى ظل لغزاً مدفونا إلى أن اكتشف علماء الآثار أسباب ازدهارها في جبال عُمان.

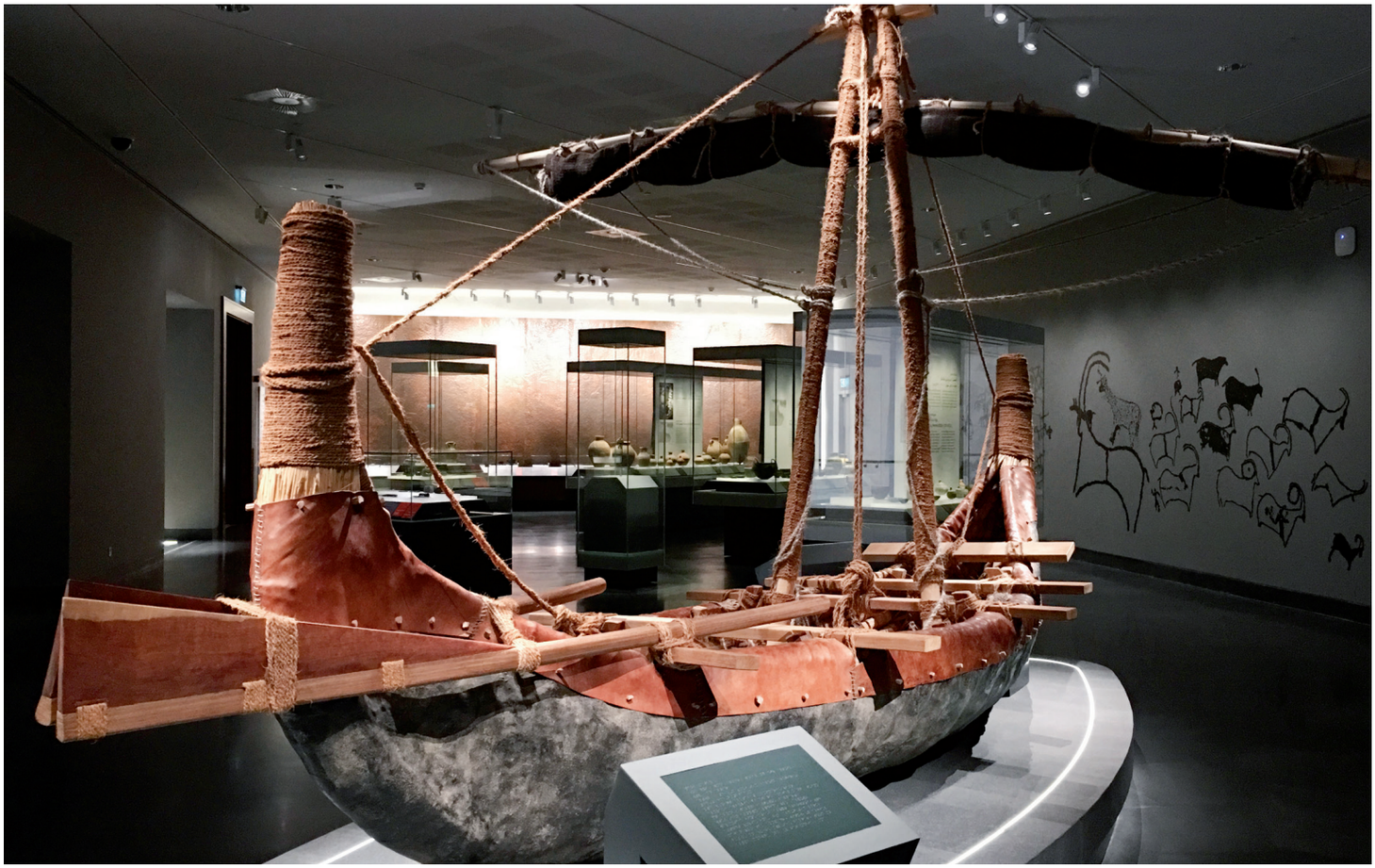
وفي عام 1974م وجد جيولوجيون كان يعملون في التنقيب عن المعادن في جبال الحجر مجموعة من الآثار لمناجم النحاس والتعدين منذ قديم الزمان. وتلا هذا الاكتشاف إجراء المتحف الألماني للتعدين في بوتشوم مشروعا بحثيا امتد لخمس سنوات، بداية من عام 1977م. وكان الهدف من المشروع هو البرهنة على أنّ جغرافية مجان التاريخيّة - التي لم تحدّد جغرافيتها حتى الآن - تتطابق مع جغرافية عُمان في الوقت الراهن. وقد شكلت الدراسات التي أجريت على القطع النحاسيّة المكتشفة في عُمان والبحرين والعراق الأساس الذي بنيت على أثره هذه الفرضية، ويبدو أن جميع تلك النماذج والعينات، أخذت من مصدر واحد غير معروف. وتشكّل جبال الحجر جزءاً من قمم وتلال محيطيّة، تمتد من جزيرة مصيرة في عُمان مرورا ببلاد فارس بإيران حتى قبرص. وبالنظر إلى الطبيعة الجيولوجية للمنطقة، فهي تتشكّل في الغالب من أوفوليت سمائل، وهي طبقة صخرية بركانيّة المنشأ، يتراوح عمرها بين 94 إلى 98 مليون عام، حيث توجد بها قيعان رواسب الكبريتيد التي يستخلص منها المعدن.

إنّ اسم مجان أو (مكَّان) ظهر لأول مرة قبل حواليّ 2300 سنة قبل الميلاد، في كتابات الملك سرجون الأكادي ملك بلاد ما بين النهرين، الذي ذكر أنّ سفناً من دلمون ومجان وملوخا كانت تفرّغ حمولتها في ميناء أكاد. ومن الواضح، أنّ التجارة بين هذه الحضارات شهدت ازدهارا في تلك الحقبة الزمنية من التاريخ.

وفي عام 2200 قبل الميلاد، دوّن نارام سين، حفيد الملك سرجون، انتصاره على ملك مجان، مخلدا خلّد ذكرى هذا النصر على قطعة فنية من روائع نحت بلاد ما بين النهرين تدعى مسلّة النصر للملك الأكادي نارام سين، وهي تمثّل نحتا لصورته على حجر الديورايت. كما عثر بالقرب منها على طاسات من المرمر نقش عليها عبارات لنارام سين تقول: «غُنمت من مجان». وقد ذكر في بعض الألواح التي تعود للفترة نفسها والتي نُقش عليها نصوص تتعلق بإدارة الإمبراطورية، وصول النحاس من مجان لأول مرة. كما تضمنت أيضا كتابات تتحدث عن استيراد العاج، والأحجار شبه الكريمة، والأخشاب التي تستخدم في البناء وصناعة الأثاث، بالإضافة إلى استيراد حجر الديورايت، وهي جميعاً كانت تشترى مقابل الفضّة والمنسوجات والحرير والفرو الذي كان يؤخذ من بلاد ما بين النهرين.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين اكتشفت ألواح مسماريّة في أور تؤكد وجود تجارة نشطة بين بلاد ما بين النهرين ومجان ودلمون في الفترة ما بين عام 2500 وعام 1500 قبل الميلاد. ودلمون هي الآن جزيرة البحرين في الخليج العربي، أما «ملوخا» فكانت التسمية السومريّة لحضارة «موئن جو درّو» الواقعة في حوض نهر السند في حين أن الموقع الجغرافي الدقيق لمجان فلا يزال غير معروف حتى الآن.

كما أن المكتشفات الأولى خيبت آمال الباحثين؛ كون أن الحقبة التي تعود إليها هذه المكتشفات لا ترجع حسب ما كان مؤملا إلى العصر البرونزي، بل كانت تعود إلى عصر صدر الإسلام (القرنين التاسع والعاشر الميلاديين)، وعصر الإسلام الوسيط (القرنين الثاني عشر والتاسع عشر الميلاديين).[3] وكون أنّ استخراج النحاس في الشرق خلال هذه المرحلة لا يُعرف عنه الكثير، كما هو حال مجان القديمة، لذا فإن التنقيبات وسّعت نطاقها الجغرافي في محاولة لحل هذا اللغز. وبعد القيام بالمزيد من الحفريات تبين لاحقا أن إنتاج النحاس في عُمان استمر لآلاف السنين على المواقع نفسها، فقد دفنت



نموذج من «قارب مجان الأسود» في المتحف الوطني العُماني، بمسقط. وحتى هذا اليوم تطلق شعوب شرق إفريقيا على الشعب العُماني اسم «الوامانجا» أي شعب مجان أو الشعب القادم من مجان.

أعمال تعدين النحاس القديمة أسفل الأعمال اللاحقة، وتلاشت آثار أساسات المباني القديمة بسبب الاستخدام المتلاحق والكبير لتلك المواقع، ولم يتبق من العصر البرونزي سوى أكوام هائلة من خبث النحاس، وكميّات ضخمة من قطع الطمي، مع طلاء مزجّج، وهي بقايا أشكال قديمة من أفران الصهر. لكن هذه المكتشفات أعطت فكرة جيّدة حول كميّات استخراج النحاس التي تمت خلال العصر البرونزي.

وتشير التواريخ المعلنة أنّ فترة ذروة ازدهار هذا الإنتاج قد تكون بين 2200 و1900 قبل الميلاد، أي خلال حقبة حضارة أمّ النار. وقد عثر على عشرات الآلاف من الأطنان لخبث النحاس كان أكثرها في مناطق قريبة من ساحل صحار والتي تشير إلى أن الإنتاج تراوح بين ألفين إلى أربعة آلاف طن من النحاس. وقد أدخلت تحسينات لزيادة جودة النحاس، وذلك بإعادة الصهر، ولكن بسبب الشوائب التي لم تزل تخالطه عرف بالنحاس الأسود. وقد كانت تركيبته مطابقة بشكل كبير مع تلك القطع التي عثر عليها في أور، وسومر، وحوض السند؛ وبناءً على كل هذه المعطيات تأكد الخبراء بما لا يدع مجالاً للشك أن مجان المعروفة بأرض النحاس هي عُمان حالياً.[4]

وقد أسفرت التنقيبات في رأس الجنز عن اكتشافات واستنتاجات مهمّة قدمت إجابات على التساؤلات التي أثيرت حول الكيفية التي استطاع من خلالها الإنسان في ذلك الزمان التجارة بأطنان النحاس وحجر الديوريت عبر البحر من عُمان إلى سومر ووداي السند. وتم العثور على أكثر من 300 قطعة من الأسفلت أو القار انتشلت من هيكل بني من الطوب المصنوع من الطين. كما كانت تظهر على الألواح آثار القصب المصفوف، وعلامات تركتها الحبال الملفوفة، والحصر المنسوجة على جانب واحد، وعلى الجانب الآخر وجدت بقايا محّار تملأ قواقعه السطح، مما يشير إلى غمرها المتلاحق لمدة ثلاثة أشهر على الأقل. وكان هذا أول دليل لصناعة الأواني في بداية العصر البرونزي في بحر العرب. كما استخدم القار لحماية أجسام القوارب من الماء، وكان أكثرها يصنع من القصب، وبسبب لونها الأسود سمّاها العلماء «مراكب مجان السوداء».

أثار العثور على مشط من العاج في رأس الجنز إلى جانب ألواح من بلاد ما بين النهرين، تساؤلات عن استيراد العاج عن طريق مجان، وما إذا كانت تلك المراكب والقوارب السوداء قد أبحرت في العصر البرونزي، باتجاه شرق إفريقيا. ربما لا نملك الإجابة مطلقا، إلا أنه من المؤكد أنّ البحّارة العُمانيين ومنذ العصر البرونزي وما تلاه جمعوا معلومات مهمّة عن صناعة السفن، وطرق ووسائل الإبحار في المياه المفتوحة، وعلم الملاحة البحرية.

باتجاه الساحل الشرقي لإفريقيا

احتل الفرس بقيادة قورش الكبير شمال عُمان، في حوالي عام 563 قبل الميلاد، وحافظ الفرس على سيطرتهم على المناطق الساحلية الواقعة على جبال الحجر طوال فترة حكم الإمبراطورية الإخيمينية والبارثية والساسانيّة (خلال الفترة من 563 قبل الميلاد حتى 637 ميلادي). لكن تظل المعلومات المتوفرة حول تاريخ عُمان خلال هذه الحقبة الزمنية غير مكتملة. ففي كتاب «الطواف حول البحر الإرتيري» لمؤلف إغريقي مجهول، وكُتب في القرن الأول الميلادي، وُصفت عُمان بأنها مقاطعة فارسيّة. وفي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، أقيمت مستوطنة بحريّة تدعى «مزون» تقع على الساحل العُماني قريبا من مدينة صحار اليوم. ومع حلول القرن الثالث الميلادي، أصبحت هذه المدينة أهمّ الموانئ الساسانيّة، بعد سيراف. والأهم من ذلك، أنّه بعد وصول الفرس، تطوّرت الملاحة البحرية التجاريّة بشكل تدريجيّ بين الساحل الشمالي للمحيط الهندي وشرق إفريقيا.

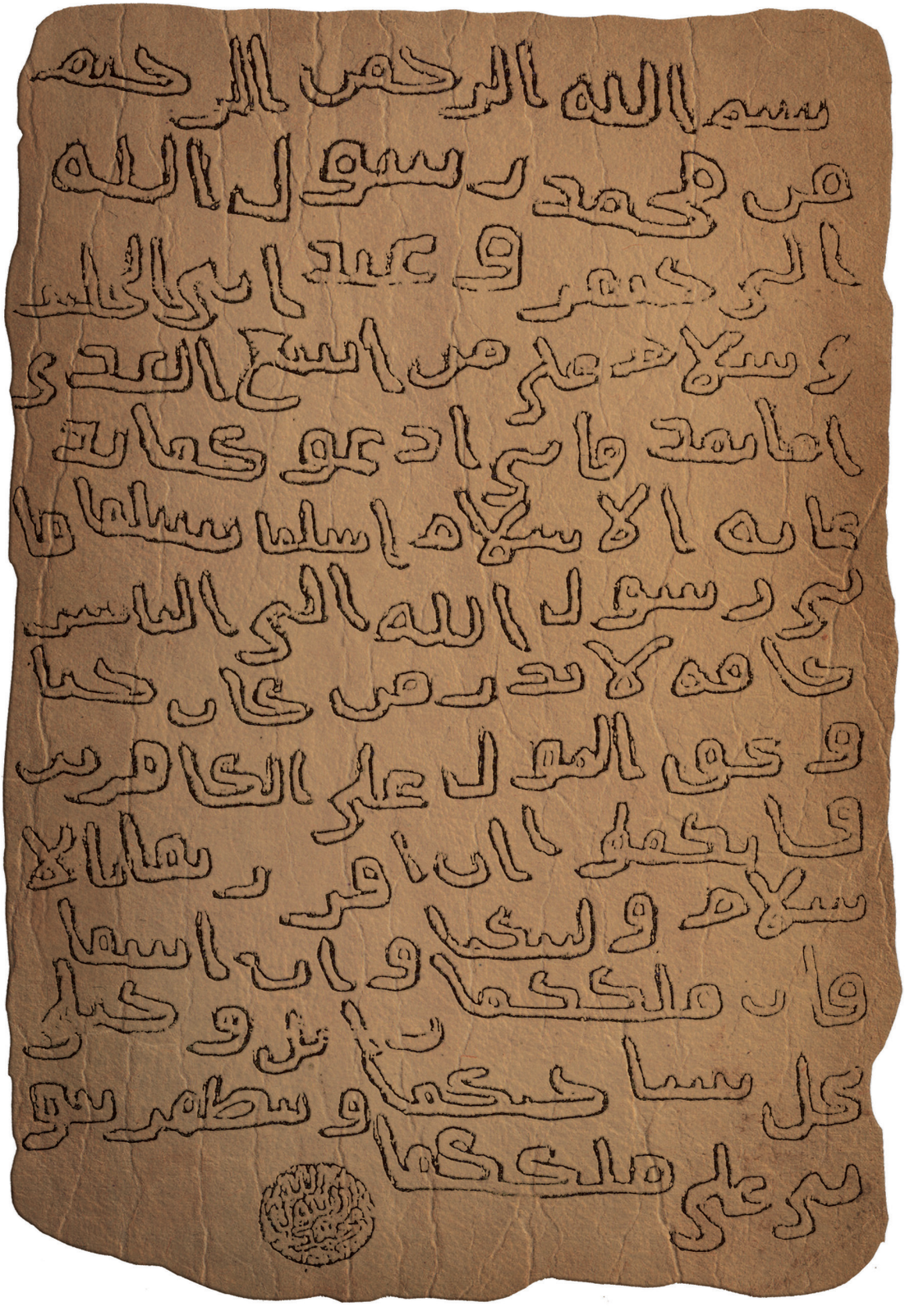
وفي مطلع القرن السادس الميلادي، توافد العرب على عُمان بأعداد كبيرة، فجاءت من الجنوب قبائل الأزد، وقدمت من الشرق، وتحديدا من منطقة نجد، قبائل نزار، وقد تمكنوا معا من إخراج الفرس من عُمان. وفي عام 570م، تمكّن الفرس من العودة مجددا والسيطرة على أجزاء من الساحل، وصارت صحار مقرّ إقامة عامل الملك الساساني. واتفق ملوك الأزد والفرس على أن يحكم الساسانيون صحار والمناطق المحيطة بها، بينما يحكم الأزد بقية البلاد.

دخل أهل عُمان في الإسلام طواعية في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي بعث في عام 629م رسالة إلى ملكيّ عُمان، عبد وجيفر ابني الجلندى بن المستكبر، اللذين كانا يقيمان في صحار، يدعوهما إلى دخول الإسلام. وتطابق ما جاء في هذه الرسالة مع ما كتبه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى ملوك وحكّام الدولة البيزنطية، وفارس، والحبشة، ومصر واليمن. وتبادل الطرفان الوفود قبل أن يعلن عبد وجيفر إسلامهما.

ووّحد ملكا عُمان القبائل العربية التي سكنت أرض عُمان، وطردوا الفرس منها، وظلّت السلطة بيد آل الجلندى حتى ألحقت عُمان بالبصرة في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفّان.

وأدّت الحروب الطاحنة بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، لظهور مذاهب السنّة والشيعة في الفقه الإسلامي. وقرّر عبد بن الجلندى ألاّ تتبع عُمان أيّاً من تلك المذاهب، وبذلك استطاعت الاستقلال والنأي بنفسها عن سيطرة بني أميّة وحكمهم. كما نجحت في صد ومواجهة هجمات عسكريّة هدفت إلى إخضاعها، ونشأ مركز لمقاومة محاولات بني أميّة السيطرة على عُمان، الذي تطوّر مع مرور الزمن، وبشكل تدريجي مكونا المذهب الإباضي.

يسار:
نسخة من رسالة النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى ملكي عُمان.
-





طوّر البحارة شبكة تجاريّة واسعة، تربط بلدان الجزيرة العربيّة وشرق إفريقيا، وآسيا ببعضها البعض، وذلك اعتمادا على تغيّر اتجاهات الرياح الموسميّة.

في عام 77 هجري، الموافق 696 ميلادي، أجبر غزو عُمان من قبل جيش الحجاج بن يوسف الثقفي، والي العراق آنذاك، حاكمي عُمان سعيد وسليمان ابني عبد بن الجلندى على الهرب متجهين إلى شرقي إفريقيا، التي كان خيارهما الأمثل للإقامة في مكان آمن. ويعتقد أنهما استقرّا في المنطقة الواقعة شمال جزيرة لامو، وأنه كان يوجد عُمانيون في تلك المنطقة في ذلك الوقت. ومن المؤسف ألا تتوفر معلومات عن حياتهما في ذلك المهجر.

وبحكم موقعهم في أقصى شرق الجزيرة العربيّة، استفاد التجّار العُمانيون بشكل كبير جداً من الرياح الموسمية في المحيط الهندي، التي تهب جهة الجنوب في الشتاء، وجهة الشمال في الصيف. فقد أتاح لهم نظام تغير الرياح هذا الإبحار على هذه الطرق والوصول إلى مناطق بعيدة حتى الصين، في ربط تجاري بين الإمبراطوريّة العباسيّة وأسرة تانج التي كانت تحكم الصين حينها. وعُرف هذا بطريق الحرير البحري. ويمتد هذا الطريق سبعة آلاف كيلومتر عبر مضيق ملقه، مروراً بسيرلانكا وساحل الملبار في جنوب الهند. ومن أشهر أوصاف هذا الطريق ما ورد في حكايات البحّار السندباد. وفي

مدينة كانتون بالصين اشترى التجار البضائع الثمينة القادمة من جزيرة العرب ومن شرق إفريقيا، كالعاج والنحاس واللبان والتوابل في مقابل الحرير والخزف الصيني. وبحلول القرن العاشر الميلادي لاحظ المسعودي حقيقة أن جميع تجارة العاج إلى الهند والصين تمر عبر عُمان.



يظهر هذا الصحن الخزفي الذي عثر عليه ضمن حطام سفينة بيلتونج زخرفة صنعت خصّيصاً لأسواق جزيرة العرب.

إنّ مكتشفات حطام سفينة عربيّة قبالة ساحل جزيرة بيلتونج الأندونيسية في عام 1998م، لا تقدّم فقط معلومات عن شكل هيكل المراكب البحريّة خلال تلك الفترة، لكنّها تخبرنا كذلك عن حجم ومدى اتساع نطاق التجارة وقتها. فقد كانت الاكتشافات عن حمولة السفينة أمرا صادما؛ حيث كانت تتكون من ستين ألف قطعة من السيراميك والخزف الصيني الثمين الذي جلب مما يعرف الآن بمقاطعة هونان في الصين. وتشير طريقة الإنتاج وأساليبه أنها تعود إلى فترة حكم أسرة تانج. ووُجدت إلى جانب الخزف طاسات وحليّ من الذهب والفضّة. والمثير في الأمر أنه لم يحدث من قبل أن اكتشف علماء الآثار كنزاً عظيماً كهذا، يعود لتلك الحقبة الزمنية.

واعتماداً على بقايا حطام سفينة بيلتونج فإن نسخة مطابقة لهذا المركب العربي الذي يعود للقرن التاسع الميلادي بُني في عُمان، باستخدام التقنيّة القديمة نفسها في خياطة الألواح الخشبيّة، ونجحت التجربة. وسمّيت هذه السفينة باسم «جوهرة مسقط»، وأبحرت في فبراير، عام 2010م، إلى الشرق الأقصى.

أبحر القبطان العُماني صالح بن سعيد الجابري من عُمان بسفينة شراعية بنفس الوسائل والطرق القديمة، ووصل بعد سبعة أشهر إلى الوجهة الأخيرة للسفينة، وهي سنغافورة.

دوّن القبطان صالح بن سعيد الجابري في سجل قائد السفينة النص الآتي:

«لقد كانت هذه السفينة مطبخنا وسريرنا ومكتبنا وغرفة دراستنا لأكثر من خمسة أشهر تقريبا. وكانت حياتنا جميعا تعتمد عليها في الأحوال الجوية المناوئة وسط الأمواج العالية والرياح العاتية. لكنها لم تخذلنا، إنما فاجأتنا في مناسبات، وحيرتنا في مناسبات أخرى. وأثبتت أنها مخلصة وصادقة بدرجة فاقت كل توقعاتنا، بل إنها قبل كل هذا وذاك، حافظت علينا وعلى حياتنا. لقد زاد احترامنا وإجلالنا لأجدادنا ونحن على متنها، وتعلمنا كيف نبحر مهتدين بالنجوم، مثلما فعلوا قبل قرون عديدة»[5].



ربط هيكل سفينة «جوهرة مسقط» بحبال من ألياف جوز الهند وبدون استخدام المسامير. وغُطّي الخشب بطبقة من شحم الماعز المخلوط بالكلس، كما صنعت الأشرعة من سعف النخيل.



وإلى جانب الاهتداء بالنجوم، رسمت طرق الملاحة في القرن التاسع الميلادي المسارات البحرية باستعمال ما يعرف بـ «الكمال»، وهو قطعة خشب مستطيلة تتصل بخيط يستخدم لحساب خط العرض. إلى جانب طرق أخرى، مثل ملاحظة السماء ولون البحر، وحياة الطيور والكائنات البحرية، وحركة واتجاه الرياح.

فإذا ما أراد تاجر عربي السفر إلى شرق إفريقيا فإنه سيبحر جنوباً مع الرياح الموسمية في فصل الشتاء، وسيعود شمالاً مع الرياح الموسميّة في الصيف. لذلك كان للرياح الموسمية فضل كبير في وصول التجارة في إفريقيا حتى موزمبيق، وهي أقصى حد للرياح الموسمية جنوباً.

وذكر المسعودي (916 هـ) أنّ سفناً كثيرة كانت تبحر على طول ساحل شرق إفريقيا يملكها بحارة من عُمان وسيراف، التي هي عبارة عن ميناء يقع في مدينة شيراز. وحيث إن هؤلاء التجار والبحارة كان عليهم الانتظار لعدة أشهر حتى تغير الرياح الموسمية اتجاهها فيبحروا عائدين، قرّر كثير منهم اتخاذ وطن ثانٍ لهم في الساحل الإفريقي الشرقي. وفي عام 977 هـ، وقع زلزال هدم ميناء سيراف؛ مما أفضى إلى تزايد استقرار الكثيرين في شرق إفريقيا. وتحكي شواهد وأدلة مكتوبة في سجلات تاريخ كلوة عن هؤلاء المستوطنين الأوائل، فقد تضمنت على سبيل المثال أخبارا عن أمراء شيرازيين وصلوا في القرن العاشر الميلادي، وسرعان ما تمكنوا من حكم الجزيرة، وإدخال الطابع المعماري الإسلامي الفارسي عليها.

وتعود أقدم الشواهد والأدلة على استيطان العُمانيين في شرق إفريقيا والموجودة في الطابع المعماري والمخطوطات المكتوبة، إلى القرن العاشر الميلادي. كما برزت بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين عدة مراكز انطلقت شرارتها من مواقع تجارية صغيرة توزعت على امتداد الساحل كانت في الغالب تدار من قبل أشخاص تنحدر أصولهم من ملوك اليمن وفارس أو ممثلين عنهم، كما كان الحال في كِلوه. وتتحدث آثار قليلة عن الجاليات العُمانية خلال تلك الفترة، ولكن على الرغم من ذلك يمكن تمييزهم عن غيرهم بالمذهب الإباضي، وذلك في طريقة أداء بعض العبادات بشكل مختلف عن سنّة اليمن وشيعة فارس.

وهناك اختلاف كبير يظهر بين الإباضيّة وغيرها من المدارس الإسلامية في الطابع المعماري لبناء المساجد؛ لذلك رأى المعماري مارك هورتون أن فن العمارة في مساجد زنجبار يقدّم دليلا إرشاديّا على الخصوصيّات الإباضيّة في فن العمارة في المساجد في الحقب السابقة، وبالنسبة له:

«إن المساجد في زنجبار في القرن التاسع عشر مختلفة ومميزة فهي تعكس المعتقدات الإباضية السائدة، المتمثّلة في البساطة، والشورى، والمساواة، والتسامح. وهذا ما نجده في مبانيهم التي أريد لها أن تتسم بالاعتدال والزهد. كما تعكس قلة الجوامع غياب الإمام المنتخب المجمع عليه؛ لذا تخلو مساجدهم من المنابر التي يتمثل دورها في إلقاء الإمام لخطب الجمعة، وغالبا ما تكون هذه المساجد خالية من النقوش. كما أن المحراب صغير ولا توجد عليه الكثير من الزخارف، وعادة ما يكون المحراب عبارة عن بروز على الجدار نفسه. والسبب الذي قيل في هذا هو أنّ الإمام يجب عدم فصله عن عموم المصلين، فهو مساو لهم. وهدف المحراب الأوحد هو تحديد القبلة فقط، ولا توجد على المسجد أي معالم



التصميم البسيط للمحراب هو تصميم شائع في المساجد الإباضية.

خارجية إضافية، وهي سمة متعمدة تجعل مبنى المسجد خالياً عما يميزه عن المباني الأخرى بدرجة كبيرة.

كما ينفرد المسجد بخاصية رفع البناء من الأرض بحيث يكون مرتفعا عن المناطق المحيطة، وبالتالي فإنّ المارّة لايشاهدون سوى الجدران المرتفعة، ذات النوافذ العالية. ولكي تسود البساطة، وتجنبا لتمييزها عن المباني المحيطة بها فإن هذه المساجد تخلو غالبا من المنارات، وهي سمة تبين مدى مهارة المعماري حينها. وعموما فإن المساجد منظمة بشكل طولي، تتكون من قاعة للصلاة مربعة الشكل بها عمود مركزي ينفتح على فناء به مكان مغلق مخصص للوضوء في جهة الجنوب»[6].

ومن أقدم ما وجده العلماء من آثار تحمل تلك السمات والخصائص على مراحل تعود إلى العام 1000 الميلادي، تلك المتوفرة في مسجد شانجا، بجزيرة باتي، في أرخبيل لامو، وكذلك في مسجد سانجي يا كيتي الواقع في الطرف الآخر من الساحل السواحيلي في أرخبيل كلوه. ويعود كلا المسجدين الإباضيين لفترة ازدهار الإمامة الإباضية الثانية. ويعتد مارك هورتون بهذا الأمر «كدليل على بداية اعتناق السكان المحليين للإسلام، أو وصول الإباضية في هذا الزمن إلى الساحل الإفريقي الشرقي».

ونعلم قطعا من خلال «فتاوى كلوة» التي تعود إلى عام 1137م، كيف نشأ في كلوة مجتمع اتخذ من الإباضية مذهبا له حيث كان الناس في كلوة يبعثون بالرسائل لطلب الفتوى إلى أحد علماء الإباضية المعروفين، وهو الشيخ أبو القاسم سعيد بن قريش. حيث كانت هذه الأسئلة الفقهيّة المكتوبة تسافر عبر المحيط الهندي لتصل إلى نزوى، في داخليّة عُمان، ليجيب عليها هذا العالم المسلم الذي كان مرجعا للناس. وهي تقدّم فكرة وتصورا عن القضايا والاحتياجات والتحديات التي كان يعيشها الناس الذين تغربوا عن ديارهم حينها. وتحتفظ هيئة المحفوظات والوثائق الوطنية في مسقط بنسخة من هذه الفتاوة.

جورج بوب

كلوة كيسواني، المركز التجاري المنسي

تقع كلوة كيسواني على جزيرتين قريبتين من بعضهما البعض قبالة الساحل التنزاني، على بعد مسافة 300 كم من دار السلام، وهي بقايا ميناء قرية كلوة كيسواني وميناء قرية سونجو منارا. وكلوة كيسواني هي القرية الأكبر، فقد كانت مأهولة بالسكان منذ القرن 9 حتى القرن 19 الميلاديين.

وقد حدث التطوّر التاريخي لكلوة والمناطق المحيطة بها في فترات زمنية مختلفة، وامتازت بالتأثيرات المختلفة التي تعاقبت عليها. وخلال العصر الحجري كانت كلوة كيسواني على الأرجح مجرد قرية بسيطة، لكنها خلال القرنين 12 و15 الميلاديين أصبحت مركز إشعاع تجاري في مشهد التجارة في المحيط الهندي.

ونتيجة للتأثيرات الثقافية الإفريقية والعربية والفارسية، أصبحت كلوة كيسواني في تلك الأيام قوة اقتصادية، بسبب ما شهدته في تجارة الذهب والعاج والبضائع الثمينة الأخرى عبر الساحل السواحيلي.

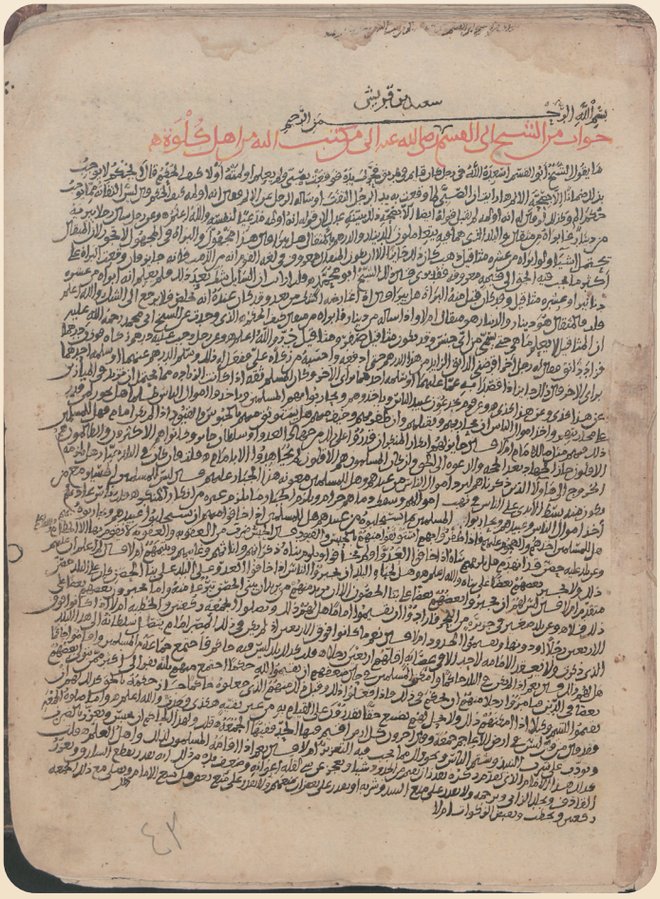
ويطل مقر إقامة السلطان على المحيط الهندي، وتعود فترة بنائه إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويحتوي على ما يزيد على مائة غرفة.

ويرجع الفضل في توفر المعلومات التفصيلية عن الحاضرة الاقتصادية السابقة، للرحالة ابن بطوطة، الذي زار المدينة عام 1331م. ويبدو أنه أعجب بجمالها واتساع رقعة أراضيها. كما أعجب أيضا بأهل كلوة وبطابعها المعماري،

لذلك يصفها قائلا: " كلوة مدينة عظيمة ومنظّمة، ومبانيها المتركزة على الساحل مبنية من الحجارة وخليط الحجر الجيري. وغالب منازلها مكون من طابق واحد، وبها عدد من الغرف الصغيرة، تفصلها حيطان عريضة، تدعم الأسقف الحجرية الثقيلة المثبتة فوق أعمدة المانجروف. وبعض المباني الضخمة مكون من طابقين أو ثلاثة طوابق، وبعضها مزخرف بالحجارة المقطوعة في حدود الجدران والمداخل. وتغطي الحيطان مفروشات ونوافذ مزخرفة، كما أن أرضياتها مفروشة. وهذه المتطلبات هي لبيوت الأغنياء فقط، أما الطبقة الفقيرة فسكنت الأكواخ الإفريقية من الطين والقش."[7]

وخلال هذه الفترة التجارية المزدهرة كانت هناك مجموعة صغيرة من التجار العُمانيين تقيم في الجزيرة، كما توثّق ذلك "فتاوى كلوة".

وكان التجار العُمانيون يستفتون ويبعثون أسئلتهم إلى العالم أبي القاسم سعيد بن قريش المقيم في نزوى، والتي كانت تتعلق بأحوالهم في مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يعيشونها في الغربة بعيداً عن الوطن. فقد كانوا يرغبون في معرفة إمكانية تطبيق



نسخة لصفحة من مخطوط «فتاوى كلوة». وتتصل مسائل هذه الفتاوى بمواقف حيّة عايشها تجار عُمانيون في هذه المدينة. وعلى سبيل المثال فإن إحدى تلك المسائل تتصل بجواز المتاجرة مع من يشرب الخمر من عدم جواز ذلك، ومسألة ثانية تتصل بجواز اختيار إمام للصلاة بهم من غير الفقهاء المتعلمين. والمخطوط هو أقدم مخطوط يوثق العلاقة بين عُمان وشرق إفريقيا، ويعود تاريخه إلى عام 531هـ/ 1137م.

القيم والمبادئ والتعاليم الإسلامية الممارسة في عُمان بحسب المذهب الإباضي في كلوة. وتتصل هذه الفتاوى أيضاً بأوضاع بعض الأقليات المسلمة في أماكن معينة في شرق إفريقيا. وتكمن أهمية "فتاوى كلوة" في أنها محاولة لنقل تجارب الحياة السياسية والاجتماعية في عُمان إلى المواقف المشابهة لها في جزيرة كلوة.

وقد بدأت كلوة في فقدان أهميتها فور إقصائها من شبكة التجارة من قبل المستعمرين البرتغاليين في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلا أن الجزيرة شهدت مجددا



الجامع الكبير في كلوة كيسواني هو أقدم مسجد قائم حتى الآن في ساحل شرق إفريقيا، بقبابه الست عشرة، ومداخله المعقودة، وفنائه المتميّز.

انتعاشا تجاريا كبيرا في فترة لاحقة خلال القرن الثامن عشر الميلادي، وذلك بفضل ازدهار تجارة العاج ، التي كان يسيطر عليها في ذلك الوقت التجار العُمانيون. كما أقيمت أعمال توسعة للقلاع والحصون التي بناها البرتغاليون، إلى جانب ذلك بني فيها قصر ومساجد ومستوطنات جديدة.

وفي عام 1981م أدرجت اليونيسكو أطلال كلوة كيسواني وأطلال سونجو منارا في قائمة التراث العالمي اعتمادا على الحقائق الآتية:

"كلوة كيسواني وسونجو منارا هما مدينتان تجاريتان تقعان على ساحل شرق إفريقيا. كان أساس ازدهارهما قائما على استحواذهما على تجارة المحيط الهندي مع الجزيرة العربية والهند والصين، خصوصاً بين القرن الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين، حيث كان الذهب والعاج الذي يجلب من الداخل الإفريقي يباع في مقابل الفضة والعقيق والعطور والخزف الفارسي والبورسلين الصيني. وقد صكت كلوة كيسواني عملة خاصة بها خلال القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، إلا أن الأوضاع في الجزيرتين بدأت في الانحسار والتراجع في القرن السادس عشر الميلادي بعد أن قام البرتغاليون ببناء قلعة في كلوة كيسواني.

تغطي آثار كلوة كيسواني جميع أنحاء الجزيرة، إلا أن مواقع كثيرة من المدينة لا تزال لم تخضع لأعمال تنقيب حتى الآن. إن الآثار والمباني الأثرية المتبقية في الجزيرة مبنية من المرجان وخليط حجر الجير، ولعل أبرزها الجامع الكبير الذي بني في القرن الحادي عشر الميلادي، وجرت توسعته في القرن الثالث عشر الميلادي، تم تسقيفه بالكامل بقباب وأقبية، زخرفت بعضها بالبورسلين الصيني. ومن أبرز هذه المواقع الأثرية كذلك قصر حوسوني كبوا أو "الحصن العظيم"، حيث بني هذا القصر في الفترة بين عامي 1310 و1333م، والذي يحتوي على حوض استحمام كبير ثماني الأضلاع. هذا بالإضافة إلى الحصن الصغير، والعديد من المساجد، والسجن، المبنية على أطلال القلعة البرتغالية، ومجمع سكني متكامل ببيوته، وميادينه العامة، ومقابره، والمزيد من المباني.

إن جزيرتي كلوة كيسواني وسونجو منارا تحملان شهادة مهمة لمدى أثر الثقافة الساحلية السواحيلية، وعلى انتشار الإسلام في شرق إفريقيا، والامتداد الواسع لازدهار تجارة المحيط الهندي منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث.



الرجلان الظاهران في الصورة يؤكدان أنهما أخر من تبقى من العُمانيين في كيلوا كيفنيجي، حسب روايتهما عام 2018.

والجزيرتان تقدّمان شواهد معمارية وأثرية وتوثيقية متميزة عن نهضة الثقافة السواحيلية، وعن الاقتصاد على طول ساحل شرق إفريقيا منذ القرن 9 حتى القرن 19 الميلاديين، موفرة معلومات دقيقة عن الحراك الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في المنطقة".[8]

السواحيليون

عُرف ساحل شرق إفريقيا قديما باسم أزانيا أو ساحل الزنج، وكان معروفا لدى التجار العرب الأوائل بالزنج. ويطلق هذا المصطلح أيضاً على السكان الذين كانوا يقطنون هذا الساحل. ويذكر الإدريسي في القرن 12 الميلادي أن الزنج لايملكون سفناً خاصة بهم، لكنهم يستخدمون سفناً من عُمان وبلدان أخرى. كما ذكر أيضا قوافل تجارية قادمة من البرّ، تحمل بضائع لبيعها في ساحل ممباسا وماليندي. كما أطلق لاحقا على سكان ساحل شرق إفريقيا بالسواحيليين، وهي التسمية العربيّة لسكّان الساحل، والمستخدمة حتى يومنا هذا.

وفي عام 1331م، زار الرحّالة العربيّ الشهير ابن بطوطة السواحل، ولاحظ أنّ تجارة ما وراء البحار تعتمد على العلاقات والمعارف الشخصيّة، وأنّ البيع والشراء لايتم في الأسواق، وإنما يقوم الباعة المحليّون بدعوة التجار الأجانب إلى منازلهم. وعندما يصل التاجران العربي والسواحيلي إلى اتفاق مرض للطرفين، فإنّ علاقتهم سوف تستمر لسنوات عديدة. ولتقوية هذه الصلات التجاريّة كان شائعا جدا لدى السكان على طول الساحل أن يزوّج التاجر السواحيلي ابنته للتاجر العربي.

أدت العلاقات التجاريّة الوثيقة، بين سكّان الساحل والقادمين من الداخل الإفريقي مع تجّار قادمين من البلدان الأخرى الواقعة على الطرف المقابل المبحرين بسفنهم الشراعية التي تدفعها الرياح الموسميّة لقرون عديدة، إلى تطوير مجتمع متداخل الثقافات هو المجتمع السواحيلي.

ويصف الأستاذ الدكتور عبدل شريف الأمر على النحو الآتي:

«إنّ اعتماد البحارة والتجار في المحيط الهندي على الرياح الموسميّة سهّل عملهم وعرقله في الآن ذاته، لأنه كان عليهم الانتظار عدة أشهر قبل أن يتوجهوا عائدين إلى ديارهم. وحيث إنّ الغالبية العظمى من هؤلاء التجار هم من الرجال، فقد انقادوا إلى ما وصفته الأدلة البحرية «بالتداخل والتزاوج المستمرين» مع السكان المحليين؛ مما أنتج جيلا متنوّعاً ومتناغماً من الأعراق والثقافات. استقرّت بعض هذه المجموعات وإستوعبت مفردات اللغة والثقافة المحلية، لكنهم في الوقت نفسه جلبوا عناصر عديدة من تراثهم الثقافي، ولغتهم وأدبهم، ومنظومة معتقداتهم، مؤسسين لمركّب جديد متفرّد، هو السواحيلي»[9].

إنّ الثقافة السواحيلية التي ظهرت خلال القرن العاشر الميلادي كانت في أكثرها ثقافة إسلاميّة، وتجاريّة، وحضريّة. وهي الثقافة التي تميز بيوت الحجر والمدن الممتدة من مقديشو شمالاً، حتى سُفالة جنوبا (في موزنبيق حاليا)، على امتداد 3200 كيلومتر من سواحل شرق إفريقيا، المعروفة باسم الساحل السواحيلي.

وقد أثمر التعايش القائم بين مختلف الثقافات في شرق إفريقيا عن ولادة لغة مشتركة هي اللغة السواحيلية، التي هي عبارة عن مزيج من عدة لغات هي البانتو والفارسيّة والعربيّة. وأصبحت هذه اللغة، لغة التجّار، ومن ثم انتشرت عبر الطرق التجاريّة.



الأوروبيون و«عصر الاكتشافات»

كانت تجارة البضائع الثمينة من شرق إفريقيا والشرق الأقصى حتى عام 1500م بيد التجار العرب، الذين كان غالبيتهم من العُمانيين بيد أنه ومع نهاية العصور الوسطى، شهدت هذه السلع الثمينة رواجا في الأسواق الأوروبية وكوّن التجار الأجانب لأنفسهم تكتلات وأحزابا لها ثقلها الاجتماعي. فقد كانوا يتاجرون ببضائع من الشرق، كالبهارات والأقمشة والمنسوجات، ويجنون من هذه التجارة أموالا طائلة وأرباحا كبيرة. وبتزايد قوتهم الماليّة سرعان ما أصبحوا قوة يحسب لها حسابا، لدرجة أصبحت السياسة في أوروبا في ذلك الزمن تدار من قبل عائلات مثل آل مديتشي في إيطاليا، وويلزرز وفوجرز في ألمانيا - باعتبارهم الوكلاء الماليين للأباطرة، والملوك، ورؤساء الكنيسة، والأرستقراطيين المحليّين.

وباتساع سوق تلك البضائع زادت رغبة هذه العائلات التجاريّة في الاستغناء عن الوسطاء العرب، وشراء البضائع مباشرة من مصادر إنتاجها وبأرخص قيمة ممكنة.

بنى البرتغاليون منارة فاسكو دي جاما، عام 1498م، في ماليندي كيليفي وسط مقاومة إسلاميّة، وقد أقيمت المنارة لغرض إرشاد البحارة المتجهين إلى الهند.

وأصبحت الهند، الأرض المجهولة والتي أشبه ما تكون بالأرض الأسطوريّة، مقصد كثير من الحملات الاستكشافية المهمّة. ووضع البرتغاليون والإسبان نصب أعينهم مهمة العثور على الطريق البحريّ المؤدي إلى الهند. وقد سبق لشعب شبه الجزيرة الأيبيريّة معرفة نمط الحياة الذي أدخله العرب، كما ثمّنوا المخترعات البسيطة، والتي كانت بالنسبة لهم مهمة للغاية في توفير سبل الراحة والرفاه. وشكّل سقوط غرناطة في عام 1492م، عندما خسر العرب آخر موطئ قدم لهم في إسبانيا، مؤشرا على توسع نفوذ الغرب وضمهم لأراض عربيّة، وكانت بمثابة انتصار وسيطرة على التجارة المربحة مع الشرق.

وبعد ست سنوات من رحلة كولومبوس البحريّة الأولى إلى أمريكا، نجح فاسكو دي جاما في عام 1498م في الإبحار حول رأس الرجاء الصالح، وفي ماليندي بشرق إفريقيا استعان دي جاما بأحد الملاحين من هناك ليدله على طريق الهند فنزل في كاليكوت على ساحل الملبار بالهند؛ ومن تلك اللحظة نشأ طريق تجاري مباشر بين أوروبا والهند.

وكان من بين البضائع العائدة إلى الديار، لهذه الرحلة الأولى، نسخة من كتاب مهم لأحمد بن ماجد. وقد سطّر هذا الملاّح العُماني البارع والمعروف أكثر من أربعين كتاباً، في حياته، معظمها كانت عبارة عن منظومات وقصائد، مما سهّل حفظ المعلومات الصعبة والمعقدة. وكان من أشهر كتبه، كتاب «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» الذي شرح فيه أساسيّات الملاحة.

ويعتبر هذا الكتاب التوثيق الأول لعلم تراكم عبر أجيال من البحّارة، فضلا عما يحتويه من كنوز تمثلت في تجاربه ورحلاته الخاصّة وملحوظاته المهمة والدقيقة. ويُعتقد أن البرتغاليين امتلكوا نسخة من كتاب «الفوائد» في رحلتهم البحريّة الأولى إلى الهند.



الأدميرال ألفونسو دي البوكيرك

وترجم الكتاب في لشبونة، فاجتمعت عندهم علوم وخبرات الملاّح العُماني البارع، وزملائه، وتقنية استخدام آلة «الكمال»، وتجارب الأوروبيين الملاحيّة. وكان أحمد بن ماجد طاعنا في السن عند وصول البرتغاليين، لكنّه أحسّ بخطرهم القادم، وحذّر منهم قومه وسرعان ما تبين صدق حدسه.

وفي مطلع عام 1503م، هاجم القائد البرتغالي ألفونسو دي ألبوكيرك مدناً ومستوطنات في الجزيرة العربيّة وشرق إفريقيا وقام باحتلالها، وذلك في دلالة من استفادتهم بمعرفة الطريق البحري المؤدي إلى الهند. واقتضت توجهاتهم وقتها أن يغلق الطريق التجاري مع الشرق عبر البحر الأحمر والذي استخدمه قديما البنادقة والفراعنة. كما اقتضت الأوامر أيضا الاستيلاء على جميع المستوطنات ومراكز التجارة المهمّة. وحمل ألبوكيرك معه رسالة سرية مختومة من الملك مانويل، تقضي بتعيينه حاكما على الهند التي لم تكن تحت سيطرة البرتغاليين بعد. فقد بيت البرتغاليون نية لإقامة إمبراطورية استعمارية برتغاليّة في المحيط الهندي. وقد بدا لهم هذا الأمر ممكنا نظرا لتقدم قوتهم العسكرية لأن سفنهم كانت مزوّدة بالمدافع التي تعطيها أفضليّة كبيرة على ما يمتلكه العرب من أسلحة دفاعية.

وبحلول عام 1508م، زحف البرتغاليون على الساحل مواصلين تقدمهم باتجاه هرمز. وعلى الرغم من إعجابهم بما شاهدوه من مدن تعجّ بالحياة والحركة والبساتين الغنّاء الرائعة، إلا أنهم خلفوا وراءهم الدمار والموت، فلم تكن قيم التسامح والنبل والكرم بين الثقافات والديانات الأخرى، والتي كانت أساس نجاح تجارة المحيط الهندي حتى ذلك الوقت، تعني لهم شيئا أبداً في أوروبا فقد كانت تلك الحقبة الزمنية فترة عصر محاكم التفتيش. وبعد أن حقق حلمه، مات ألبوكيرك في جوا بالهند، عام 1515م.

صفحة من الترجمة البرتغاليّة لكتاب أحمد بن ماجد «الفوائد» توضّح طريقة الملاحة باستخدام آلة «الكمال».

وفرض البرتغاليون الضرائب والرسوم، ومنعوا السكان المحليين من ممارسة التجارة في بعض البضائع الثمينة مثل الفُلفُل. كما شيّدوا القلاع والحصون على امتداد السواحل العُمانية، وفي ممباسا، وهرمز، والهند لفرض قوتهم وهيمنتهم على المنطقة.

وعلى الرغم مما قد يبدو أن البرتغاليين قد حققوا هيمنة وسيطرة تامة على طرق التجارة، إلا أن السيطرة المطلقة على تلك الطرق لم تتحقق لهم في الواقع؛ فقد توزّعت المراكز التجارية للمحيط الهندي على آلاف الأميال البحرية، وكان عدد أفراد الحمايات كان أصغر من أن يؤمن دفاعاً قويّاً يكبح القوى المحليّة.



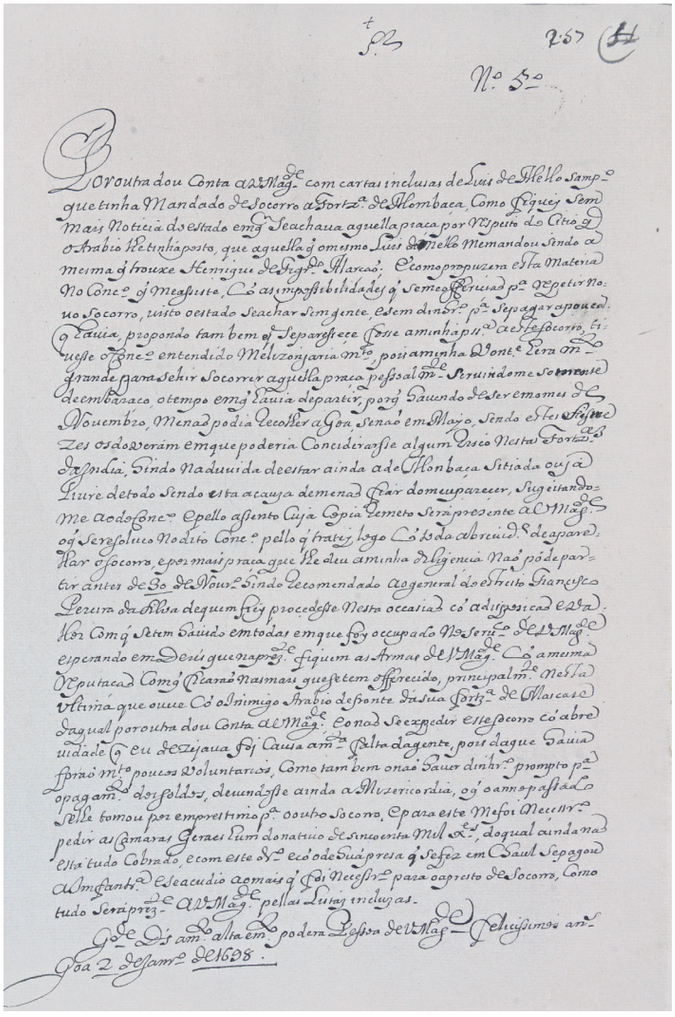
آلة «الكمال» المستخدمة للملاحة في سفينة «جوهرة مسقط» التي وصلت إلى سنغافورة.

ومنذ حوالي عام 1580م بدأت أطماع القوى الأوروبية الأخرى في المحيط الهندي في الظهور، حيث أرادت هذه القوى أيضاً الحصول على نصيب من تجارة البهارات الرابحة؛ فأنشأ كل من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين شركات الهند الشرقية. ومع مطلع القرن السابع عشر الميلادي بلغت البرتغال ذروة قوتها.

بناء قوة بحريّة

عند وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي، واحتلالهم أغلب مراكز التجارة المهمّة، كان العُمانيون يعانون من ظروف معيشية سيئة، حيث حلّ على عُمان حينها جفاف دام طويلا، فجفت فيها الأفلاج، ويبست الأراضي. وزاد الأمر سوءا اشتعال الحروب القبلية بين العُمانيين، كما ضرب وقتها ساحل عُمان زلزال، خلف دمارا في البيوت والممتلكات والتحصينات في قلهات التي كانت واحدة من أهم المراكز التجاريّة في عُمان، في ذلك الوقت.

وقد هاجر الكثير من العُمانيين خلال هذه الفترة؛ هروباً من سوء الأحوال الاقتصادية بسبب الجفاف، إلى ساحل شرق إفريقيا الذي تميز بالخصب ووفرة المياه والانتعاش. لذا عندما وصل البرتغاليون عُمان وجدوا مقاومة ضعيفة، فضلا عن تفوق قوتهم وتميزهم بأفضليّة التسليح.



رسالة من نائب الملك في الهند إلى ملك البرتغال حول الحصار العُماني لممباسا، بتاريخ 2 يناير، 1698م.

وعند مبايعة ناصر بن مرشد اليعربي على الإمامة في الرستاق عام 1624م، نجح في القضاء على النزاعات القبليّة، ووحّد القبائل المتناحرة مشكّلاً قوّة يمكن الاعتماد عليها، وسرعان ما تنامت شراسة المقاومة العُمانية ضد القوّة البرتغالية الآخذة في الضعف.



توفي الإمام ناصر بن مرشد في 14 إبريل 1649م، ودفن في نزوى.



ضريح الإمام ناصر بن مرشد.

وبعد وفاة اللواء البرتغالي روي فيريري عام 1632م، تقدّمت قوّات الإمام ناصر بن مرشد مهاجمةً التحصينات البرتغالية على الساحل، وبدأ العُمانيون في استعادة المدن العُمانية واحدة تلو الأخرى من أيدي البرتغاليين، فاستعادوا دبا وصحار وجلفار وصور وقريات. وقد توفي الإمام ناصر في 14 إبريل من عام 1649م، في الوقت الذي كان فيه جنوده يحاصرون ما تبقّى من القوات البرتغاليّة في مسقط.

وبعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد، بُويع ابن عمّه سلطان بن سيف اليعربي إماماً بالإجماع، والذي كان من أكبر المناصرين للإمام ناصر، وأثبت جدارته في قتاله الغزاة البرتغاليين. وقد واصل الإمام سلطان بن سيف قيادة العُمانيين في تحرير عُمان، واستطاع بحلول عام 1650م طرد البرتغاليين بشكل كامل من جميع مدن عُمان وسواحلها.

واستغل الإمام سلطان بن سيف الروح المعنوية العالية للعُمانيين حينها، ودعا إلى جهاد البرتغاليين وتتبعهم في المحيط الهندي. وكان هدف الإمام سلطان إبعاد البرتغاليين إلى أقصى نقطة ممكنة، وإخراجهم من مراكز التجارة العربيّة في المحيط الهندي، ومن شرق إفريقيا تحديدا. ومن أجل تحقيق ذلك؛ قام بإنشاء أسطول بحري وتجاري. وقد تحقق له ذلك بغنيمة العُمانيين، بعد هزيمتهم البرتغاليين في عدة مواقع ومعارك بحريّة، كثيراً من السفن البرتغالية بما عليها من عتاد ورجال مدربين لإدارتها من السكان المحليين. كما بنيت سفن في عُمان، وجلبت أخرى من الهند؛ وذلك لندرة الخشب في عُمان، كما أن شراء السفن جاهزة حيث يوجد الخشب أرخص ثمنا من جلب الخشب إلى عُمان وبناء السفن فيها. ومع نهاية القرن السابع عشر الميلادي، وخلال فترة لا تتجاوز الخمسين عاماً، أضحت عُمان قوّة بحريّة عظيمة.



نقش قديم على جدران قلعة يسوع في ممباسا، يشير إلى المعارك التي قامت بين الجيوش العُمانية والبرتغالية.

هاجم الأسطول العُماني في عام 1652م الحاميات البرتغاليّة في باته وزنجبار، وألحقها بهجوم في عام 1655م على ممباسا وبومباي، وتركزت الهجمات العُمانية على الحاميات البرتغالية على السواحل الغربية للهند على بومباي في عام 1661م، وديو، أحد أكبر معاقل البرتغاليين في الشرق في عام 1668م بواسطة أسطول مكوّن من 16 سفينة و6 بارجات، وفي طريق عودة هذا الأسطول، تمكن من هزيمة الأسطول البرتغالي المكوّن من 12 سفينة.

ويذكر المؤرخ البحري كارلوس إيان هاملتون أن الأسطول العُماني في عام 1720م كان يتألف من سفينة كبيرة بها 74 مدفعاً، وسفينتين كبيرتين بهما 64 مدفعاً، وسفينة بها 50 مدفعاً، وثماني عشرة سفينة أخرى مزوّدة بين 12 إلى 32 مدفعاً، وعدد من المراكب، كل مركب به من 4 إلى 8 مدافع.[10]

أمّا عن أنواع السفن العُمانية فقد كانت مزيجا من السفن العربيّة والأوروبيّة، وكان القاسم المشترك بينها أنها جميعاً بنيت باستخدام المسامير؛ ذلك أنّ الطريقة القديمة في خياطة الألواح لا تتحمّل الهزات الناتجة عن إطلاق المدافع.

كانت ممباسا وقلعتها قلعة يسوع أقوى المعاقل البرتغاليّة في ساحل شرق إفريقيا، الأمر الذي دفع العُمانيين إلى توجيه عدة هجمات لها بدءا من عام 1655م. وفي عام 1660م استطاع العُمانيون إسقاط ممباسا، إلا أن القلعة بقيت تحت قبضة البرتغاليين. وفي 13 مارس من عام 1696م، أرسل الإمام سيف بن سلطان الأول أسطولاً مكوّناً من سبع سفن، تحمل 3000 جندي، وضرب حصاراً ناجحاً على القلعة، دام 33 شهراً، أي حتى تاريخ 13 ديسمبر 1698م حررت في إثرها القلعة من البرتغاليين. واستمرت محاولات البرتغاليين لإعادة السيطرة على هذه القلعة المهمّة استراتيجيّاً دون نجاح يُذكر. وبسقوط قلعة يسوع طُرِدَ البرتغاليون من شرق إفريقيا إلى شمال رأس ديلجادو، وانهارت قوتهم، واعترفت الدول الحليفة لهم على الساحل لعُمان بالتبعيّة.

ويقال إنّ الإمام سيف بن سلطان الأول بعد هذه الحادثة أرسل ناصر بن عبد الله المزروعي ليكون والياً له على ممباسا. ويعود أصول قبيلة المزاريع إلى مدينة الرستاق التي تقع في خاصرة جبال الحجر الشرقي. واستمر المزاريع في حكم ممباسا بوصفهم حكاما مستقلين حتى جاء السيد سعيد بن سلطان وعيّن واليا عليها في عام 1837م.



الفصل الثاني

لقد كان الأوروبيون يطلقون على السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي (1791-1856) لقب الإمام والسلطان، إلا أنَّ السلطان سعيد كان يطلق على نفسه لقب «السيّد»، ولم يبايع السيد سعيد من قبل أهل الحلّ والعقد في البلاد، كما حدث مع من سبقه من الأئمة، وكان دائما ما يردد «ما أنا إلاّ تاجر».



ميلاد إمبراطورية تجاريّة

تمهيد الطريق

بدأ السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي، سلطان عُمان، في عام 1828م، يتردد على ساحل شرق إفريقيا، في زيارات متكررة لتأمين وتثبيت حكم البوسعيد على المناطق الواقعة على ساحل شرق إفريقيا حتى قرّر في بداية عام 1832م أن ينقل حكومته وقضاته وأسرته، وأكثر أنشطته العسكريّة والتجاريّة من مسقط إلى جزيرة أنجوجا، المعروفة بزنجبار.

ويصف الأستاذ الدكتور ألان فُرُمْهِرز، مدير مركز دراسات الشرق الأوسط، بجامعة ولاية جورجيا في أتلانتا، هذه الخطوة المميّزة بقوله:

"تخيّلوا لو أن الملكة فيكتوريا قررت بعد زيارتها مدينتي بومباي وكاليكوت نقل بلاطها وبرلمانها من ويستمنستر واستقرت مع حكومة جلالتها في الهند، جوهرة تاج الإمبراطورية البريطانية. وبدلاً من ذهاب الشخصيات الأوروبية الرفيعة إلى قصر باكنغهام القريب والفخم للالتقاء بالملكة، سيكون عليهم القيام برحلة طويلة إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، حيث تستقبلهم شبه القارة الهندية بكل بهائها. تخيّلوا أنه بدلًا من إرسال القطن والشاي وبقية المواد الخام التي تتدفق إلى إنجلترا باستمرار لتغذية النمو المضطرد للثورة الصناعية، تُرسل هذه الموارد الطبيعية بدلاً من ذلك إلى الهند. يبدو هذا السيناريو غير معقول بتاتا. وسبب صعوبة تخيّل ذلك كونه يأتي مخالفا للأهداف الأساسية التي قام عليها الاستعمار الأوروبي. لذا أبقت الإمبراطوريات الأوروبية عواصمها وحكوماتها وعملياتها التجارية في أوروبا، واستفادت هي في المقام الأول وقبل أي أحد آخر من الأراضي التي استعمرتها، بصرف النظر عن المسافة التي تفصلها عن تلك المستعمرات. ومهما كان الغرض

يمين
توحي لوحة هنري بلوز لينتش (1807-1873) بأنها رسمة حقيقية لوجه السلطان، إلا أنها مجرّد محاولة تصوير وتفسير فنيّ لملامحه، فهي ليست دقيقة جداً في تفاصيلها، خاصّةً فيما يتعلق بملابس السلطان.
(تُنشر بإذن خاص من متحف بيبودي إيسكس)

من نقل كرسي الحكم، فإن مؤسسات الإمبريالية البريطانية وشركة الهند الشرقية كانت ستكره نقل العاصمة إلى أراض أجنبية، فالعاصمة هي المركز الذي تُضخ معظم الأرباح إليه. وبالفعل، كان هذا التمييز الحاصل بين الوطن والمستعمرة هو أبرز ما يميز الحكم الأوروبي سياسيا واقتصاديا، وهو كذلك ما يتسم به التجار والمغتربون الذين كانوا يقضون معظم حياتهم في الخارج. ولكن السلطان سعيد بن سلطان، سلطان عُمان أقدم على خطوة لم يكن في وسع حتى الملكة فيكتوريا القيام بها"[1].

مرئيات نقل مقر الحكم إلى زنجبار

قبل أن يتوجّه السيد سعيد بن سلطان إلى شرق إفريقيا، كان عليه قبل كلّ شيء تدعيم سلطته وحكمه على مسقط وعُمان، حيث اتسمت سنوات حكمه الأولى في مسقط بالتوتر والتعقيد، ففي داخل عُمان كانت الخلافات قائمة بين الأسرة الحاكمة والقبائل العُمانية، ومن جهة البحر، كان هناك تنافس بين البريطانيين والفرنسيين للسيطرة على طرق التجارة في المحيط الهندي، إلى جانب أعمال القرصنة التي كان يمارسها القواسم في الخليج العربي فضلا عن الخطر المتمثل في زحف الحركة الوهّابيّة المتشدّدة التي زاد توسّعها في الجزيرة العربية في تلك الفترة التاريخية.

امتدت جهود السيد سعيد بن سلطان قرابة عقدين من الزمان للقضاء على المعارضة الداخلية والتصدي للمخاطر الخارجية، وإعادة الاستقرار داخل عُمان، وتأمين طرق السفر والتجارة في الجزيرة العربية، كل ذلك بواسطة جيش صغير، وأسطول بحري كان يقوم بمهام تجاريّة إلى جانب مهامه العسكرية. ونجح السيد سعيد في خلق شعور حقيقي بوجود سلطة وحكم مركزي داخل عُمان بين مختلف القبائل القويّة، وعُرِف بأنّه هو من أسس العلاقات وعمل على تقوية الروابط بين الشعوب من مختلف الأعراق، والهويّات، واللغات والثقافات.



لوحة مائية بريشة الفنان البريطاني وليام دانييل، تعود إلى عام 1793م، تُظهر مرفأ مسقط وهو محمي بشكل جيد.

وشكراً لله على انتصاراته، زار السيد سعيد في عام 1824م مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وكان عمره حينها 33 عاما، وهي المرة الأولى التي يغامر فيها بمغادرة أرض الوطن. وقد خطّط وفكّر خلال هذه الرحلة في زيارة الأراضي التابعة له في شرق إفريقيا، ثم قرر الإبحار إلى شرق إفريقيا، وظل منذ ذلك الوقت متنقلا بينها وبين عُمان. ولصعوبة حضوره في مكانين في آنٍ واحد، كان على السيد سعيد أن يجد وسيلة تضمن حماية استقرار الأوضاع في عُمان ومسقط، والأراضي التابعة لإمبراطوريته في شرق إفريقيا، عند غيابه عنها.

وحلّا لهذه المعضلة عين السيد سعيد بتعيين حكاماً وولاة مخلصين ينوبون عنه عند غيابه، يحفظون مكانته ويهتمون بتأمين سيطرته في المراكز المهمة التي تقع تحت حكمه. ومن بين أبرز هؤلاء كانت امرأة، تعرف بـ "بيبي موزة" أي السيدة موزة، كانت تقيم في مسقط، وهي عمّة السيد سعيد بن سلطان. وتكبره بخمسة عشر عاما، والتي كان لها دور كبير في وصول السيد سعيد إلى السلطة.

قالت السيّدة سالمة، ابنة السيد سعيد، عن السيدة موزة:

"حين توفي جدي، سلطان عُمان وإمام مسقط، ترك ثلاثة أبناء هم أبي سعيد، وعمي سالم وعمتي عائشة. ولأن عمر أبي حينها لم يتجاوز التسعة أعوام فقط، لذا؛ كان تعيين وصي عليه أمرا ضروريا. وخلافًا للأعراف أعلنت عمة أبي على الفور وبحزم أنها هي من سيتولى إدارة شؤون الحكم حتى يبلغ ابن أخيها سن الرشد، ولم تواجه على ذلك أي اعتراض. لم يتوقع الوزراء حدوث أمر كهذا، فقد كانوا قبل ذلك يحتفلون سرًا لأنهم سيتمكنون من التحكم في شؤون البلاد بضع سنوات، ولم يجدوا بُدًّا بعد هذا القرار سوى الخضوع والتسليم بالأمر. وكان عليهم أن يقدموا تقاريرهم إليها، وتلقي الأوامر والتعليمات منها بشكل يومي. كانت يقظة جدا، تراقب كل شيء، وتعرف كل ما يدور، فلم يَخف عليها شيء، الأمر الذي أغضب كثيرا وأزعج غير المخلصين والمتقاعسين والكسالى.....، وما لبثت حتى مرت بعد مدة قصيرة بتحدٍ واختبار صعبين، فلم يكن قد مضى على توليها زمام الأمور وقت طويل حتى اندلعت في عُمان فتنة وحرب شعواء، وهو أمر مع الأسف كثير الحدوث في عُمان. لقد خيّل إلى أقارب لنا أن باستطاعتهم بسهولة إسقاط حكم تديره امرأة وإنهاء حكم عائلتنا وتنصيب أنفسهم حكاما علينا. فعاث رجالهم في البلاد فسادا ودخلوها بالسيف وتقدموا حتى وصلوا قريبا من بوابات مسقط. وفر آلاف من الناس من قراهم ومدنهم التي طالها النهب والسلب، بحثًا عن الحماية والمأوى تاركين وراءهم جميع ما يملكون من مال وممتلكات.

لقد كانت مسقط محصنة وقادرة على الصمود في وجه الحصار، ولكن ما فائدة منعة الأسوار وقوتها إذا استنفذت الموارد ونفد الزاد والعتاد؟!



يكشف كتاب مذكرات أميرة عربية للسيدة سالمة عن جوانب مهمة في حياة والدها السيد سعيد والفترة الزمنية لحكمه.

لقد أثبتت عمة أبي في هذه الفترة الصعبة قدرتها، وحصلت على اعتراف وإعجاب الأعداء. فقد كانت تطوف وحيدة ليلًا مرتدية ملابس الرجال لتتفقد خطوط مواقع الحراسة، وكانت تقوم بمراقبة الجنود ورفع معنوياتهم في جميع النقاط الحساسة والمواقع الأكثر عرضة للهجوم، ونجت في مواقع كثيرة من هجمات مفاجئة بفضل سرعة فرسها....

تفاقم الوضع وازدادت الأحوال سوءا في مسقط. عمت المجاعة وامتلأت القلوب يأسًا، فلم تكن هنالك مساندة أو معونة منتظرة من الخارج، بل تقرر القيام بهجوم أخير يائس للظفر على الأقل بموت مشرف. لقد كان البارود المتبقي بالكاد يكفي لخوض هجوم آخر، ولكن رصاص بنادق المسكيت والبنادق الأخرى والمدافع قد نفد تمامًا. هنا أمرت عمة أبي والوصية عليه أن يجمع كل ما يمكن جمعه من المسامير الحديدية، والبحث حتى عن الحصى المناسبة لاستخدامها بدل الرصاص، وكسر كل ما وجد من حديد ونحاس وتعبئة المدافع به. وفتحت الحاكمة خزائنها وحولت دولارات ماريا تيريزا المصنوعة من الفضة إلى رصاص. وبذلت كل ما يمكن بذله من جهود، فإذا بالهجوم المباغت الأخير يؤتي أكله وتحقق انتصار لم يكن في الحسبان. فوجئ العدو فتفرق في جميع الاتجاهات تاركًا أكثر من نصف جنوده بين قتيل وجريح في ميدان المعركة. لقد تحررت مسقط، وبتحررها تحرر معها همُّ المرأة الشجاعة التي خرت ساجدة في أرض المعركة، تحمد ربها وتشكره على كرمه ولطفه. ومنذ ذلك الوقت تمتعت فترة حكمها بالهدوء والاستقرار، واستطاعت أن تسلم ابن أخيها، أبي، مقاليد حكم الإمبراطورية وهي في حالة من النظام، وإلى حد جعله في حالة من الاستقرار مكّنته من توسيع نطاق إمبراطوريته بفتح زنجبار. لذا فعمة أبي كان لها فضل كبير علينا في الحصول على إمبراطورية ثانية. لقد كانت هي أيضا نموذجا للمرأة الشرقية!" [2].

ومع أنّ السيدة موزة لم تتقلّد أي منصب رسميّ، إلا أن إخلاصها وشجاعتها كانا محلّ اعتماد السيّد سعيد للحفاظ على حكمه في عُمان خلال فترات غيابه عنها، فقد أخمدت الكثير من الخلافات، وقضت على حركات تمرد ومعارضة خطيرة.





قصر الموييني مكو المرمّم حديثاً، في دونجا.

الزيارة الأولى إلى زنجبار

كانت أول زيارة قام بها السيد سعيد إلى زنجبار في عام 1828م، حين رسا بأسطوله على الرصيف الصخري لمرفأ مواجه للمدينة الحجرية المعروفة بـ "ستون تاون". ومثّلت هذه الجزيرة للسلطان سعيد، ومن الوهلة الأولى، فرصة عظيمة لا يمكن مقاومتها، ولا تجاهلها. ووجد أنها بوّابة العبور إلى البرّ الإفريقي، كما رأى أنها تتميز بموقع استراتيجي بمحاذاة طرق التجارة الكبرى، فضلا عن امتلاكها أفضل مصادر للمياه العذبة التي تغذي المناطق الواقعة على الساحل الشرقي. ولم تكن عاصمة أرخبيل زنجبار آنذاك سوى مجموعة من المباني الحجرية تحيط بها أكواخ من الطين والقش، لكنها تمتلك المقومات التي تمكنها من أن تصبح مدينة مزدهرة، وميناء تجاريا. ولخصوبة أراضي الجزيرة ووفرة مصادر المياه فيها فقد تراءت للسلطان خطط استغلالها زراعيا. فقد وجد في هذه الجزيرة فرصة عظيمة لتوسيع امبراطوريته وتجارته في شرق إفريقيا، وبشكل يمكنه من تعويض انخفاض عائداته الاقتصادية من تجارة جنوب المحيط الهندي. ونظرا لتزايد النفوذ الأوروبي في هذه المنطقة وفرض المزيد من القيود على التجارة العالمية؛ فإن قرار السيد سعيد نقل عاصمته إلى زنجبار كان في المقام الأول قراراً اقتصاديّاً، إذ إنه كان على موعد مع انتقال إلى مكان تزداد فيه الأنشطة الاقتصادية للإمبراطورية العُمانية، حيث يمكنه تشجيع التجارة وتوسيع نطاقها من أجل زيادة عائدات خزانة السلطنة.



طبل يرجع للموينى مكو، يحوي نقوشا على شكل نباتات، وعبارات تعظيم وثناء للرب، وحثّاً للحاكم ليحكم بالعدل. تقول إحدى العبارات المكتوبة: «أعمالك تعكس قيادتك؛ لذا ادعُ الناس جميعا للوحدة، حتى أولئك الذين يتصرّفون بشكل مختلف، فالحكمة تقتضي لمّ شمل الجميع وتحقيق رغباتهم».

كان السيد سعيد يدرك تماما أنّ وضع المرتكزات والأسس التي ستقوم عليها رؤيته وخططه في شرق إفريقيا يتطلب وقتاً، وأن عليه في الوقت نفسه الاهتمام بسير الأمور وعدم إغفال شؤون البلاد في مسقط. لذا كانت عودته إلى عُمان بعد مرور سنتين ونصف فقط، وتحديدا في عام 1830م أمرا طبيعيا غير مستغرب.

وقبل أن يشرع في تنفيذ سياساته التي وضعها في مخيلته لزنجبار وترجمتها على أرض الواقع، كان عليه أولا أن يعقد اتفاقاً، مع الموينى مكو، وهو اللفظ السواحيلي الذي يطلق على الزعيم الأكبر، والحاكم المحلي لشعب المخاديمو (السكان الأصليين في جزيرة زنجبار). والموينى مكو هم حكام ينحدرون من أسرة ملوك شيراز التي حكمت أنجوجا وعاصرت قرنين من الاستعمار البرتغالي، وقد عاشوا بسلام ووفاق مع العُمانيين والتجار السواحيليين، والمزارعين الذين استقروا في أكبر جزيرة على أرخبيل زنجبار.

لقد أوضح السيد سعيد عند التقائه محمد بن أحمد بن حسن العلوي-الملك الشيرازي لزنجبار أو الموينى مكو-أنه لا ينوي تغيير الوضع القائم في الحكم في زنجبار،



مرفأ ستون تاون إبان مجد تجارة السفن الشراعية كما يبدو من القلعة.

مؤكدا احترامه له، واعترافه باستمرار حكمه وسلطته تجاه رعاياه، وأن له قصره ومحكمته. وعيّن السيد سعيد الموينى مكو "وزيرا لشؤون المخاديمو"، في المقابل اعترف الحاكم المحلي باستحقاق السيد سعيد للسلطة العامة. وبعد وفاة الموينى مكو في عام 1845م، خلفه أخوه الأكبر الذي بنى قصراً كبيراً في دونجا، وهي قرية تبعد 40 كيلومترا عن ستون تاون، باتجاه الداخل من الجزيرة. ومع أنّ الموينى مكو ليس لديه سلطة كبيرة بحجم المستوى الذي يمتلكه السيد سعيد، إلا أن السيد سعيد كسب من خلال اعترافه بالحاكم المحلي دعما مهمّاً من ورثة الملك الشيرازي وخلفاءه. وبذلك نجح السيد سعيد في وضع نمط جديد من القيادة يختلف تماما عن الأسلوب الذي يتّبعه الاستعمار الأوروبي المتعالي في إظهار سلطته. وقد كان هذا الأسلوب المختلف مفتاحا للنجاح وتطوير الوضع الاقتصادي والتجاري للإمبراطوريّة، التي رسمها السيد سعيد في مخيلته ووضعها نصب عينيه.

إن وجود ميناء تجاريّ يعمل بكفاءة ويمكنه استقبال السفن والبواخر الكبيرة كان أمرا لا بد منه في سبيل القيام بنقلة نوعية في الجزيرة وتحويلها مركزا اقتصاديّاً منافسا في مشهد التجارة العالمية، تماما كما يريد لها السلطان أن تكون، إلا أن ستون تاون

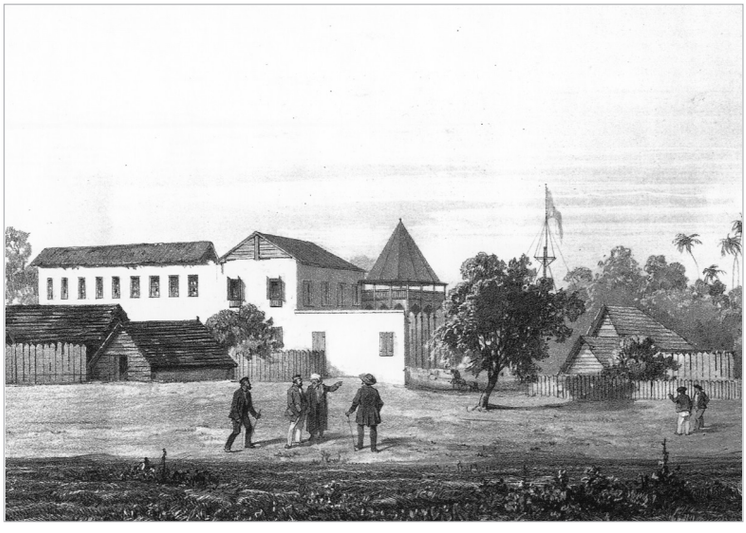


مرفأ الشعب المرجانية العميق الذي لا يزال يؤدي دورا جوهريا في اقتصاد زنجبار حتى يومنا هذا.

آنذاك لم تكن تمتلك حتى أبسط التجهيزات اللازمة للموانئ البحريّة، وذلك لشدة تغير مستوى المياه بسبب ظاهرتي المد والجزر. ولكن ولحسن الحظ توجد شعاب مرجانية عظيمة تكوّنت عبر آلاف السنين على بعد كيلومترين فقط باتجاه البحر في الجهة المقابلة تماماً لستون تاون، وتمتد بمحاذاة الشاطئ ويمكنها أن تؤدي عمل كاسرات الأمواج المعتادة وأرصفة الموانئ. وبوجود مدخلين يمكن من خلالهما دخول وخروج السفن حتى الكبيرة منها، سيوفّر هذا المرفأ المرجاني رسوّاً آمناً ومربطا للسفن. ومن الممكن بعدها التعاقد مع السفن الصغيرة لنقل البضائع إلى ستون تاون.

ولا شك أن السيد سعيد بن سلطان أدرك في وقت مبكر جدا أن ستون تاون قد حباها الله بهذا الميناء الطبيعي الذي سيمكّنه من تحقيق خططه وأهدافه في زنجبار، فقد سبق أن شق حاكم زنجبار الجديد، في أول زيارة له إلى زنجبار، طريقه إلى ستون تاون عبر الممرات المائية الرئيسية واستخدم الرصيف المرجاني، الذي تميزه العوامات المعدنية، مرفأً لسفنه عند وصوله إليها. وقد ثبتت الكرات المعدنيّة بالسلاسل والحجارة، وحملت سارية عُلِّقَ عليها علم السلطان الأحمر.

وبعد اختيار الموقع الأنسب والمثالي للميناء التجاري المستقبلي، قام السيد سعيد بن سلطان بجولة تفقدية في أنحاء الجزيرة للنظر في المحاصيل الزراعية التي يمكن إنتاجها بكميات تجارية وتصديرها على نطاق واسع. كان اقتصاد السكان الأفارقة الأصليون "قائم على القليل من الزراعة والصيد وتصدير بعض المحاصيل التي تحقق لهم عائدا ماديا متواضعا مثل ألياف جوز الهند والنارجيل، والأسماك، والدواجن، والبيض، والفلفل الأسود، والحليب، والماعز، وألياف الكابوك".[3] كما أن العرب الذين اختاروا الاستقرار والإقامة في زنجبار أدخلوا زراعة قصب السكّر، والأرز، والنارجيل، غير أن رؤية السيد سعيد بن سلطان وطموحه لزنجبار وجارتها بمبا المعروفة بالجزيرة الخضراء كان أكبر من ذلك بكثير فقد وجد أن زراعة محصول شجرة القرنفل يتميز بقيمة سوقيّة مرتفعة، ويمكن تصديره على نطاق واسع سيجني من ورائه أرباحا وعوائد كبيرة.



لوحة لقصر بيت المتوني.

عرف هذا البهار النفيس الذي يعود أصله إلى جزر الملوك بأندونيسيا وذاع صيته في أوروبا عن طريق البرتغاليين، وعُرف بشكل أكبر عن طريق الهولنديين الذين احتكروا تجارة القرنفل في القرن الثامن عشر الميلادي حتى وصل بهم الأمر إلى حظر تصدير بذوره وشتلاته خارج أندونيسيا، حتى عام 1770م عندما استطاع الفرنسيون الحصول على بذور القرنفل، وقاموا بزراعتها في جزيرة موريشيوس، ومن هناك نشروا هذا المحصول في المستعمرات الفرنسية على المحيط الهندي.



يسار

أطلال قصر بيت المتوني.

وتعددت الروايات حول قصة وصول أولى شتلات القرنفل إلى زنجبار، وتاريخ وصولها لأول مرة، ويرجح أن التاجر العُماني صالح بن حريمل العبري هو من أحضرها إلى الجزيرة، وهو شخصية بارزة ومعروفة في أوساط مجتمع التجار العُمانيين في شرق إفريقيا. وتذكر التقارير أن العبري صحب ضابطاً فرنسيّاً إلى جزيرة ريونيون التي تقع تحديدا شرق مدغشقر في المحيط الهندي. وحصل العبري على إذن بأخذ عدد بسيط من شتلات القرنفل إلى زنجبار، وهناك زرعها في مكان قرب البحر يسمّى المتوني، يبعد عن ستون تاون حوالي خمسة كيلومترات. وعندما جاء السلطان سعيد أول مرة إلى أنجوجا في عام 1828م وجد مزرعة للقرنفل، وأن هناك من قام سلفا بزراعة هذا المحصول.

وعندما شاهد السلطان سعيد المزرعة، أخذها من صالح بن حريمل العبري، وقرّر بناء أول مسكن له هناك في منطقة المتوني. ولم يكن اختياره لهذه المنطقة مرتبط فقط بالقرب من مكان نمو أولى أشجار القرنفل، بل لأغراض استراتيجية أيضاً، ذلك أن المدخلّين الواقعين بين الرصيف المرجاني ومرفأ ستون تاون -المعروفيّن بالمعبر الإنجليزي والمعبر الفرنسي-يمكن مراقبتهما بسهولة من المتوني.

السيدة سالمة (إميلي رويته)

مذكرات أميرة عربيّة



السيدة سالمة

وبالرغم من أنه لم يتبق من آثار أول قصر سكنه السيد سعيد سوى الأطلال، إلا أننا نمتلك وصفاً دقيقا لغرف القصر ونمط الحياة فيه، ويرجع الفضل في ذلك لمذكّرات ابنته السيّدة سالمة، التي نشرت لأول مرة باسمها الألماني، إميلي رويته في عام 1886م، في برلين باللغة الألمانية، تحت عنوان: "مذكّرات أميرة عربية".

تقول السيّدة سالمة في مذكراتها:

"في بيت المتوني أقدم قصور أبي في جزيرة زنجبار خرجت إلى هذه الدنيا، واكتحلت عيناي بنورها لأول مرة، وفيه عشت أسعد أيام طفولتي وأجملها حتى بلغت السابعة من عمري.

ويبعد هذا القصر قرابة خمسة أميال عن مدينة زنجبار، ويقع في مكان ساحر على شاطئ البحر، ويقوم بناؤه وسط

ساحة واسعة الأرجاء بعيدة الأطراف تنبسط بعدها حدائق غناء تزدهر فيها أجمل الورود رونقاً وأبهاها ألواناً، ثم تحيط بها بساتين كثيفة متشابكة ترتفع فيها سامقة شاهقة أشجار النخيل والمانجو والنارجيل وغيرها من الأشجار الاستوائية الضخمة العود الفارعة الطول.

وقد أخذ هذا القصر اسمه من نهر المتوني، وهو نهر صغير ينبع في مكان غير بعيد عن القصر ثم يجري نحوه ويخترق بساتينه ثم ما يلبث أن يتفرع داخلها إلى جداول صغيرة متعددة تنساب صافية رقراقة إلى مختلف الاتجاهات تحت ظلال الأشجار الكثيفة الشاهقة أو في مروج الحديقة التي طرزتها الورود والأزهار بمختلف الألوان ثم تنتهي مياهه جميعها لتصب في ذلك الخضم الأزرق الهادئ الجميل الذي يفصل زنجبار عن القارة الإفريقية. وكان القصر مكوناً من العديد من الأجنحة والبنايات التي أضيف بعضها إلى البعض الآخر في أزمنة مختلفة متباعدة؛ فجاءت متباينة في التصميم والطراز وطريقة البناء، مما أفقد المنظر العام للقصر جمال المنظر وحســن الاتساق. وكان مما يشد زائر هذا القصر العدد اللامتناهي من المسالك والممرات المتعرّجة المتقاطعة التي لا يسلم من التيه في تعرُّجها وتشابكها إلا من طالت سكناه في القصر أو كثر تردده عليه. وقد استحدثت هذه المسالك لتصل بين أجنحة القصر المتباينة المتباعدة.

وكانت مخيلة الطفولة تصور لي وكأن أجنحة القصر وأقسامه ودهاليزه وممراته من الكثرة والتنوع بحيث لا يحصرها عدد ولا إحصاء. وقد غابت عن ذهني الآن أشكالها ومواقعها إلا واحداً منها ما زلت أذكره بكل وضوح وهو جناح الاستحمام.

ويتكون هذا الجناح من أكثر من اثنتي عشرة غرفة تصطف منفردة متجاورة في طرف بعيد عن ساحة القصر حتى إننا لبعدها كنا نضطر إلى استعمال المظلات إذا ما رغبنا في التنعم بمتعة الاستحمام في الأيام المطيرة. وكان ما كنا نسميه الحمام الفارسي - وهو في الحقيقة حمام تركي - في معزل عن البقية وكان في الواقع هو الحمام الوحيد من نوعه في زنجبار من حيث الهندسة والبنيان.

وكان هذا المستحم مراح القوم ومغداهم لا تنقطع عنه وفود الرائحين والغادين منذ الساعة الرابعة صباحاً حتى منتصف الليل، فيقصده كل فرد من سكان القصر ومنهم من اعتادوا أن يقضوا فيه الساعات الطوال في اللهو والنوم والمرح، فمنه يصرّفون أعمالهم، وفيه يؤدون صلواتهم، ويؤودون ما يترتب عليهم من واجبات الكتابة أو القراءة، ويتناولون في أثناء ذلك ما يتيسر من الشراب والطعام.[4]



تنمو براعم القرنفل على شكل مجموعات زهرية مرتّبة على غصن.

اقتصاد القرنفل

جلب السيد سعيد بن سلطان مزيدا من بذور القرنفل من جزيرة موريشيوس، واهتم بزراعتها بجانب قصره الجديد، بيت المتوني، وعندما تحولت هذه البذور إلى شتلات وأثمرت أنتجت بذوراً أخرى. وقد فرض السيد سعيد على رعاياه العُمانيين والعرب المقيمين في أنجوجا وبيمبا زراعة ثلاث شتلات من القرنفل مقابل كل شجرة من أشجار جوز الهند، وتوعّد المخالفين لهذا القرار بالعقاب. وبهذه الطريقة أجبرهم على الانضمام إلى مشروع زراعة القرنفل، دون أن يعرف أي أحد فيما إذا كانت هذه الطريقة ستفضي إلى نتائج ملموسة ومفيدة على اعتبار أن هذا المحصول جديد ولا يمكن ضمان نجاحه والحصول على عوائد مجزية من وراء زراعته.

وبالفعل فإن المزارعين العرب عملوا بجهد خلال فترة الأربع سنوات الأولى دون تحقيق أي نحاج يذكر، إلا أنه بحلول نهاية السنة الخامسة، تمكّن أخيرا المزارعون الذين غرسوا الشتلات في تربة ملائمة، واعتنوا بها عناية فائقة، من رؤية الأغصان محملة ببراعم ثمرة القرنفل. كما كان على المزارعين الانتظار لسبع سنوات كاملة حتى يستطيعوا كسب ربح مادي مجدٍ من زراعة أشجار القرنفل. ولتحقيق عائد جيد فإن محصول كل شجرة يجب أن يتجاوز وزنه على الأقل ثلاثة كيلوجرامات.

وبعد الالتزام بتوجيهات السيد سعيد، وبمرور السنوات، سرعان ما تنامت أعداد المزارع وازدادت أحجامها في أنجوجا وبيمبا. والمثير للدهشة أنّ هذا التوسّع تم، غالباً، بمشاركة السكّان المحليين، كما يصف ذلك الدكتور عيسى الحاج زِدّي، من جامعة زنجبار الحكوميّة:

"وقد سُمح للقرويين-على سبيل المثال-ممارسة العمل في الزراعة وبناء منازل لهم في الجزيرة. وكان هذا الأمر طبيعيا جداً وممارسا من قبل العرب والشيرازيين والهنود بالقدر نفسه. ولا توجد البتة أسوار من الطابوق ولا أسياج حديدية تحيط بالمزارع، كما يحدث في البلدان الأخرى، إذ يُحرم السكان المحلّيون من الاستفادة من مشاريع التطوير التي تتركز بجوار قراهم. وتظهر الدراسات أن في كينيا، على سبيل المثال، توجد مناطق واسعة جداً مسوّرة بالأسياج المسنّنة التي شيدت لمنع الأفارقة من الدخول إليها، بينما لم تعرف زنجبار، التي تتكون تركيبتها السكانية من السكان الأصليين، والعرب والمسلمين الآخرين، سلوكاً لا إنسانيا كهذا، فالمزارع مفتوحة للفلاحة والعمل والتعاون الذي يخدم مصالح الجميع بلا استثناء.



أُعتمد قديما في قطف براعم القرنفل من الأغصان الصغيرة على الأيدي العاملة من الرجال.

وجرت العادة أن من يقيمون في مزرعة أحدهم، يكون عليهم حراستها وتنظيفها، مقابل أجرة يحصلون عليها، وتكون فائدتهم مضاعفة، حيث يتلقون أجرة لمرتين أو ربما أكثر. ولا يشترط أن تكون هذه الأجرة مالا بل قد تكون بأي شكل من أشكال الانتفاع. فأولا وقبل كل شي، يمكنهم الإقامة والسكن في المزرعة واستخدام مواردها بحريّة، ثم ثانيا، يتلقّون أجرة مقابل خدمات تنظيف المزارع وتشذيب أشجارها، فضلا عن استقطاع جزء من المزرعة تكون حقولا خاصة بهم داخل نطاق تلكم المزارع يغرسون فيها ما يشاؤون من الأشجار باستثناء الأشجار المعمّرة مثل القرنفل والمانجو. وبغض النظر عما إذا كانوا رجالا أم نساء، ودون الالتفات لخلفياتهم أو ألوانهم وأعراقهم، فإنهم يتلقون منافع وأجورا إضافية خلال فترة الحصاد، تتناسب والأعمال التي مارسوها، وكميّات القرنفل التي حصدوها. وبهذه الطريقة تضاعف لديهم شعور الانتماء للقرى والمزارع، وتشاركت المنافع كافة الأطراف من أصحاب المصلحة من الملاّك والقرويين، الذين اعتمدوا على هذه المزارع بشكل أو بآخر "[5].



في الوقت الحالي يعد قطف براعم القرنفل من الأعمال التي تؤديها النساء.



يمين

تجفف براعم االقرنفل تحت أشعة الشمس قبل أن تجمع في الخيش أو الأكياس.



يسار

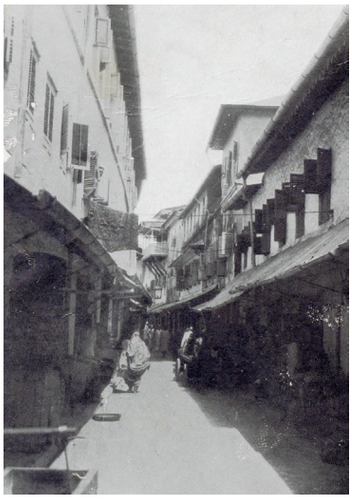
حصاد أغصان براعم القرنفل.

بلغ حجم صادرات القرنفل في عام 1840، 140 طناً، كان يذهب معظمها إلى الهند. وبحلول بداية خمسينات القرن التاسع عشر الميلادي تمكنت زنجبار من السيطرة على سوق القرنفل العالمي. وبعد وفاة السيد سعيد، واصل حكام وسلاطين زنجبار الاهتمام بشجرة القرنفل، وتوسيع نطاق تجارة محصوله بشكل أكبر. وقد ذكر تيلبوري أنه في عام 1940م، بلغ عدد أشجار القرنفل في أنجوجا والجزيرة الخضراء ثلاثة ملايين ونصف شجرة.[6] لقد نقلت هذه الثروة الزراعية والعوائد الناتجة عنها زنجبار من اقتصاد صغير قائم على الكفاف إلى اقتصاد نماء ووفرة وتبادل تجاري، وذاع صيتها وأصبحت قبلة عالمية تستقطب التجّار الذين توافدوا عليها من شتى بقاع الأرض.

وكان من بين المهاجرين إلى زنجبار الذين أصبحت لهم مكانة وأهمية بالغة، التجار الهنود المعروفون بالبانيان. ولم يوجه السيد سعيد بن سلطان دعوة للهنود للاستقرار في زنجبار، ولكنهم أتوا لأن الفرص في الجزيرة كانت واعدة، ولتمكنهم من الإبحار، ذهابا وعودة، بسهولة معتمدين في ذلك على الرياح الموسميّة. ولم يلبث هؤلاء المصرفيّون والتجّار القادمون من الهند طويلا حتى شغلوا أهم الوظائف والمناصب في حكومة زنجبار. وازدادت أهميتهم في كونهم مصدرا لاقتراض الأموال؛ وبذلك أصبح الدور الذي يؤدونه بالغ الأهمية وضروريا عند السيد سعيد وسلاطين زنجبار الذين أتوا من بعده.

وظل السلطان سعيد خلال الفترة الواقعة بين ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر الميلادي متنقلا بين طرفي إمبراطوريته، محاولا تقسيم وقته بين زنجبار ومسقط بالتساوي قدر المستطاع. وفي الحقبة الزمنية نفسها، وتزامنا مع نمو الاقتصاد الزراعي وتوسعه، تطوّرت العاصمة زنجبار من تجمعات بسيطة من البيوت الحجرية إلى مدينة حقيقية. ولأن السلطان سعيد كان قدوة ومثالا يحتذى به، فقد حث الأخرين وشجعهم على بناء البيوت الفخمة بمجرد أن قرر بناء قصر سلطاني فخم.


Zanzibar Landing Place.



مناظر قديمة لميناء زنجبار (فرضاني)، وشوارع مدينة ستون تاون.

وتظهر المدن السواحيلية على طول ساحل شرق إفريقيا الاختلاف الشاسع في الطابع المعماري في البناء الذي يمكن فيه التمييز بوضوح بين المساكن غير الثابتة لأكواخ مسقوفة بالقش، وذات أسلوب بناء متواضع، والبيوت الضخمة الثابتة، المصطفة على طول الواجهة البحرية. وفي الوقت الذي تعكس فيه الأكواخ البسيطة أسلوب وطريقة القارة الإفريقية، فإن امتلاك منزل حجري كان يُنظر إليه أنّه امتياز لا يستطيع الحصول عليه سوى طبقة الأثرياء من تجار البحر. وتزود مواد البناء الأساسية لهذه البيوت عن طريق البحر، وهي الطوب والجير المرجاني، واللذان يمنحان هذه البيوت بريقاً ولمعانا يراه البحارة في عرض البحر من بعيد. وقد اهتم السيد سعيد بدعوة التجار من أنحاء المحيط الهندي، وأوروبا، وأمريكا، للقدوم إلى زنجبار والاستقرار فيها وممارسة التجارة. لذا تعكس البيوت التي بنيت عبر عقود من الزمن تشكيلة كاملة لأساليب البناء والطابع المعماري للخلفيات الثقافية للتجار القادمين من كل مكان. إنّ هذا الثراء المعماري الفريد والمهم بما في ذلك الشرفات الخشبية، والأبواب الخشبية المنقوشة، والنوافذ المشبّكة، والزخرفة الرائعة، وأعمال الجبس، وشرفات أسطح المنازل، يعد ثروة عظيمة للمدينة في الحاضر والمستقبل.



أقرت منظمة اليونيسكو في عام 2000م أن مدينة ستون تاون تمثل تجسيدا حيّا للانصهار والتناغم الثقافي. وقد بررت اليونيسكو إدراجها هذه المدينة ضمن مواقع التراث العالمي، في بيان لها على النحو الآتي:

"تمثل مدينة ستون تاون الواقعة على منحدر بارز من الجانب الغربي لجزيرة أنجوجا على المحيط الهندي، أنموذجا مميّزاً للمدن التجاريّة السواحيليّة. إن هذا النوع من المدن التي شهدت تطورا في ساحل شرق إفريقيا، وزاد نموها بفعل التأثير العربي الهندي الأوروبي، وظلت محافظةً على عناصرها الأصليّة، يشكل امتزاجا حضاريّاً وثقافيّاً مهمّاً لهذه المنطقة.

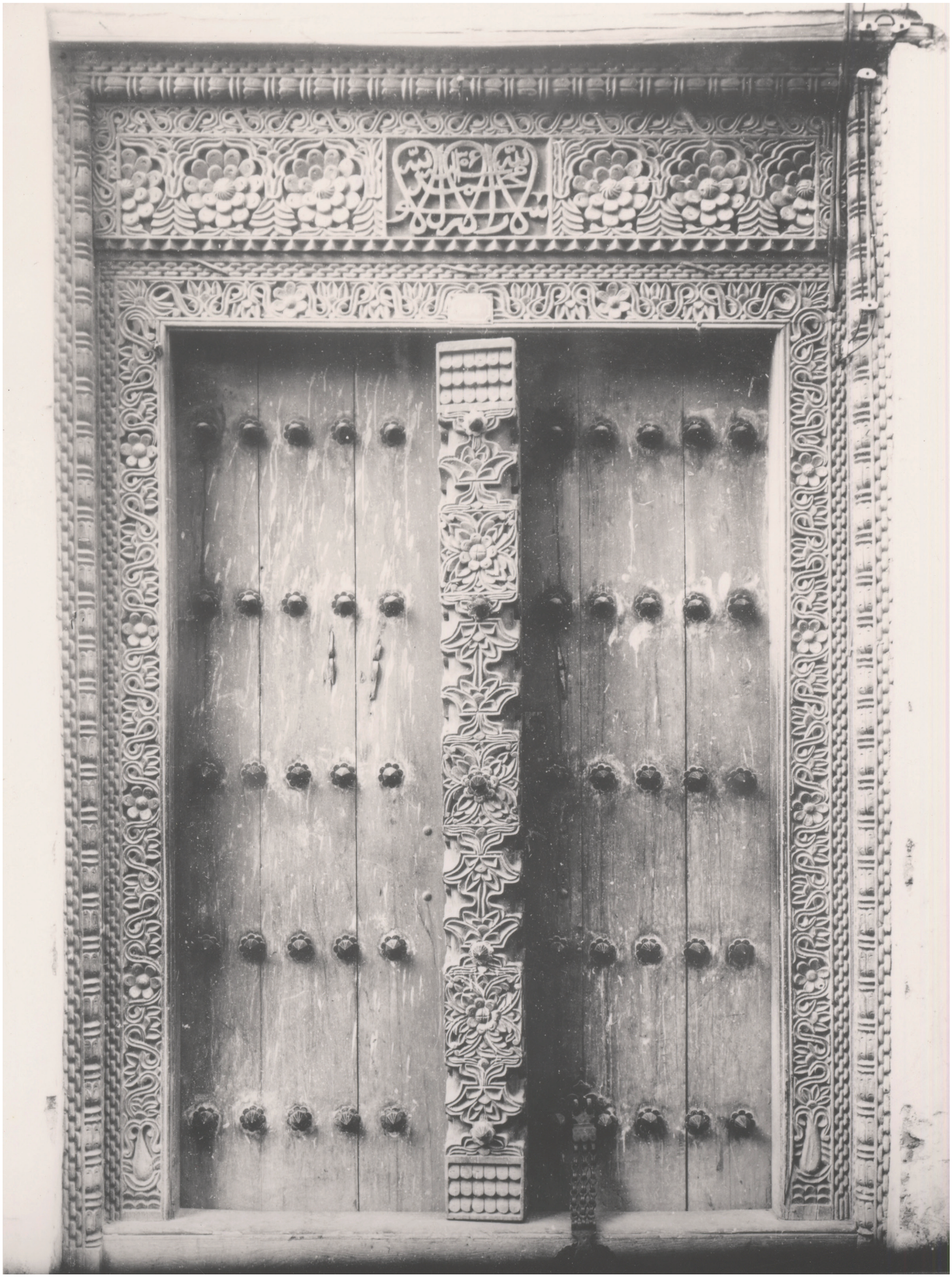
لقد حافظت ستون تاون على نسيجها الحضري ومنظرها العام القديم الذي لم تطله التغييرات، وضمت بين جنباتها مبان جميلة تعكس ثقافتها الخاصّة، التي جمعت عناصر متباينة ومتجانسة من ثقافات القارة الإفريقية، والمنطقة العربية، والهند، وأوروبا عبر أكثر من ألف عام. وشُيّدتْ مباني مدينة ستون تاون، بالحجارة المرجانية، وخشب المانجروف، واعتمدت على خلطة الجير التي يتم لصقها على المباني ثم تطلى بالجير الذي يعمل على تبييضها، عاكسة اندماجاً للتأثيرات السواحيلية، والهندية، والعربية، والأوروبيّة في تقاليد البناء وتخطيط المدن. وتتسم البيوت ذات الطابقين بغرفها الطويلة الضيّقة، المطلّة على فناء مفتوح، يتم الوصول إليها عبر ممرّ ضيّق، وتتميز هذه البيوت من الخارج بأبواب زنجبار المزدوجة والمنحوتة بإتقان، وبعضها مميّز بشرفة واسعة، وبفضاءات داخليّة مليئة بالديكورات (...)"[7].



فوق

الأبواب المزخرفة بعناية في زنجبار أكثر ما يشدّ الانتباه في المعمار الحجري العُماني.

ومن الأسباب المهمة التي جعلت زنجبار القوّة الأبرز في شرق إفريقيا والمحيط الهندي الغربي نسيج الجنسيات والثقافات التي ألفّ منها السيّد سعيد حكومته.



أ.د. ألان فرومهيرز

حكم السيد سعيد بن سلطان

انتشرت في أوساط مجموعة من المؤرخين في العالم فرضية مفادها أن العالم وصل إلى منعطف تاريخي غيّر مجريات الأحداث في تاريخ العالم وأصبح تنامي قوى الدول الأوروبية أمراً حتميّا لا يمكن تفاديه، وارتبطت تلك الفرضية بزعم تفوق نظم الحكم الاستعمارية للدول الأوروبية.

لقد قاسم السيد سعيد التجارة مجموعة من الشركاء في آن واحد ولم يعتمد نظام المركزية في كلّ شيء بحيث لم تجلب جميع البضائع المنتجة إلى مركز الإمبراطورية، بل استفاد الجميع من الاقتصاد المزدهر للإمبراطوريّة، وأخذ كل واحد نصيبه من إيرادات ذلك الاقتصاد. فلم يتبنَ السيد سعيد سياسات أو اتجاهات تجارية بالمعنى الحرفي، بل كان على العكس من ذلك تماما حيث اعتمد أسلوبا مخالفا تماما للأيدولوجية التجارية ونزعتها المادية الصرفة، ذلك لأن السلطان سعيد وفّر بشكل ما بيئة وطريقة عمل سلمية عبر تأطير العلاقات التي تربط الجميع. لقد فرض نوعاً من السلام العام، الذي هو خطوة أولى للنجاح، فلا بد أن يكون هناك سلام عالمي حتى يتمكن مختلف التجار من المتاجرة مع بعضهم البعض.

عُرف السيد سعيد بن سلطان بأنه "حكيم"، بشكل يمكنه من التوفيق بين المتخاصمين، والصُلح بينهم، إلى جانب قدرته القيام بدور القاضي فيحكم بين المتنازعين، وهو أيضا من يجمع الناس على مصلحة عامة، وذلك ما كان عليه حال السيد سعيد بن سلطان وشغله الشاغل منذ قدومه إلى زنجبار.

لم يكن السيد سعيد حاكماً للعرب وحدهم، بل كان يحكم شعوبا من خلفيات دينية وعرقية مختلفة، ممن اجتمعوا وعاشوا معا في مدينة ستون تاون وزنجبار. كان السيد سعيد الحاكم الوحيد الذي كان يعقد لقاءات دورية، تسمّى دوربار، حيث يأتي الناس باختلاف أعراقهم ومستوياتهم الاجتماعية فيطرحون قضاياهم، ويعبرون عما يشغلهم، ويقدمون ولاءهم. اجتمع عند السيد سعيد كثير

من الناس القادمين من أماكن مختلفة كالهند ومناطق مختلفة على المحيط الهندي، بل ومن أماكن بعيدة جداً مثل الولايات المتحدة، فضلا عن الأماكن المحيطة القريبة مثل ساحل شرق إفريقيا، ومن أنحاء زنجبار نفسها. لقد كان السيد سعيد بحق سلطانا عالميا، فقد كان يؤمن بأن تشجيع تكوين بيئة عالمية يعيش فيها أناس متعددة الجنسيات والثقافات، ينعش النمو الاقتصادي، وذلك ما عزز للسلطان موقفه واستحقاقه للحكم، وهو ما اكتسبه عن طريق زيادة شعبيته وقبوله بين الناس وتمكّنه في توفير الرخاء الاقتصادي.

حكم السيد سعيد بمبدأ إمساك العصا من الوسط، فقد وازن بين قوة السلطة وزيادة مصادر الدخل. فعلى سبيل المثال، كانت هناك طبقة من التجار من الهند، يعرفون بالبنيان، الذين كانوا يتركون موطنهم لفترة من الزمان ويعملون في التجارة، وفي الأخير يعودون إلى أوطانهم. وجرت العادة أن السلطان يبيع عقد جمع العشور لأحد التجار البانيان، ويأخذ نسبته من العشور باسم الحكومة، وكان هذا لبّ عمل الحكومة، إلا أنه عهد بهذا العمل إلى أتباعه، الذين ليسوا بالضرورة مسلمين ولا عرباً.



بيت الحكم، يقع بين بيت الساحل والمنارة، واستخدمه السيد سعيد «مكتبا» له ومكاناً لاجتماعاته الرسميّة.

وفي إشارة مهمة إلى انفتاح السيد سعيد على مختلف الأعراق، يروى أن أحد أهم وزراءه كان صابئا مندائياً. ويعد الصابئة كما ذكر في القرآن الكريم من المعاهدين من أهل الكتاب. يدعى هذا الصابئ أحمد بن أمان، وكان أحد وزراء المالية لدى السلطان وأحد أقرب المستشارين إليه. وبالطبع، لم يكن السلطان سعيد يستبعد العرب، وإنما كان يستعين بهم ويشرك معهم في حكومته أناسا تعود أصولهم إلى أماكن مختلفة على المحيط الهندي. وكانت حكومته تضم كذلك موظفين من عرب حضرموت، وأفرادا من عائلة السلطان أيضاً. وقد أثبتت هذه الكفاءات متعددة الجنسيات فعاليتها

في الحفاظ على الإمبراطورية العُمانية رغم الضغوطات التي كانت تفرضها القوى الغربية الكبرى.

ومن المفيد أن نذكر أن العُمانيين شكلوا مجتمعا من التجار المهاجرين الذين أخلصوا في خدمة الإمبراطورية، وهذا الإخلاص تمثّل في العلاقة التكافلية التي عقدوها مع الوطن. إن المجتمع التجاري الذي عمل في جميع أنحاء مناطق المحيط الهندي الساحلية كفل أن تكون المصالح متبادلة بين الجميع. وأدرك السيد سعيد أن التجارة مع مختلف الشعوب هي وحدها ما يسهم بشكل مباشر في تعظيم الفوائد المتدفقة على خزانته.

لقد كان هذا النوع من العمل التجاري والاقتصادي الذي انتهجه السيد سعيد بن سلطان مختلفاً تماما عن نهج البريطانيين، الذين فرضوا أحقيتهم على ثروات الهند، وجعلوها جزرا تابعة لإنجلترا، وجعلوا مصالحهم فوق مصالح أتباعهم. أما السيد سعيد بن سلطان فقد اتبع سياسة الباب المفتوح، إذ احترم حقوق أتباعه، وضمن استقلال تجارة شركائه. وضمن النجاح الاقتصادي بتشجيع التجارة، والعمل المشترك مع شعوب شرق إفريقيا والمناطق الواقعة حول المحيط الهندي.

لم يكن هذا المفهوم جديداً آنذاك، فقد كانت فكرة "الموانئ الحرّة" موجودة سابقاً في تقاليد تجارة المحيط الهندي، فقد عرفت فكرة استقطاب أكبر قدر من الناس بهدف زيادة الدخل منذ آلاف السنين. لكن تكمن أهمية ما فعله السيد سعيد في تأسيس شكل من أشكال التدافع الداخلي في زنجبار لذلك كان ازدهار هذه الجزيرة وانتعاش اقتصادها سببا في ازدياد اهتمام الغربيين بها من الحكام والدول.

حماية الإمبراطورية التجارية

كان هدف السيد سعيد بن سلطان هو بناء إمبراطورية ذات قوة تجارية تربطها علاقات متميزة مع الدول المجاورة للمحيط الهندي، والقوى الغربيّة الناشئة. فقد كان المحيط الهندي إبان تسلم السيد سعيد مقاليد الحكم في عُمان، ممتلئاً بالتجار والقوى البحريّة الأوروبيّة والأمريكيّة، وكانت التوترات التي أطلقت شرارتها الحروب النابليونيّة بين بريطانيا وفرنسا قد امتدت حتى وصلت إلى المحيط الهندي. ومن أجل حماية امبراطوريته، وحراستها من أيّ تهديد يشكل خطرا عليها؛ كان على السيد سعيد الحفاظ على علاقات طيبة مع كافة الأطراف، وإعداد جيش قويّ قادر على صد أي عدوان.

كان جيش السيد سعيد بن سلطان يضم جنسيات متعددة تماما كما كانت إمبراطوريته. ففي زنجبار كان عساكره من المجنّدين من بلوشستان، وكان لديه أيضاً "قوة خاصة غير نظامية" تضم أفرادا من ألبان مصر، والباشي بوزوق من الحجاز، وأفرادا من السيّارة والضابطية من سوريا الحديثة. كما كانت لديه كتيبة من الأفغان والأفارقة المعروفين بالشراسة، وقائدهم موسى مایاسا، وكان يطلق عليهم بـ "رباعة موسى" [8]

ولم تكن قوة عساكر السلطان تكمن في عددهم، بل في المهارات الخاصة التي كانوا يمتلكونها في تعاطيهم مع الأحداث، إلى جانب التفاف الجميع حول السلطان وغياب أسباب التمرد عليه. وعلى كل حال، فإن عدد قوّات السلطان النظامية لم يبلغ سوى بضع مئات فقط من العساكر، كان غالبيتهم وعددهم 250 ينتشرون في ممباسا، بينما يتوزع 80 آخرون في زنجبار. أمّا سلسلة القلاع المنتشرة على طول الساحل الشرقي الإفريقي فكان يحرسها عدد قليل من الجنود لا يتجاوز عددهم أصابع اليد في كل قلعة.





يمين
أطلال القلعة العُمانيّة في كيلوا كيسيواني

أعلى
زخرفة منحوتة على الباب الرئيس لقلعة كيلوا كيسيواني

شهدت القلاع والحصون على ساحل شرق إفريقيا أعمال توسعة وتجديد، وبُنيت أخرى جديدة خلال حقب وفترات زمنية مختلفة. فعلى سبيل المثال، تضم قلعة جريزا العُمانية بكيلوا كيسيواني أسوارا لقلعة أصغر بناها البرتغاليون عام 1505م. وكيلوا كيسيواني وسونجو منارا، هما جزيرتان تجاريتان سواحيليتان متجاورتان، شهدتا ازدهارا كبيرا، واعتمد ازدهارهما على سيطرتهما على تجارة المحيط الهندي مع الجزيرة العربية والهند والصين، خصوصاً في الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين، عبر تبادل ومقايضة الذهب والعاج الذي يجلب من البرّ الإفريقي، بالفضة والعقيق والعطور والخزف الفارسي والخزف الصيني. وكدليل على إزدهار كيلوا كيسواني، سكّت هذه الجزيرة عملتها الخاصة في القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين. إلا أن هذا الانتعاش التجاري لم يستمر فقد بدأت الأوضاع في الجزيرتين بالتدهور في القرن السادس عشر الميلادي، عندما أنشأ البرتغاليون قلعة في كيلوا كيسيواني. ولم تستعد هذه الجزيرة أهميتها التجارية إلا بعد أن بنى العُمانيون مستوطنة جديدة ضمت بيوتاً، ومساجد، ومقابر في القرن التاسع عشر الميلادي في شمال الجزيرة. وقد أدرجت أطلال هذه المباني ضمن قائمة اليونيسكو للتراث العالمي في عام 1981م، إلى جانب آثار تعود إلى فترة ازدهار التجارة في عصور سابقة.



يسار
السور العالي لقلعة ممباسا.

أسفل
منظر لقلعة ممباسا.



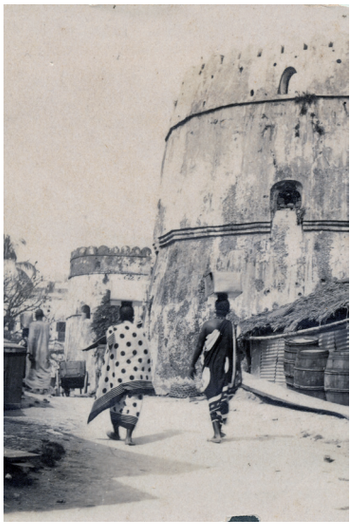
أما في ممباسا، فلم يرتفع سوى سور قلعة يسوع، أحد معاقل البرتغاليين، كما بُنيت قلاع جديدة في كل من شيك شيك بجزيرة بيمبا، وفي لامو، وفي سيو بجزيرة باته، وهي جزء من أرخبيل لامو. وقد تألفت هذه القلاع الثلاث، بالإضافة إلى قلعة جريزا في كلوا، من مخطط أرضي على شكل مربّع، وبرجين عظيمين متقاطعين يأخذان مكانهما في الزوايا لحماية الجهات الأربع للقلعة. وهذا النمط من التخطيط المعماري، يمكن ملاحظته أيضا في أماكن كثيرة في عُمان، كما في حصن الحزم في الرستاق، وحصن جبرين في بُهلا، وبيت النعُمان في بركاء.





أعلى
بيوت محليّة تقليديّة مبنيّة من القشّ والطوب اللبن.

يسار
لاتزال قلعة لامو مركز الحياة الاجتماعيّة في جزيرة لامو.



الأبراج الدائريّة العظيمة للقلعة القديمة في ستون تاون.

بنيت القلعة القديمة في ستون تاون لحماية الميناء، حيث تقع في منطقة أقيمت فيها خلال حكم البرتغاليين مستوطنة للمستعمرين ومقرّاً لآمريّة القديس أوغستين، وهذه القلعة أقيمت أيضاً على أرض مربّعة الشكل، وعليها برج دائري في كلّ زاوية.



السوق التقليدي بجانب سور القلعة القديمة في مدينة ستون تاون.



منظر قلعة سيو والمسجد الواقع في داخل محيطها.

تمتلك قرية سيو تاريخاً متنوعاً، حيث يروى أن بحّارة صينين احتموا بها عندما تحطمت سفينتهم على هذا الساحل، في حملة "زينج هي" الاستكشافية على شرق إفريقيا، في القرن الرابع عشر الميلادي. كما وقعت سيو تحت السيطرة العُمانية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي.



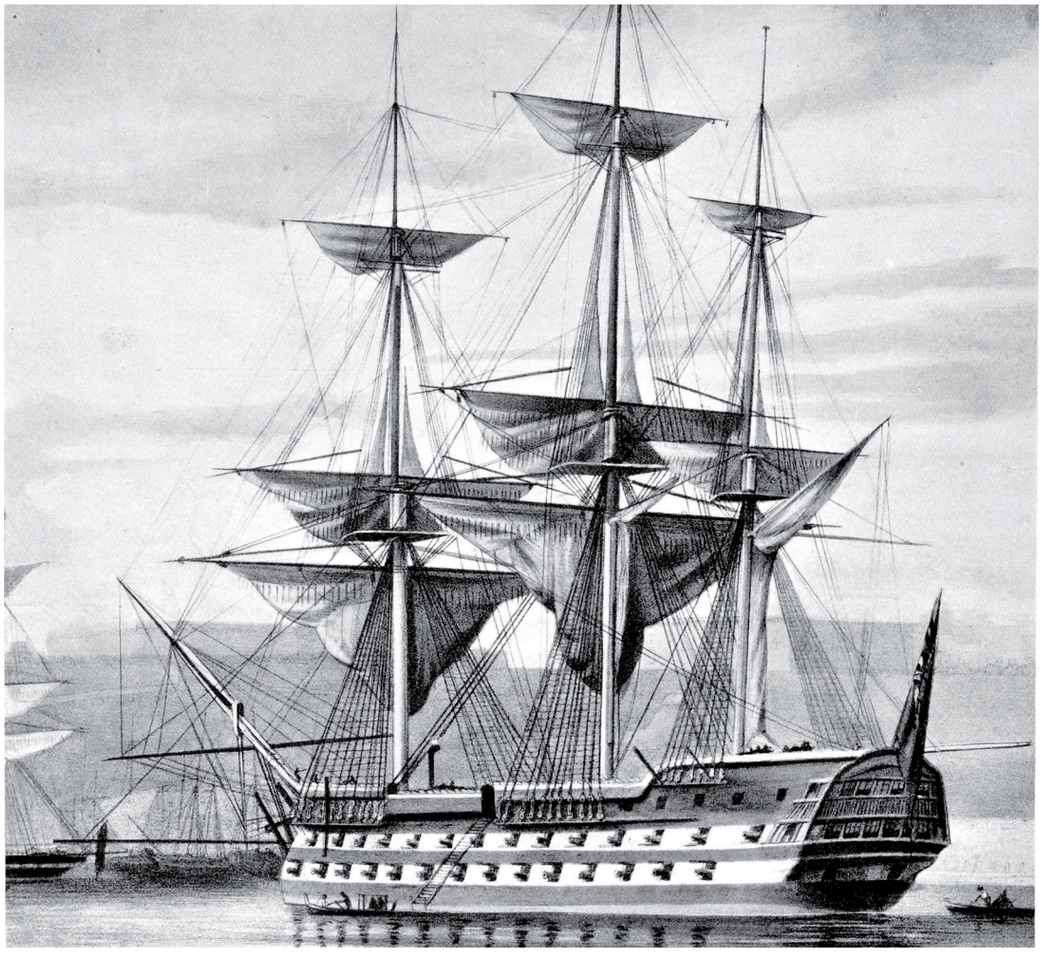
خزف صيني قديم معروض في قلعة سيو.

إنّ مصدر قوة السيد سعيد بن سلطان وسلطته وتفوق جيشه لم تكن بسبب كثرة الجنود والعساكر، ولا ارتفاع أسوار القلاع ومنعتها، وإنما يرجع الفضل لقوة أسطوله البحري. لقد كان ربابنة السفن وطواقم البحارة في هذا الأسطول من جنسيّات مختلفة، وكان أسطوله يضم سفناً متنوعة صنعت في دول مختلفة فبعضها بنيت في زنجبار، وعُمان، وجلبت أخرى من الهند، وبريطانيا، وأمريكا.

ويذكر الرحالة وليستد أن حجم أسطول السيد سعيد بن سلطان في عام 1835م كان يفوق بثلاثة أضعاف حجم أسطول شركة الهند الشرقية البريطانية حيث كان يضم 15 سفينة حرب مصممة على الطريقة الأوروبيّة، وعددا كبيرا من السفن العربية، أمثال البغلة والبتيل. وقد صممت جميع السفن التي كانت تستخدم للتجارة في أوقات السلم بطريقة يمكن فيها استعمالها كسفن حربيّة في أثناء الحرب.[9]

كانت السفن الحربية في الأسطول العُمانيّ عبارة عن سفنٍ شراعيّة خفيفة تحركها ثلاثة أشرعة، وتتألف من طابقين. وكان السلطان سعيد يفضّل سفينة "شاه علم"، وهي أكبر سفنه وكانت مزودة بخمسين مدفعاً. وقد بُنيتْ هذه السفينة، مثل غيرها من سفن السلطان الكثيرة، في أحواض بناء السفن التابعة لشركة الهند الشرقية في بومباي عام 1819م. ومن فرقاطات الأسطول العُماني الحربي سفينة الرحمن، وبها أربعون مدفعاً، وفكتوريا المزودة بأربعين مدفعاً، وكارولينا التي تضم ستة وثلاثين مدفعاً، وبييمونتيه المزودة بستة وثلاثين مدفعاً، والمصطفى وتضم ستة وعشرين مدفعاً. أمّا أضخم هذه السفن الحربية وأكثرها إثارة للإعجاب فهي سفينة ليفربول، وهي سفينة أوروبيّة الشكل، تتألف من ثلاثة طوابق، وتضم أربعة وسبعين مدفعاً. ويرمز امتلاك هذا النوع من السفن، في تلك الفترة التاريخية، إلى التفوق الكبير للأسطول البحري للسيد سعيد بن سلطان. وقد استخدم السيد سعيد قوة أسطول سفنه الفتاكة في مناسبتين، في عاميّ 1828م، و1832م، وذلك لإخماد ثورة المزارع على حكمه في ممباسا.

كانت أعمال البناء وتوفير السفن أكبر ما يكلف ميزانيّة السيد سعيد، ولتقليل المصاريف والحفاظ على أكبر قدر من الاستقلال في هذا القطاع المهم أقام السيد سعيد حوض بناء سفن على الشاطئ في الجانب المقابل تماما لمقر إقامته في المتوني. وحتى اليوم، تُبنى القوارب وتُصلح أعطالها في نفس الموقع. وقد حقق السيد سعيد أكبر قدر من



سفينة جلالة السلطان العتيدة، ذات الـ 74 مدفعاً، وهي سفينة حربيّة أوروبيّة التصميم من الدرجة الثالثة، مشابهة في طريقة البناء مع سفينة ليفربول.

الاستفادة من حوض بناء سفنه المؤقت في المتوني. وذكرت تقارير بعض الزوار أنّ مركباً شراعيّاً يتكون من شراعين ويحمل عشرة مدافع يسمّي نزيري، وطوله ثلاثون متراً، ووزنه ستون طنّاً، بُنيَ هناك تمهيدا لضمه إلى مجموعة سفن الأسطول البحري للسلطان سعيد، ويعد أحد أكبر السفن على الإطلاق التي بنيت في شواطئ أنجوجا. وكان السلطان يصّر على أن تتوفر في كل سفينة جديدة ميزة أساسية تتمثل في قدرتها على تحمّل إطلاق المدافع. وهذا يفسّر لماذا نجد مراكب شراعيّة عربيّة مثل البغلة والبتيل، اللتين كانتا تخاطان وتجمع ألواحهما، وتُثبت هياكلها بالمسامير؛ ذلك أن ارتدادات المدافع الكبيرة قادرة على تحطيم كلّ لوح مخيط.

وعلى الرغم من بعد المسافة التي تفصل بين عُمان وإفريقيا بما يزيد على 2000 ميل، فإن البحريّة العُمانيّة نجحت في تطويق جميع المناطق التي تقع تحت سيطرتها وحمايتها، بما في ذلك عشرات الموانئ في السواحل العربية والإفريقية، والكثير من الجزر الواقعة على الخليج العربي والمحيط الهندي. وبفضل الحماية العُمانية تمكنت مئات السفن التجاريّة من الإبحار بسلام بين الهند وجنوب الجزيرة العربيّة دون أن تعترضها أي مخاطر تذكر.



إدموند روبرتس

تعزيز العلاقات الاقتصاديّة والدبلوماسيّة

بعد انتصاره في ممباسا عام 1837م وجد السيد سعيد أن حكمه لم يعد مهددا، لذا؛ نقل اهتمامه من بناء السفن إلى خلق فرص تجاريّة إضافية، وتوسيع العلاقات الدبلوماسيّة مع القوى الغربيّة.

وقد بدأ جهوده الفعلية لبدء علاقات دبلوماسيّة قويّة مع الولايات المتحدة منذ زيارته الأولى لزنجبار، عندما التقى بالقبطان إدموند روبرتس، وهو تاجر أمريكيّ، قدّم نفسه على أنّه ممثّل لحكومة الولايات المتحدة، فاغتنم السلطان سعيد الفرصة ليقترح على روبرتس مفاوضة الأمريكيين على توقيع معاهدة تجاريّة مع عُمان. وكان السلطان يأمل من مثل هذه الاتفاقيات ألا تكون تجاريّة محضة، بل تتضمن إمكانيّة استقدام معدّات عسكريّة من أمريكا، لتقوية موقفه تجاه القوى الأوروبية الناشئة في المحيط الهندي. فمعاهدة كهذه ستقّلل من اعتماده على حلفائه البريطانيين.

آتت المباحثات التي أجراها روبرتس لتوقيع هذه المعاهدة بعد عودته إلى الولايات المتحدة بثمارها، فقد وافق الرئيس أندرو جاكسون على إرسال بعثة خاصة إلى مسقط، وعُيّن إدموند روبرتس من قبل وزارة الخارجيّة، ممثّلاً خاصّاً، وأعطي الصلاحيات للتفاوض نيابة عن حكومة الولايات المتحدة. وقضت التعليمات أن يحافظ على سريّة مهمته حتى لا يعلم بها الإنجليز والهولنديون والفرنسيون. كما تم إعلامه أن الولايات المتحدة ليست لديها طموحات سياسيّة أو حتى استعمارية لأراضي هذه المنطقة، بخلاف القوى الأوروبيّة الأخرى.

وفي خطاب أرسله وزير خارجيّة الولايات المتحدة إدورد ليفنجستون إلى إدموند روبرتس بتاريخ 27 يناير 1832م، وُصفت السياسة الأمريكية في هذه المنطقة على النحو الآتي:

"... نستطيع عرض (بضائعنا) بكلفة أقل عما تبذله الدول الأخرى، ذلك لأن مبادئنا تمنعنا من أن نبني قلاعا وتحصينات أو نقيم مؤسسات في دول أجنبية، ولأننا لا نستعمر أبداً، ولا نطلب من أي دولة أن تمكّننا من غرس جذور لنا في أراضيها، كما فعل الإنجليز، والفرنسيون، والهولنديون في شرق الأنديز. كل ما نطلبه هو حريّة الحركة لغرض البيع والشراء، ملتزمين بقوانين الدول التي نحل بها؛ وكما أننا لا نطلب تمييزاً فإننا في الوقت نفسه لن نتاجر حيث نعامل بشكل أقل عن الأمم الأخرى"[10].

وأسفرت مفاوضات روبرتس عن توقيعه مع السيد سعيد لأول معاهدة تبرم على الإطلاق بين الولايات المتحدة ودولة عربيّة في 21 سبتمبر 1833م. وصدّق الكونجرس الأمريكي على هذه المعاهدة في يونيو 1834م، وتبادل الطرفان المعاهدتين المصدقتين بشكل رسمي في 30 سبتمبر 1835م، وكانت معاهدة عام 1833م مع الولايات المتحدة بمثابة قاعدة رئيسة للمعاهدات التجاريّة التي وقعتها عُمان لاحقا مع كل من بريطانيا وفرنسا، ونتج عنها تأسيس قنصليات في زنجبار مثل القنصلية التي أسستها الحكومة الأمريكية في عام (1837م)، والقنصلية البريطانية في عام (1841م)، والقنصلية الفرنسية عام (1844م).

وازدهرت، عقب توقيع هذه المعاهدة، العلاقات الدبلوماسيّة والحركة التجارية بين الولايات المتحدة وعُمان بشكل كبير جداً، فقد رست في عام 1834م في ميناء زنجبار ثلاثون سفينة أمريكية. وبانتعاش الاقتصاد في أوروبا وأمريكا بفضل الثورة الصناعية، تزايد الطلب على الاستيراد، وبزيادة الإنتاج زادت كذلك الحاجة لأسواق للتصدير إليها. ومع اتحاد اقتصادات دول المحيط الأطلسي والمحيط الهندي، تعاظم اندماج الإمبراطوريّة العُمانية في شرق إفريقيا وتعاملها مع شبكة التجارة في المحيط الأطلسي.

وجلب التجار الأمريكيون سلع المستلزمات المنزلية، مثل الأواني الفخارية والمرايا والأواني الزجاجيّة، والأثاث، وبعض السلع والمواد الغذائيّة مثل السكّر والدقيق والصابون والبنادق والبارود. أمّا السلعة الأغلى فقد كانت القطن الأمريكي للملابس ويطلق عليه "المريكاني"، الذي كانت خامته توصف بأنها أفضل بكثير مما تصنع منه الملابس البريطانية والهندية. وتاجر به العُمانيون على طول الساحل السواحيلي، وفي داخل البرّ الإفريقي، ومعه سلع أمريكية أخرى، مثل الخرز، والقلائد النحاسيّة، ومختلف أنواع الأجهزة وأدواتها.

أما المنتوجات العُمانية التي كانت تحظى باهتمام وطلب من الأمريكيين فكانت زيت النخيل، وجلود الحيوانات، والصمغ، والعاج، والتمر، والتوابل كالقرنفل والزنجبيل. فقد كان زيت النخيل يستخدم لصناعة الصابون، ومشحّماً للمكينات الصناعيّة. كما كانت هناك حاجة للجلود بسبب التطور الذي كان يشهده قطاع صناعة الأحذية، في حين كان مستخلص الصمغ يستخدم أساسا لطلاء الأثاث وتلميعه.



القنصليتان البريطانيّة والأمريكيّة في واجهة مرفأ ستون تاون.

ومع تنامي التجارة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وإنتعاشها، بدأت الدول في البحث عن وسائل جديدة لحماية مصالحها، وتطبيق سياسات الاحتكار، أو أن تحظى على الأقل بصفة "الدولة الأكثر رعاية". لقد قادت الاتفاقيّات والمعاهدات التجاريّة إلى تأسيس القنصليّات، ودفعت ممثلي الحكومات إلى الاعتناء بالمصالح التجاريّة لدولها، كما أصبح التجار يسعون جاهدين للحصول على حقوق الاحتكار. ومن منظور يومنا هذا، فقد اعتنى التجار بـ "سلسلة التوريدات"، والحصول على "حصة في السوق". وهذا أمر كان يدركه تماما السيد سعيد، الذي رغب في تعظيم فوائده من المتاجرة مع الولايات المتحدة، وذلك بإرسال سفنه الخاصة، وأن يكون ممثّلاً بدبلوماسييه الخاصين.

في عام 1840م، وبعد سبع سنوات من توقيع المعاهدة، وثق سلطان عُمان العلاقات الرسميّة مع الولايات المتحدة، مرسلاً مبعوثه إلى مدينة نيويورك، وهي أول وفادة عربيّة إلى الولايات المتحدة.

ودارت بعض الشكوك وراء الخطوة التي أقدم عليها السيد سعيد، حيث أرجعها البعض إلى أهداف وخطط سعت فيها عُمان إلى السيطرة على تجارة موزمبيق مع الصين، وما يتطلبه ذلك من شراء للأسلحة، وهي تجارة كانت محظورة من قبل البريطانيين والفرنسيين. ولذلك فإنّ السلطان وجد أنّه عبر إقامة علاقات مباشرة مع الولايات المتحدة، المُصدّر الأبرز للسلاح في ذلك الوقت، فإنه يستطيع الالتفاف على حظر السلاح المفروض في المنطقة. وفسرت هذه الخطوة كذلك برغبة السيد سعيد في الحصول على عائدات أكبر من استثماراته، وبالتالي تأمين قدرته المالية لتمويل مشترياته من السلاح.

PART VI

MISCELLANEOUS

No. 1

TREATY OF AMITY AND COMMERCE BETWEEN THE UNITED STATES OF AMERICA AND THE SULTAN OF MUSCAT, DATED SEPTEMBER 21, 1833

ARTICLE 1.

There shall be a perpetual peace between the United States of America and His Majesty Syud Sueed Bin Sultan, of Maskat, and his Dependencies.

ARTICLE 2.

The citizens of the United States shall have free liberty to enter all the ports of His Majesty Syud Sueed Bin Sultan, with their cargoes, of whatever kind the said cargoes may consist, and they shall have liberty to sell the same to any of the subjects of the Sultan, or others who may wish to purchase the same or to barter the same for any produce or manufactures of the kingdom or other articles that may be found there. No price shall be fixed by the Sultan or his officers on the articles to be sold by the merchants of the United States, or the merchandize they may wish to buy; but the trade shall be free on both sides to sell or buy, or exchange, on the terms and for the prices the owners may think fit; and whenever the said citizens of the United States may think fit to depart, they shall be at liberty to do so; and if any officer of the Sultan shall contravene this Article he shall be severely punished. It is understood and agreed, however, that the articles of the muskets, powder and ball can only be sold to the Government in the Island of Zanzibar, but in all other ports of the Sultan the said munitions of war may be freely sold without any restriction whatever to the highest bidder.

ARTICLE 3.

Vessels of the United States entering any port within the Sultan's dominions shall pay no more than five per cent. duties on the cargo landed, and this shall be in full consideration of all import and export duties, tonnage, license to trade, pilotage, anchorage, or any other charge whatever. Nor shall any charge be paid on that part of the cargo which shall remain on board unsold and re-exported. Nor shall any charge whatever be paid on any vessel of the United States which may enter any of the ports of His Majesty for the purpose of refitting, or for refreshments, or to inquire the state of the market.

ARTICLE 4.

That American citizens shall pay no other duties on export or import tonnage, license to trade, or other charge whatsoever, than the nation the most favoured shall pay.

ARTICLE 5.

If any vessel of the United States shall suffer shipwreck on any part of the Sultan's dominions, the persons escaping from the wreck shall be taken care of and hospitably entertained at the expense of the Sultan, until they shall find an opportunity to be returned to their country, for the Sultan can never receive any remuneration whatever for rendering succour to the distressed, and the property saved from such wreck shall be carefully preserved and delivered to the owner, or the Consul of the United States, or to any authorised agent.

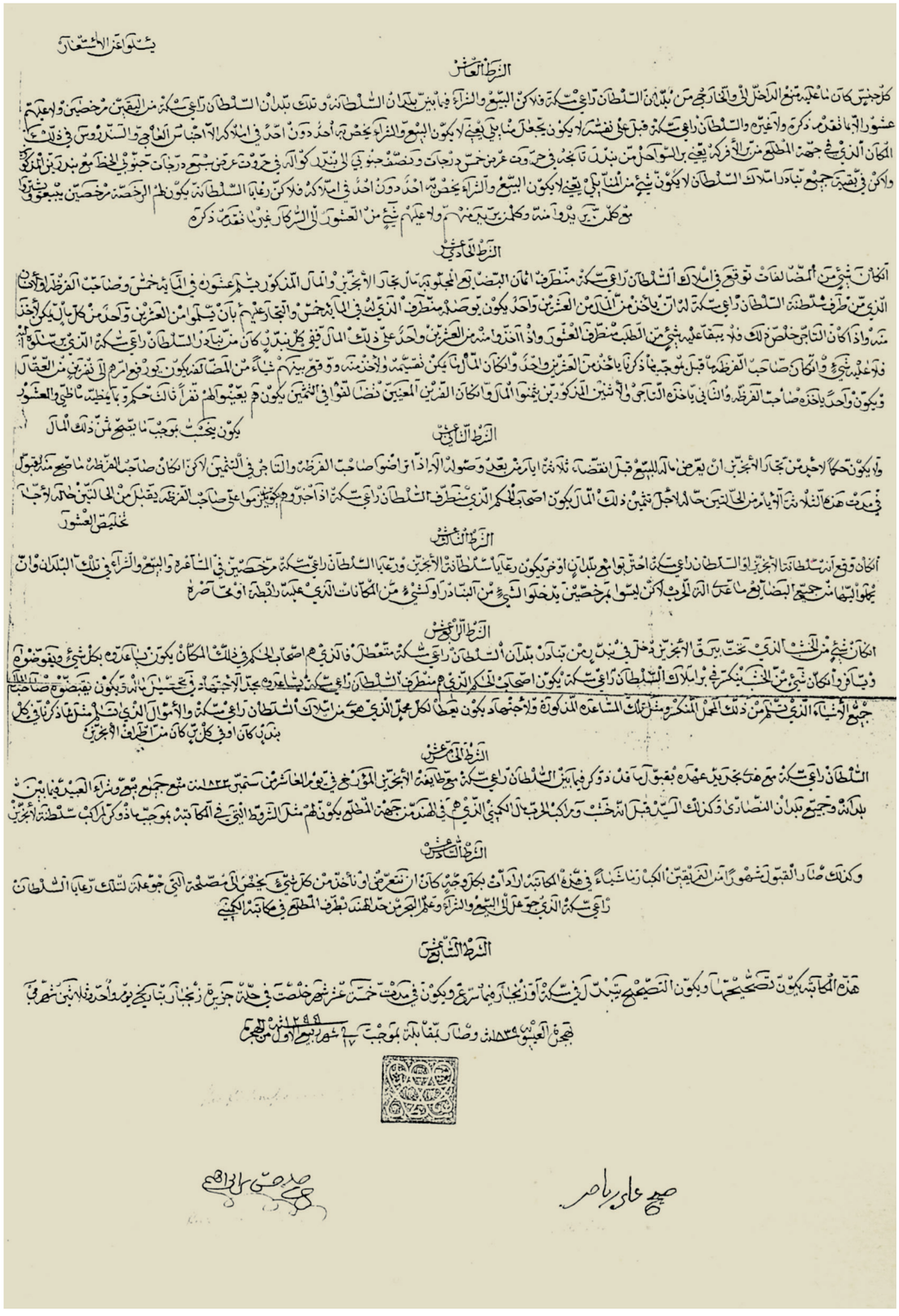
ARTICLE 6.

The citizens of the United States resorting to the ports of the Sultan for the purpose of trade shall have leave to land and reside in the said ports without paying any tax on importation whatever for such liberty other than the general duties on imports which the most favoured nation shall pay.

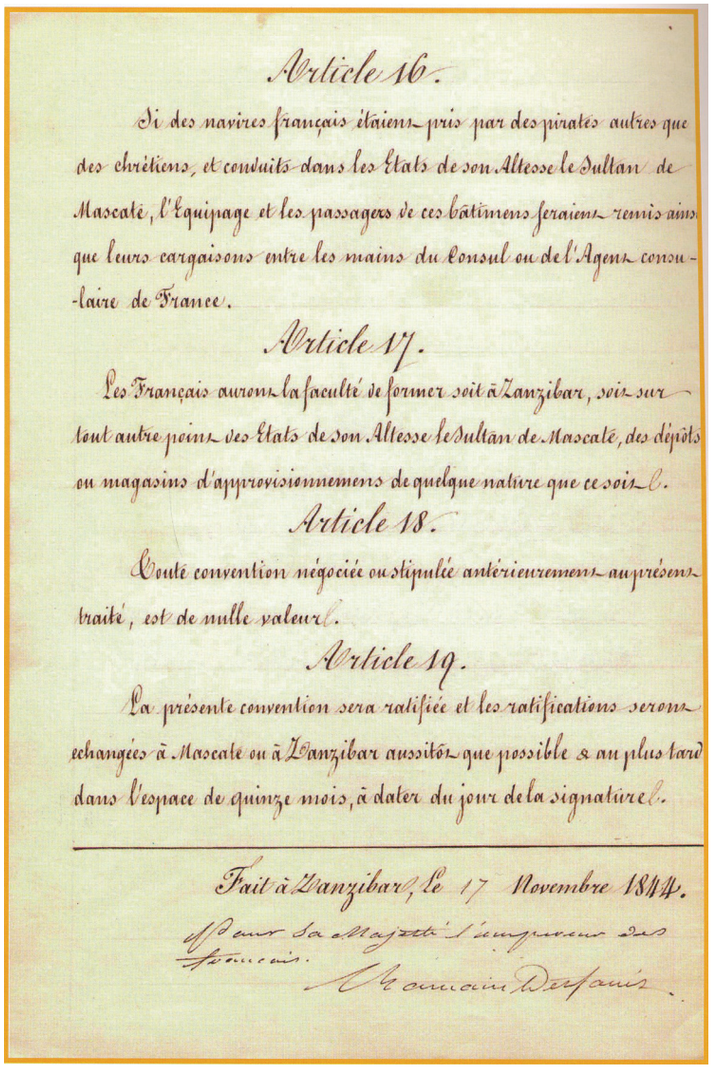
ARTICLE 7.

If any citizens of the United States, or their vessels or other property, shall be taken by pirates, and brought within the dominions of the Sultan, the persons shall be set at liberty and the property restored to the owner, if he be present, or to the American Consul, or to any authorised agent.

مقتطفات من المعاهدة المبرمة بين سلطان مسقط والولايات المتحدة الأمريكيّة عام 1833م.



مقتطفات من المعاهدة المبرمة بين سلطان مسقط وبريطانيا العظمى عام 1839م.



Article 16.

Si des navires français étaient pris par des pirates autres que des chrétiens, et conduits dans les Etats de son Altesse le Sultan de Mascaté, l'Equipage et les passagers de ces bâtimens seraient remis ainsi que leurs cargaisons entre les mains du Consul ou de l'Agent consulaire de France.

Article 17.

Les Français auront la faculté de former soit à Zanzibar, soit sur tout autre point des Etats de son Altesse le Sultan de Mascaté, des dépôts ou magasins d'approvisionnemens de quelque nature que ce soit.

Article 18.

Toute convention négociée ou stipulée antérieurement au présent traité, est de nulle valeur.

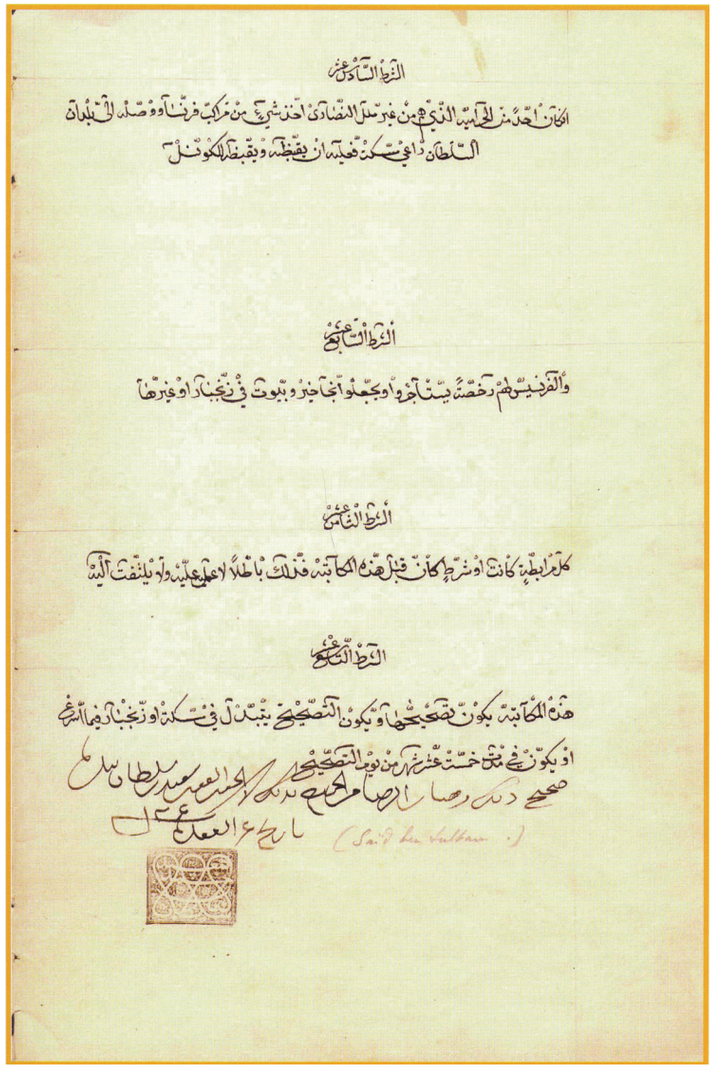
Article 19.

La présente convention sera ratifiée et les ratifications seront echangées à Mascate ou à Zanzibar aussitôt que possible & au plus tard dans l'espace de quinze mois, à dater du jour de la signature.

Fait à Zanzibar, le 17 Novembre 1844.

Pour sa Majesté l'empereur des Français.

Romain Desfossés.



الشرط السادس عشر

الشرط السابع عشر

الشرط الثامن عشر

الشرط التاسع عشر

مقتطفات من المعاهدة المبرمة
بين سلطان مسقط وفرنسا عام
1844م.

رحلة السفينة سلطانة

أبحرت السفينة سلطانة، وهي سفينة إبحار خشبية لها ثلاث سواري، ويصل ارتفاعها 80 قدماً، وتحمل على متنها طاقما مكونا من 52 بحّاراً، في رحلتها التي صنعت من أجلها متوجهة إلى مدينة نيويورك في أواخر عام 1839م، بعد إكتمال بنائها في بومباي، حيث شحنت السفينة حمولتها الأولى من مسقط، وانطلقت في نهاية ديسمبر إلى زنجبار، وهناك شُحنت بحمولة إضافية. وأبحرت مع الرياح الشمالية الشرقية، في فبراير 1840م، محمّلة بأثمن بضائع بلدان المحيط الهندي، بما في ذلك تمر عُمان، وسجاد بلاد فارس، وقرنفل زنجبار، وقهوة اليمن، وعاج وصمغ، وجلود شرق إفريقيا. ونجحت السفينة سلطانة في المرور حول رأس الرجاء الصالح، ولم تتوقف سوى في ميناء سانت هيلينا للتزود بالمؤن التي نفذت خلال الرحلة الطويلة لتواصل رحلتها حتى وصلت إلى مدينة نيويورك.

وقد اختار السيد سعيد أحد رجاله المخلصين والذي مضى على خدمته عنده زمن طويل ليكون ممثّلاً له ومبعوثه إلى الولايات المتحدة وهو أحمد بن النعُمان الكعبي. وكان ابن النعُمان رجلا عربيا، قصير القامة، ممتلئ العود، وعليه لحية، وتعكس جميع هذه الأوصاف مستوى المهابة والإحترام الذي تميزت به شخصية ابن النعُمان الكعبي. كما كان أسمر البشرة، وعيناه سوداوان لهما نظرة ثاقبة. وقد وصفه بعضهم بالمخيف، ورأى آخرون بأنها أوصاف رجل وسيم".[11]

وفي أواخر شهر إبريل من عام 1840م، وبعد مضي 87 يوماً من الإبحار، وصلت سفينة غريبة وغير مألوفة إلى مدينة نيويورك، تحمل علماً أحمر، ما كانت عين قد وقعت على مثلها من قبل، على الشواطئ الأمريكية. وكانت تحت قيادة مبعوث عربي، وقبطان



صورة شخصيّة لأحمد بن النعُمان الكعبي، لإدورد موني (1813-1887)
متحف بيبودي إيسكس، مدينة سالم ماساتشوسيتس.

إنجليزي، ومعاونين أفارقة وفُرس. فكان أعضاء الطاقم الذين ينحدرون من أصول جنوب آسيوية وشرق إفريقية عند الشعب الأمريكي نماذج مثيرة لشعوب لم يعرف عنها سوى القليل في الجزيرة العربيّة وإفريقيا. كما أن ما كان سائداً ومعتاداً في المحيط الهندي وهو الاختلاط الكبير لجنسيات وعرقيّات متنوعة، يشابه نوعا ما خليط النيويوركيين متعددي الأصول، لكنّها في الوقت نفسه صادمة لضيّقي الأفق والمتزمتين منهم.

وسريعاً ما أحدثت السفينة ضجّة، لاسيما عندما خطا أحمد بن النعُمان الكعبي، مبعوث السلطان، أولى خطواته على رصيف ميناء نيويورك، بعمامته ذات الألوان الزاهية، وشاله الكشميريّ، وعباءته السوداء المطرّزة بالخيوط الذهبية، رافعاً راية السلطان القرمزية فوق ساريّة سلطانة، وأعلن بهدوء، وباللغة الإنجليزيّة، أنه -وليس القبطان الإنجليزي- قائد السفينة، وأن هذه بعثة دبلوماسيّة من سلطان عُمان إلى الولايات المتحدة.

وبعد انتشار خبر وصولها في الصحافة وما تحمله من حمولة مثيرة من البشر والحيوان والبضائع الثمينة جدا التي لم يُر مثلها، نشأت جلبة ولغط في الميناء، حيث تجمهر النيويوركيون لمشاهدة السفينة واستكشافها ورؤية الطاقم والبضاعة غير المألوفة.



لوحة انطباعية لشارع البرودواي في نيويورك 1840م، للفنان هيبوليت سيبرون.

قدمت الصحافة الأمريكية صورة مقربة وواضحة المعالم عن زيارة السفينة سلطانة إلى نيويورك، ومما قدمته هذه الصحافة، مقال نشرته صحيفة نيويورك هيرالد الصباحيّة، بتاريخ 5 مايو، 1840م:

وصول سفينة عربيّة-التجارة بين الولايات المتحدة ومسقط

"... وصلت إلينا يوم الخميس الفائت، إحدى العجائب التي سلبت عقول الشعب الأمريكي، فبدت منذ الوهلة الأولى أنها سفينة عربية. استقرّت أسفل شارع ريكتر، في الجهة الشمالية من النهر، وكانت ممتلئة بالحمولة، في وقت كان فيها الرصيف البحري مليئاً بالناس المندهشين الذين يتدافعون لإلقاء نظرة على البحّارة العرب والخيول العربيّة التي كانت على متن السفينة. وكان الجمع عظيما، تطلب فيه الأمر حضور أفراد الشرطة للحفاظ على النظام .... وكان اسم السفينة "سلطانة.

مُلئت "السفينة سلطانة" بالقهوة المخاوية، والتمور، والجلود، والعاج، والأعشاب الطبيّة، وهي بضاعة السلطان، والتي تقدر قيمتها 20000 دولار. وعلى ظهر السفينة أيضا حصانان عربيان جميلان، أحضرا ليقدما هدية من جلالة السلطان إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكيّة.

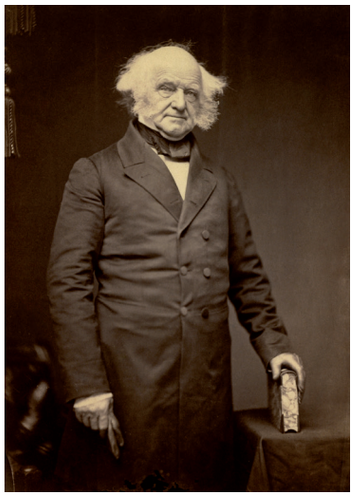
وعندما يسير أي من العرب على الطريق فإنّ عدداً كبيراً من الناس يتبعونهم، وهم يصرخون: "الله! الله"،في المقابل ينظر العرب حولهم، ويفتلون شواربهم، ثم ينظر بعضهم إلى بعض، متسائلين حول هذه التصرفات لهؤلاء القوم من سكان المدينة"[12].



أعلى
مرفأ نيويورك عام 1840.

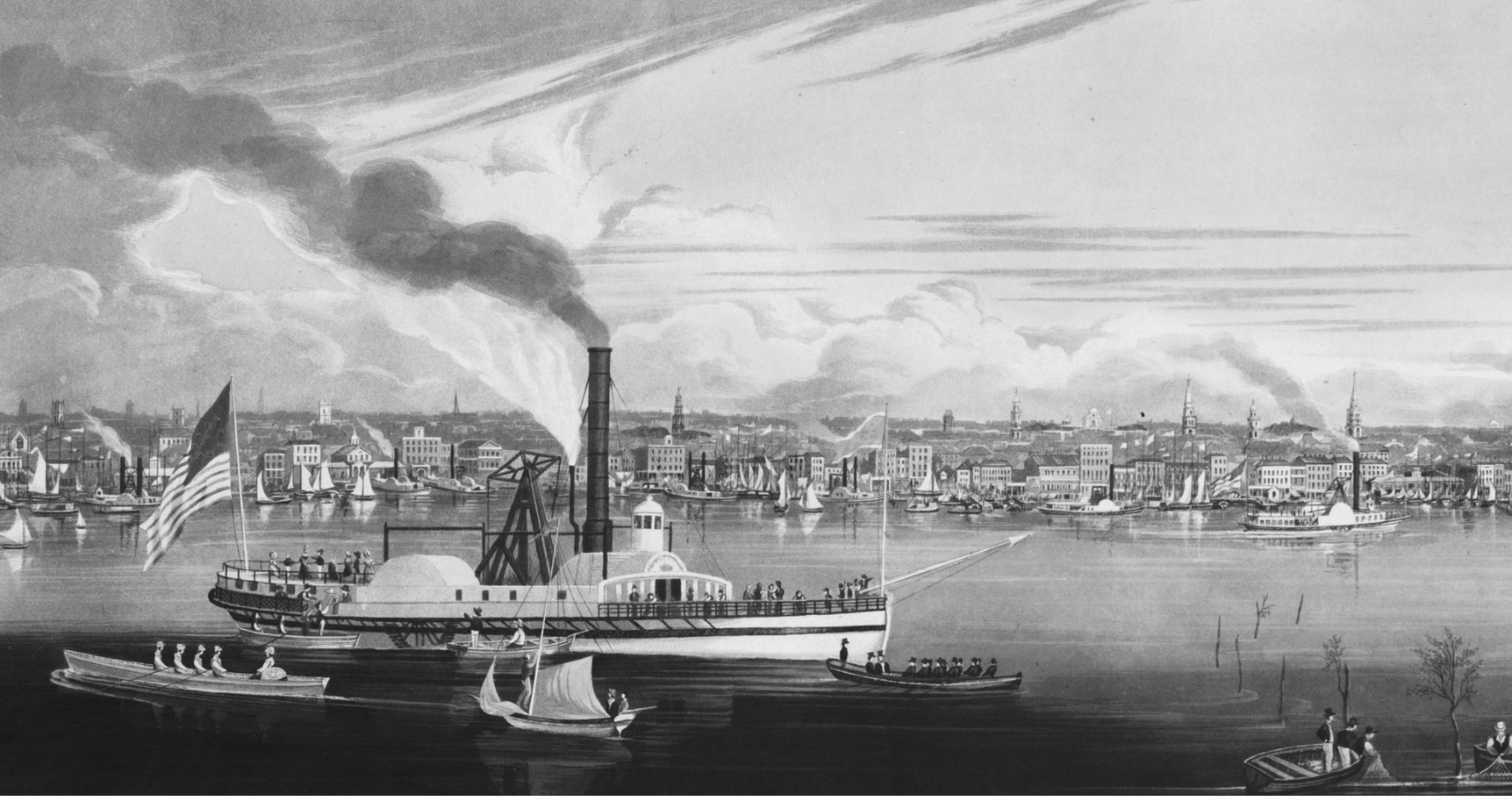
لم يحضر أحمد بن النعُمان معه تفويضاً رسميّاً على أنه سفير، ولم يطلب اجتماعاً مع الرئيس. واقتصرت مهمته الدبلوماسيّة فقط في توصيل رسالة إلى الرئيس من السلطان سعيد بن سلطان يعرب فيها عن نواياه الطيبة، مقدّما هدايا وكذلك بضائع للبيع والمقايضة.

امتلك السلطان أسطولاً ضخما من السفن، وكانت رهن إشارته سفن أخرى يمكنها أن تمخر عباب المحيط الأطلسي، ولكن وقع الاختيار على سلطانة لتقوم بهذه المهمة لعدة اعتبارات وأسباب، ذلك لأنها كانت السفينة الرئيسة للسلطان، وفخر الأسطول العُماني، وهي مسلّحة وقادرة أيضا على تحمل حمولات كبيرة. كما أنها كذلك تذكير باللقاء الأول الذي التقت فيه السفينة سلطانة العُمانية بالسفينة الأمريكيّة التجاريّة التي تدعى "بيكوك" أي الطاؤوس، التي كادت أن تغرق وجنحت على شاطئ جزيرة مصيرة في عام 1835م.



الرئيس فان بيورين.

وكان على متن الطاؤوس إدموند روبرتس الذي جاء لغرض تبادل المعاهدات المصادق عليها والمبرمة مع السيد سعيد. وبالتالي فإن سلطانة التي ترسو في نيويورك تذكر بالعون الذي قدمه السلطان، لنصرة وإنقاذ الطاؤوس وطاقمها، وحمولتها من الأسلحة والبنادق



التي كانت على وشك أن ترمى في البحر. فقد جرت العادة في ذلك الزمان والمكان أن تترك السفينة وطاقمها تحت رحمة الظروف الجوية والقراصنة، لكن احترام معاهدة 1833م للصداقة بين البلدين دفعت السلطان إلى إنقاذ السفينة وطاقمها وتوفير الحماية اللازمة لهم. وكتبت صحيفة إيفننج بوست Evening Post عن السلطان: "لا يوجد ملك في العالم المسيحي لن تعظم شخصيته في عيون العالم بعد فعل نبيل كهذا". [13]

وقد دفع حال السفينة سلطانة وهيكلها المزري، عند وصولها بعد رحلتها الطويلة، الأمريكيين إلى اقتراح أن تحظى بترميم وإصلاح على نفقة حكومة الولايات المتحدة، تقديرا لنصرتها السابقة لسفينة الطاؤوس.

واعتُمِدَ المقترح وجُدِّدتْ السفينة في الحال، وبلغت قيمة الإصلاحات 5000 دولار تقريباً. كما اعتبر تاريخ مغادرة السفينة حدثا مهما يتوجب أن ينشر في الصحافة الأمريكية، كما يظهر في المقال المنشور في صحيفة نيويورك هيرالد الصباحيّة، New York Morning Herald بتاريخ 3 أغسطس من عام 1840م:

ضيوفنا العرب

"يغادرننا اليوم الريس أحمد بن النعمان، وضباطه وطاقمه عائدين إلى موطنهم، محملين بالهدايا لسلطان مسقط، على ظهر السفينة "سلطانة". يحفظهم الله. ... ومنذ وصول هؤلاء العرب إلى هذه البلاد فقد قوبلوا بكل الاهتمام واللطف. لقد شاهدوا كلّ شيء، وتجولوا في كلّ مكان، وأمطرت عليهم الهدايا، وحصلت سفينتهم على إصلاح شامل، وسُمح لهم أن يولوا وجوههم شطر المشرق، وأن يصلّوا ثلاث مرات في اليوم. ويبدو أن ما شاهدوه لم يثر دهشتهم. فلا يبدو أنه من طبيعتهم الاستغراب تجاه أي شيء.

كانوا فقط سعيدين بالاهتمام الذي وجدوه، وهذا كلّ شيء. كانوا يتكلمون ويبتسمون، وتظهر أسنانهم البيضاء، ويحركون مآقي عيونهم الجميلة. إنّ الأمر الذي يثير استغراب الأمريكيين، أنّ العرب لا يدهشهم شيء. ونظن لو أن انفجارا قذفهم للسماء، ثم نزلوا سالمين إلى القاعدة فإنّهم فقط سيمسحون لحاهم، رافعين أنظارهم إلى السماء، شاكرين الله، بكل هدوء وسمت. فلن يثير الانفجار استغرابهم- بل سيعدّونه جزءا من الاستعراض".

حُمِّلت سلطانة في مسقط بـ 1300 جراب من التمر، و21 حزمة من سجّاد الحرير الفارسي، و100 رزمة من القهوة المخاوية. كما حُمل عليها في زنجبار بما يقارب 108 من أجود قرون العاج، و81 كيساً من الصمغ الممضوغ، وكميّات كبيرة من القرنفل يصل عددها 135 كيساً، و1000 قطعة من الجلد المملح المجفّف. وقد بيعت الشحنة فور وصولها في ظرف ثلاثة أيام فقط، مما يؤكد على الطلب على هذه البضائع في الولايات المتحدة. وقد تزايد هذا الطلب بشكل كبير عقب الاهتمام الذي حظيت به السفينة

سلطانة وطاقمها في أخبار وتقارير الصفحات الأولى في الصحافة في كل أنحاء الولايات المتحدة، خلال فترة بقائها في نيويورك. وشاهد أحمد بن النعُمان أبرز معالم المدينة، ودفع مجلس مدينة نيويورك مبلغا قدره 500 دولار لرسم لوحة شخصية له - وهو مبلغ كبير جدا في تلك الأيام. وعلى الرغم من أن سلطانة لم تزر مدينة واشنطن العاصمة، إلا أن نائب الرئيس الأمريكي آنذاك، ريتشارد مينتور جونسون جاء إلى نيويورك وزار السفينة بنفسه.



لوحة انطباعيّة لوصول الوفد العُماني إلى نيويورك، رسمها إي هاربر جونسون.

مايكل ديكنسون

سلطانة والطاؤوس

لم تحظَ السفينة سلطانة وطاقمها باستقبال جيّد فحسب، بل احتفت بهم الصحافة والنيويوركيون المحليّون، وعومل ابن النعُمان ومعاونوه معاملة كبار الشخصيات، فقد دُعوا لموائد العشاء، والحفلات الساهرة، وزاروا مؤسسات عديدة، وأُخذوا إلى رحلات، وبشكل عام فقد نعموا بمعاملة من فُرش لهم البساط الأحمر. غذّى هذا الاهتمام، جزئياً، شخصياتهم المميّزة، ومظهرهم المثير نوعاً ما، وسلوكهم الساحر، والمتواضع. إضافة إلى ذلك، فقد كان للقاء الأول بينهم والسفينة الأمريكية التجارية الطاؤوس، التي جنحت إلى الشاطئ، وانقطعت بطاقمها السبل على ساحل جزيرة مصيرة، على ساحل عُمان، في 1835م دور مهم في هذا الترحيب. «وكبادرة حسن نيّة تجاه مساعدتهم المقدّمة للسفينة الأمريكية الطاؤوس»، شدّد القائد ستريبلنج في رسالته إلى سكرتير البحريّة في باولدنج في مايو 1840م، أنّ السفينة سلطانة يجب أن يتم إصلاحها على نفقة الحكومة الأمريكية.

وردت القصة كاملة في تقرير صحيفة ألكسندريا الأمريكية، في 9 مايو 1840م، على النحو الآتي:

ربما لم يكن هناك مثيل للضيافة الوطنيّة السريعة وغير المحدودة أكبر مما أظهره السلطان لإحدى سفننا، وقت التصديق على هذه المعاهدة. فبينما كانت السفينة الأمريكيّة الطاؤوس في رحلتها لتوقيع المعاهدة بين الطرفين، في شهر سبتمبر 1835م، أثناء رحلتها البحريّة إلى مسقط، انحرفت ليلا بسبب شعاب مرجانية، على ساحل شبة الجزيرة العربيّة، وعلى بعد حوالي ميل واحد فقط من الساحل، ومع انخفاض الموج والمد البحري علقت وانحنت على أحد جوانبها، بحيث لم يكن من الممكن حمل المدافع واستخدامها. وأصبح وضعها بذلك حرجا للغاية، واستبسلت زوارقها في صد السفن الشراعية العربية، التي ما لبثت أن أدركتها. وبعد أربع وعشرين ساعة من المحاولات الفاشلة لإخراج السفينة، عزم الكابتن كيندي، كمحاولة أخيرة، أن يرسل ضابطاً بأحد قوارب السفينة إلى مسقط على الخليج

الفارسي، ليوصل المعاهدة، ويطلب المساعدة إن أمكنه ذلك. لقد قرر هؤلاء البحارة المجازفة بالذهاب في رحلة بحرية محفوفة بالمخاطر، لخمس أيام كاملة، وعددهم ثمانية رجال، بقيادة تايلور، وهو قبطان هذا القارب، وروبرتس مبعوث الولايات المتحدة الذي فاوض على توقيع المعاهدة. ولم يوفر طاقم القارب الصغير أي جهد في سبيل النجاة من العرب، الذين تتبعوهم، وكافحوا للحفاظ على القارب من الغرق جراء الظروف الجوية التي كانت تعصف به. وقد جعل ذلك كله مهمة ابحار القارب والحفاظ على تقدمه أمرا بالغ الصعوبة، ولكنه نجح رغم ذلك في الوصول سالماً إلى مسقط.

وقد ظهرت لهم في أحد المرات فجأة سفينة شراعيّة كبيرة تحمل على متنها حوالي ثلاثين عربيّاً تتفوق عليهم في العدة والعتاد، إلا أنهم كانوا متأهبين في حال تعرضوا لهجومها ببنادقهم الصغيرة المحشوّة والمستعدة لإطلاق النار، حينها أراد الضابط أن يختبر بأس رجاله فقال لهم: «أيها الرجال، إن جاءنا أولئك القادمون نحونا فماذا سنفعل؟»، فجاءه الرد «سنذهب إلى مسقط على متنها بعد أن نستحوذ عليها، يا سيدي». لقد كانوا بحق الرجال الأنسب لهذه المهمة الصعبة.

بوصولهم إلى مسقط قوبلوا، بأفضل ضيافة، إلى درجة أن السلطان الذي كان خارجا في زيارة رسمية إلى رجل انجليزي من الضباط العسكريين أجّل زيارته عندما سمع بوصولهم حتى يراهم ويقابلهم بنفسه، وأصبحت أولوياته الآن أن يسعى لبذل قصارى جهده في مساعدة سفينة حلفائه الأمريكيين التي تحطمت على أحد السواحل التابعة لأراضيه. ووضع السلطان مباشرة السفينة سلطانة ومجموعة كاملة من المعاونين والرجال بقيادة السيّد تايلور للانطلاق لمساعدة سفينة الطاؤوس الأمريكية، وعرض استخدام أيّ سفينة في أسطوله البحري -في حالة لم يمكن إنقاذ الطاؤوس-لإعادة الطاقم والرجال إلى الولايات المتحدة، أو لإتمام مسارهم، إن رأى الكابتن كيندي ذلك. وأرسل والي صور -وهي مدينة تبعد ثمانية عشر ميلاً أو تسعة عشر ميلا عن مسقط إلى الموقع الذي جنحت فيه سفينة الطاؤوس-الذي كان حينها في مسقط، وقضت التعليمات والأوامر أن يرسل لكل سفينة تحمل العلم العربي أن تساعد الطاؤوس، كما أرسل أحد مشايخ البدو بجماله عبر الصحراء رسالة السلطان إلى شيخ القبيلة في المنطقة التي تسكن الساحل الذي انحرفت فيه سفينة الطاؤوس، أنّه وجميع أفراد قبيلته يتحملون المسؤوليّة كاملة تجاه أي إصابة تلحق الطاؤوس أو أحد أفراد طاقمها.

توقفت السفينة سلطانة في البحر بمحاذاة الطاؤوس، التي كانت قد أمضت في الشعب المرجانية ستا وخمسين ساعة، ولم تتمكن من الطفو إلا بعد أن فقدت العديد من مراسيها وتخلصت من اثني عشر مدفعا من مدافعها. وبعد وصولها مسقط، قوبلت السفينة وطاقمها بالحفاوة والكرم الذي نادراً ما يُوجد في البلدان المسيحيّة، وبعد ذلك واصلت سفينة الطاؤوس طريقها إلى بومباي لإعادة تجديدها وشراء البضائع من شركة الهند الشرقية، بمدفعية بديلة عن المدافع التي ألقت بها في الشعب المرجانية. وبعد مكوثها في بومباي لمدة شهر، وعند شروعها بالإبحار، شوهدت سفينة تدخل المرفأ وكانت حاملة العلم العربي. واتضح أنها السفينة سلطانة، حاملة المدافع التي قُذفت في البحر، حيث أمر السلطان أن تنتشل وتحمل، وأرسل سفينته لتلحق بالطاؤوس وتعيدها لها، من على بعد ألف ميل من المكان الذي فقدت فيه تلك المدافع.

ولم يتقاضى السلطان أي تعويض نظير كل هذه الجهود والمصاريف التي تكبدها، والتي نعتقد أيضا أنها لم تقابل بمثلها ولم تُشكر من هذه الحكومة حتى يومنا هذا.

إن تصرف كهذا يبرّر لنا وصف ضابطنا، الذي عايش الموقف، للسلطان عندما قال بأنه رجل نبيل بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى. لقد قدّم السلطان مثالاً يستحق أن يحتذى به من قبل القوى الأخرى التي تدّعي أن حضارتها أعظم من حضارة أبناء إسماعيل(العرب). وبعد كل ما جرى، فإنّ المأمول بذل كل الإمكانيات من حكومتنا لأول مشروع تجاري للسلطان في العالم الجديد، وتحية هذا السلطان ومعاونيه بكرم يوازي ولو بدرجة أقل عن الكرم العربي الذي قُدم لرجالنا.»

يسار
حوض سفن البحرية في بروكلين. لوحة ضوئية لـ أ. وينجارنتر في 1850م تقريباً.

وبعد تحديد ومعرفة التكلفة التقديرية لإصلاح السفينة سلطانة وصيانتها، وافقت الجهات المختصة عليها في نهاية المطاف، وأُخذت سلطانة إلى ساحة بحرية بروكلين للتصليح، وأصبح الضباط ضيوفاً على القائد رينشو، الذي وفر مكان إقامة للبحارة على ظهر سفينة أخرى في حوض السفن.

أُصلحت السفينة كاملة، حيث أُعيد تركيب ألواحها، وطلاؤها، وزودت بأشرعة جديدة، ونظرا لتعرضها لضربة برق في رحلتها إلى نيويورك، زُوِّدت بسارية جديدة، كما تم استبدال المرحاض وجميع القوارب الإضافية التابعة للسفينة. وبذلك أصبحت قادرة ومستعدة للإبحار إلى الديار بكل فخر وإخبار السلطان أن أفعاله الحميدة قدّرت وجميله تمت مقابلته.





تفاصيل أحد الشالات الكشميرية التي أحضرها أحمد بن النعُمان الكعبي هدية إلى الرئيس فان بيورين.



سلطانة وسيمثسونيان

تأسست مؤسسة سيمثسونيان بدعم من جيمس سميثسون، وهو عالم بريطاني ترك بلده وهاجر إلى الولايات المتحدة ليؤسس في واشنطن مؤسسة تدعى مؤسسة سيمثسونيان، تعنى بترسيخ المعرفة ونشرها. وبعد ست سنوات من وفاة سميثسون في عام 1829م، أعلن الرئيس أندرو جاكسون نقل تبعية إدارة المؤسسة إلى الكونجرس، وتأكيد وصايته عليها. وفي أول يوليو، 1836م قبل الكونجرس نقل التبعية والوصاية على هذه المؤسسة، وفي سبتمبر 1838م وصلت 100,000 قطعة ذهبية تمثل إرث مؤسسة سميثسونيان إلى دار صكّ العملة في فيلاديلفيا، وجعلت تحت أمانة خيريّة. وقدرت قيمة هذه القطع الذهبية بأكثر من 500,000 دولار.

ومنذ إنشائها قبل 170 سنة، أصبحت مؤسسة سيمثسونيان أكبر مجمع للمتاحف، والمؤسسات التربويّة، والبحثيّة في العالم حيث تضم 19 متحفاً، وحديقة وطنيّة، و9 مراكز بحثيّة، وأكثر من 137 مليون من المقتنيات الثمينة. وما لا يعرفه الكثيرون أن الحاجة إلى حفظ الهدايا التي أحضرها أحمد من النعُمان الكعبي كانت من أسباب التفكير في تأسيس المتحف الوطني في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث كان من المألوف في ذلك الزمان أن يمنح الملوك والنبلاء هدايا لعلية القوم وكبار المسؤولين في الدولة للتودد لاسيما عند طلب تأييد، أو تمييز في المعاملة. ولم يكن لسلطان عُمان وزنجبار أن يبعث بوفده في مهمة دبلوماسيّة دون أن يرسل معهم هدايا قيّمة لرأس الدولة. وعليه فقد أحضر أحمد بن النعُمان جملة من الهدايا الجميلة للرئيس فان بيورين، منها حصانان عربيّان، وسلسة من اللؤلؤ، ولؤلؤتان كبيرتان منفصلتان على شكل ثمرة الكمثرى، و120 قطعة ذهبيّة لامعة (تزن 18.25 قيراطاً)، وسجادة حرير فارسيّة، وخلاصة ماء الورد، وستة شالات كشميرية، وسيف جميل مطليّ بالذهب.

إلا أنّ دستور الولايات المتحدة يقضي في "بند ألقاب النبلاء"، المعروف أيضا بقانون المكافآت، أنّه "لا يجوز لشخص يرأس مؤسسة أو مصلحة أو أمانة، أن يقبل، من غير موافقة الكونجرس، أيّ هديّة أو مكافأة، أو مكتباً، أو لقباً، من أيّ نوع كان، من ملك أو أمير أو دولة أجنبيّة". وقد شرح البيت الأبيض لابن النعُمان أن الرئيس كموظف عام، لا يمكنه بصفته الشخصية قبول الهدايا والهبات. ورد ابن النعُمان عليهم أنّه لا يستطيع بأي حال من الأحوال إعادة هدايا السلطان إلى زنجبار.

ونشبت بفعل هذا المأزق معركة دستورية حيث اجتمع المشرعون والمختصون في القانون لمناقشة مصير هذه المجموعة القيّمة من الهدايا التي لا تقدر بثمن. واستغل معارضو الرئيس هذه الفرصة لتوجيه النقد اللاذع إلى الرئيس في السنة التي أقيمت فيها الانتخابات، مدّعين أن قبوله لهدايا السلطان ما هو إلا تسلّط وخرق صريح للقانون. في حين سعى آخرون إلى تقديم مشروع قانون يخوّل الرئيس قبول الهدايا، وهي محاولة عارضها الرئيس السابق جون كوينزي آدامز، الذي قاد، حينها، هجوماً مضاداً لإلغاء مشروع القانون.





شالات كشميريّة وسجادات
أحضرها أحمد بن النعُمان الكعبي
أضيفت إلى مقتنيات مؤسسة
سميثسونيان تحت العناية الفائقة.

وأشارت الأخبار وقتها إلى أن هناك هدايا أخرى كان يراد تقديمها إلى الرئيس، مثل زوج من النمور من أمير المغرب، إلا أنها احتجزت في شحنة طنجة. إنّ ورطة قبول أو رفض رموز تقديرية أو مواد ذات قيمة عالية، بشكل شخصي أو باسم الشعب الأمريكي أبرز الحاجة إلى قانون يمنع الموظفين الفيدراليين للولايات المتحدة من قبول الهدايا، بغرض حمايتهم من "المؤثرات الأجنبية المفسدة"، ولتقنين قبول الهدايا خوفا من حدوث أيّ مخالفة. وكانت هناك، أيضاً، حاجة لوضع بعض الإجراءات التي تنظم حفظ الهدايا التي يقرّر قبولها باسم الشعب الأمريكي. ونتج عن ذلك قيود قانونية تطبّق على السلطة التنفيذيّة.

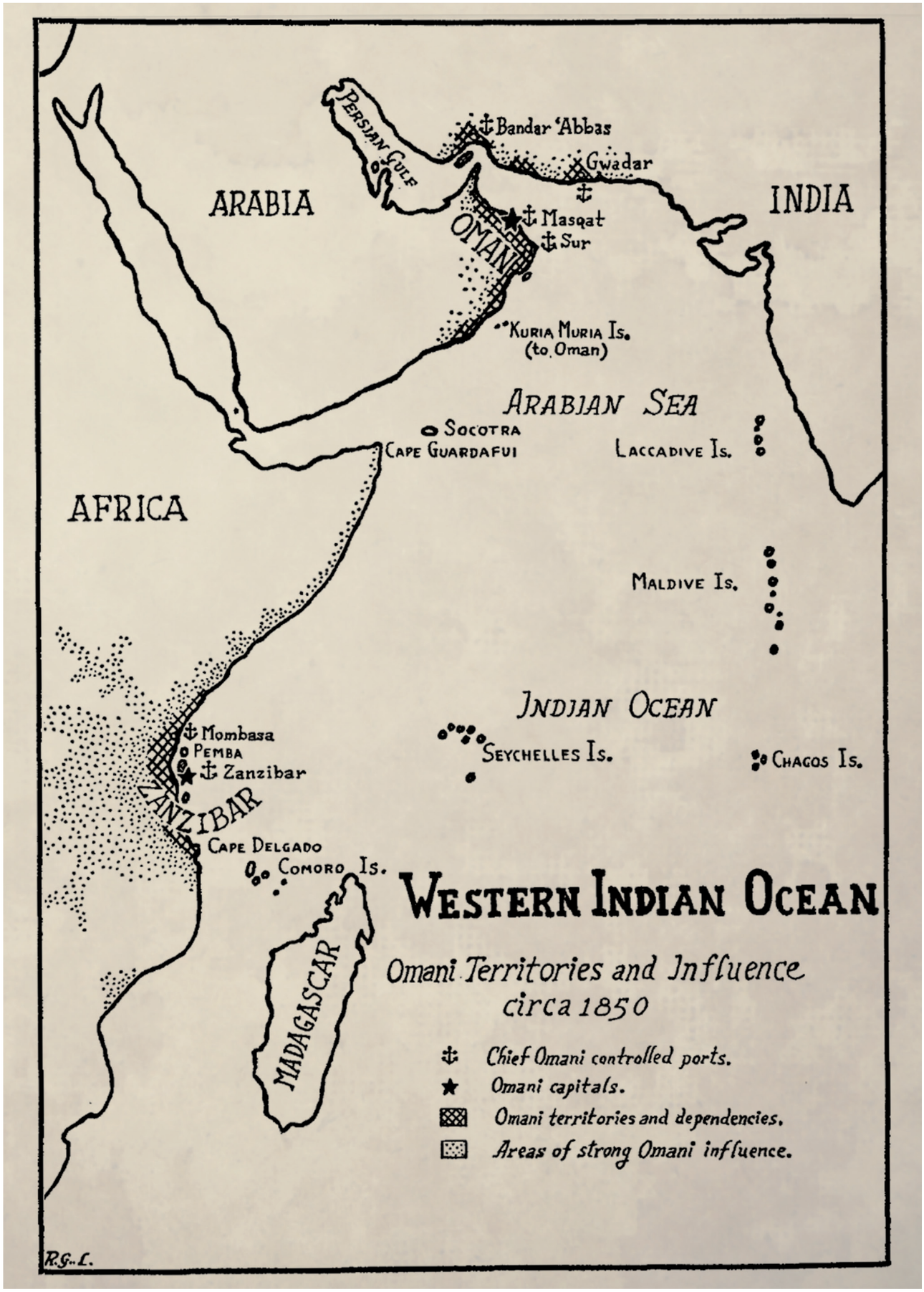
وبعد سبع سنوات من الجدل السياسي والنقاشات الحادة، وتحديدا في 10 أغسطس 1846م، تمخضت المحادثات عن صدور قانون من الكونجرس ينظّم إطار عمل مؤسسة سيمثسونيان، الذي أقرّه الرئيس جيمس بولك. وقد تضمن القانون أن الرئيس وبشكل مؤقت سيقبل الهدايا باسم الشعب الأمريكي، وأن الهدايا التي لا يمكن إيداعها أو الاحتفاظ بها بسهولة، فيجب بيعها وتحويل عائداتها إلى خزينة الدولة.



تفاصيل لإحدى السجادات الحريريّة التي أحضرها أحمد بن النعُمان هديّة إلى الرئيس فان بيورين.

وضعت معظم هدايا السيد سعيد للرئيس فان بيورين، في بداية الأمر، في معرض المعهد الوطني التابع لمكتب براءات الاختراع، في حين بيع الحصانان في المزاد العلني بمدينة نيويورك بسعر 993.28 دولاراً. وفي تاريخ 20 ديسمبر 1842م، تمكن لص من الوصول إلى غرفة الخزانة بمعرض المعهد الوطني وسرق ضمن مسروقات آخرى، عقد اللؤلؤ واللؤلؤتين الكبيرتين. وقد استرجعت اللآلئ، إلا أنه بعد تكرار حدوث السرقات، تمت حيازة هذه اللآلئ مع أغراض ثمينة أخرى، ووضعت في صندوق حديدي واحتفظ بها في الخزينة العامة للولايات المتحدة. ثم استقر المقام بجميع الهدايا وسُلّمت أخيرا لمؤسسة سميثسونيان التي أنشئت في ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادي.

ويحتفظ المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي إلى يومنا هذا، في قسم علم الإنسان، بسجادة صوفية وسجادة حريرية، ومعهما ثلاثة شالات كشميرية. ويرجح أن أحد الأحجار الكريمة موجود الآن في صولجان سيمثسونيان المعلّق على لوحة جدارية في غرفة الاستقبال بقلعة سميثسونيان. في حين لا يعرف بالتحديد مكان وجود السيف المطلي بالذهب.


PERSIAN GULF
Bandar 'Abbas
Gwadar
ARABIA
INDIA
OMAN
Masqat
Sur
Kuria Muria Is.
(to Oman)
ARABIAN SEA
Socotra
Cape Guardafui
Laccadive Is.
AFRICA
Maldive Is.
INDIAN OCEAN
Mombasa
Pemba
Zanzibar
Seychelles Is.
Chagos Is.
ZANZIBAR
Cape Delgado
Comoro Is.
MADAGASCAR
WESTERN INDIAN OCEAN
Omani Territories and Influence
circa 1850
Chief Omani controlled ports.
Omani capitals.
Omani territories and dependencies.
Areas of strong Omani influence.
R.G.L.

تعزيز العلاقات التجارية

كان السيد سعيد يدرك تماما حقيقة أن مصدر قوة عُمان وثراءها يكمن في كونها إمبراطوريّة تجاريّة، لذلك قضى حياته مسانداً جميع الجوانب التي تتعلق بالتجارة كضمان الاستقرار والأمان والوصول إلى الثروات الطبيعيّة، وتشجيع الزراعة والتصنيع، ودعم العمال، وتأمين وسائل النقل وتطوير أنظمة التحميل والتسليم، والتوسع في فتح أسواق واستقدام منتجات جديدة، وإعاقة المنافسين.

خريطة للجانب الغربي من المحيط الهندي توضح حدود ومناطق نفوذ الإمبراطورية العُمانية، في حوالي عام 1850م.

لم تصبح زنجبار مركزا لتجارة المحيط الهندي، بفضل موقعها الجغرافي وطقسها فحسب، بل يرجع الفضل بشكل كبير إلى حكّامها وتجّارها العُمانيين، الذين حولوها إلى مدينة بمنظور عالمي، وصنعوا شبكة من الأعمال التجارية. لقد كانت هذه الجزيرة وقادتها متعددو الثقافات ويحملون رؤية عالميّة متطوّرة، فشكلوا علاقة متكافئة بين المكان والسكّان.

د. بيرجت ميرشن

التبادل المعرفي العُماني السواحيلي

لم ينظر حكام عُمان في القرن التاسع عشر الميلادي إلى الثقافة السواحيلية نظرة دونيّة، بل حظيت تلك الثقافة باهتمامهم وتقديرهم، ووجدوا أنها ثقافة تستحق التوثيق من جانب، ونقل نقل معرفتها إلى العُمانيين من جانب أخر. وخير مثال على ذلك هو كتاب"السرّ العليّ في خوّاص النبات السواحيليّ" الذي يتناول الأعشاب الطبيّة السواحيليّة، لمؤلفه ناصر بن أبي نبهان الخروصي. ففي عام 1832م لحق هذا العالم الموسوعيّ العُماني بالسيد سعيد بن سلطان ليكون مستشاره الشخصي، وقاضيه، ومفتيه.

ويقال إن السلطان كان يصحبه معه أينما حل وارتحل برا أو بحرا. ويبدو أنّ تنوّع النباتات السواحيليّة قد ترك تأثيراً عظيماً عليه، فقد تعامل معها باستقصاء واهتمام من منظور علم الأدوية العرقي.

وصنّف هذا العالم توثيقا موسعاً في مجلد ضخم من 320 صفحة مخطوطة، موجّهة للقراء العُمانيين العرب الذين لا يحسنون اللغة السواحيليّة. ويمكننا أن نعدّ الشيخ أبي نبهان رائد علم الأدوية العرقي، وعلم النبات العرقي.

بدأ ناصر بن أبي نبهان كتابه بمقدمة من عشرين صفحة، وهي قائمة مصطلحات ثلاثية اللغة مكتوبة باللغة العربيّة واللهجة العُمانية واللغة السواحيلية. وقد صُنفت الصفحات الـ 300 المتبقية لهذا العمل على 29 باباً حول الأعشاب الطبيّة الإفريقيّة، ويتناول كل فصل تحت هذه الأبواب نباتاً معيّناً. وبيّن المؤلف في كل فصل من الفصول مجالات الاستخدام والوصفات المكوّنة وشرح طريقة الاستخدام، وهي عموماً، خلطة طبية، أو بالأحرى وصفات سحريّة.

ولا تزال مجموعة كبيرة من النباتات الموصوفة في هذا الكتاب موجودة ضمن الوصفات الشعبيّة العُمانيّة في عصرنا الحالي.

تمكّن السيد سعيد بن سلطان، أخيراً، من تأمين ممتلكاته في عُمان من خطر العدو الخارجي، ومكّنته المرحلة اللاحقة التي اتسمت باستقرار الأوضاع نسبيا في توجيه جهوده وموارده في تطوير إمبراطوريته التجاريّة، ودعم ممتلكاته الحاليّة. وعلى الرغم من تراجع الأوضاع في المنطقة وتقلص الفرص بسبب تزايد تأثير وتدخّل القوى الأوروبيّة، إلا أنه أحرز نتائج ملحوظة ورائعة.

لقد جعل السيد سعيد من زنجبار ميناء حرّاً، واستقطب تجارة أقاليم المنطقة واستثماراتها. وكانت أنظمة التعامل التجاري والتمويل، التي تطوّرت آنذاك، فعّالة جدّاً. كما أن الموانئ العُمانية كانت مثيرة للإعجاب، وقادرة على التعامل مع شحنات متنوّعة، قادمة من شركاء تجاريين للدول الصديقة. وتشيد جميع وثائق البحرية البريطانية والأمريكية والهولندية والفرنسية والألمانية، بالخدمات المتميزة التي كان يقدمها العاملون في المؤانئ العُمانية. كما أنه غالبا ما كان يتكرر ذكر كرم الضيافة والتعاون اللذيّن يقدّمهما السيد سعيد بن سلطان، ، وأبناؤه وممثلوه، إلى السفن الزائرة.

وخلال فترة حكم البوسعيد، كان هناك ارتباط وثيق بين مدى توفر مصادر التمويل لدى السلطان وقوة دولته، وقد أدت هيئة الجمارك دوراً محوريّاً في توفير سيولة مالية للسلطان وحكومته. وكان من الأفكار التي استحدثها السيد سعيد في شرق إفريقيا هو نقل مهام وخدمات الجمارك من منصب وزاري يتبع الحاكم إلى هيئة تجاريّة. وقد كانت معظم الشركات الموجودة في زنجبار تابعة لهيئات مالية هندية وأجنبية، التي قامت هي الأخرى بتقديم تسهيلات ائتمانية وقروض سخية، فرفعت مستوى التداول النقدي، ودفعت بمشاريع تجارة الساحل إلى البرّ، وشجّعت الإنتاج الزراعي للتصدير. وعندما كان السيد سعيد بن سلطان في حاجة لمزيد من المال لتهدئة معارضيه في عُمان فإنه كان يستعين بهيئة الجمارك، وبعض تجارها، وخاصة من البانيان.



عملة تالر ماريا تريزا هي عملة فضيّة كانت تستخدم في التجارة العالمية منذ بداية سكّها عام 1741م. وحملت اسم الإمبراطورة ماريا تريزا، التي حكمت النمسا، والمجر، وبوهيميا خلال الفترة من 1740 إلى 1780م، ونقشت صورتها على هذه العملة. وبعد وفاة ماريا تريزا عام 1870م، ظلت العملة متداولة ومعروفة حتى اليوم، وتاريخ سكها يعود إلى عام 1780م. وإلى جانب الروبيّة الهنديّة فإن عملة ماريا تريزا كانت العملة الرئيسة المتداولة في عُمان حتى عام 1940م.

ومن التجار البانيان الذين رافقوا السيد سعيد من مسقط إلى زنجبار، شيفجي توبان، الذي فاز بعقد "انتفاع الجمارك" في زنجبار في عام 1835م مقابل 84000 قطعة من عملة ماريا تريزا. وقد دفعت شركته مقدّماً إلى الحاكم، ثم احتفظت بمدخولات الجمارك لها. وقد احتفظت عائلته بهذا المنصب الحيوي المهم مدة خمسين عاما. وكان لشركة العائلة فروع في مسقط، وبومباي، وكوتش.

كان الاقتراض من هيئة الجمارك التي تمتعت بإدارة مالية قويّة، يحقق مجموعة من المكاسب والمنافع لزنجبار، ومنها المساعدة في تحصيل الديون والمتأخرات المالية، وإيجاد شركاء تجاريين مناسبين. ولذلك كان نجاح الشركات الأجنبية في زنجبار، يرتبط كثيرا بمصلحة هيئة الجمارك.

وسّع السيد سعيد نطاق أراضي سلطنة عُمان وزنجبار في معظم بلدان ومناطق ساحل شرق إفريقيا، فقد حصل على ولاء نبلاء جزيرة لامو، وأسس علاقات مع ملوك معظم المناطق والجزر، مثل مدغشقر وجزر القمر، وهمّش حُكاماً وارثين، وعين حُكاماً من البوسعيد ليكونوا

ولاة له في المدن السواحيلية الرئيسة. وبعد استتباب سيطرته، منع السلطان كثيراً من التجار الأجانب من المتاجرة مباشرة مع مراكز البرّ الإفريقي. وتوسّعت الأراضي العُمانية لتصل إلى أقصى مناطق ساحل شرق إفريقيا، الذي يمتد لما يقارب 200 ميل من رأس جوردافوي إلى رأس ديلجادو التي كانت جميعها تحت الهيمنة العُمانية.

لم تكن رحلة السفينة سلطانة إلى نيويورك مجرد مهمة دبلوماسيّة، بل سعت إلى توسيع وكشف احتياجات السوق الأمريكي ومتطلباته من منتجات وسلع غرب المحيط الهندي. والحقيقة أن مرور السفير أحمد بن النعُمان الكعبي بميناء مدينة سالم، خلال إقامته المؤقتة لخمسة أشهر دليل واضح على ذلك. وسالم هي مدينة تعد مركزا لصائدي الحيتان الأمريكيين، الذين يزورون زنجبار بين الفينة والأخرى. وتجار سالم كانوا، أيضا، موزّدين للأقمشة لاسيما الثوب المريكاني. ونظرا لأن معاهدة 1833م، ضمنت للولايات المتحدة الأمريكية صفة "الدولة الأولى بالرعاية"، فقط استفادت السفن الأمريكية من هذه الميّزة في الحصول على العديد من التسهيلات في التعاملات كالإعفاء من رسوم الدخول إلى بحار وأسواق زنجبار، وبحلول عام 1838م كانت أغلب السفن الغربيّة التي تنزل بمرفأ مدينة ستون تاون قادمة من مدينة سالم، مستفيدة من هذه التسهيلات. إن المرور بمدينة سالم أظهر جليا أن رحلة سلطانة أعطيت تعليمات للبحث عن علاقات تجارية جديدة في نيويورك، لتوسيع حركة البضائع الواردة والصادرة.

كما أن الاستقبال الإيجابي الحارّ الذي تلقته البعثة العُمانية في نيويورك أكد للسلطان سعيد أن خطته لتقوية العلاقات عبر المحيط الأطلسي كانت تؤتي ثمارها. لقد تنبه بحكمته أن الولايات المتحدة دولة ستكون سريعاً، لاعباً مهمّاً في المشهد العالمي. ومن وجهة نظره التي تراهن على زنجبار، فإن العلاقات الاقتصاديّة والسياسيّة مع أمريكا أكثر أهميّة منها مع بريطانيا، كما أن هذه العلاقات ستساعد في تحجيم النفوذ البريطاني في منطقة المحيط الهندي.



كانت مدينة سالم مركز صائدي الحيتان الأمريكان، الذين يزورون زنجبار من وقت لآخر.

هدفت هذه الجهود لتنمية علاقات مباشرة مع موانئ وأسواق بعيدة للحصول على فوائد اقتصادية عظيمة، وهي بدورها ستوقظ التجار في زنجبار. ومن خلال هذه العلاقات كان السلطان يهدف إلى ضمان وصول البضائع بشكل أرخص دون دفع عمولات لأيّ من الطرفين.

كانت طريقة السلطان في بيع البضائع التي تحملها سفنه بسيطة وفعّالة جداً، فقد كان يطلب يطلب من تجار بانيان عديدين شراء بضائعه بكميّة تناسب حجم تجارتهم، دون الأخذ في الاعتبار وضع الأسواق المحليّة، وبنسبة تتراوح بين 20% إلى 25% فوق الأسعار المتداولة.

إن رؤية السلطان سعيد العالميّة لخلق علاقات تجاريّة مباشرة مع الأسواق الأجنبيّة، قللت الاعتماد على الوسيط، وتحققت من خلال بعثاته إلى لندن، ومارسيليا، وكالكوتا، والصين، وهي شبيهة بتلك التي أرسلها إلى نيويورك، لكن لم يكن هناك استقبال يضاهيها.

غير أن اهتمام السلطان بالتجارة ركّز أيضاً على استقرار وتوسيع طرق القوافل بين منطقة الساحل والبحيرات العظمى في إفريقيا الوسطى. وفي عام 1834م وقّع السيد سعيد اتفاقية مع زعيم قبيلة النياموزي في تابورة لضمان العبور الآمن لقوافله وتأمين وصولها إلى البحيرات العظمى. ومكّنه هذا الاتفاق من الاستجابة لطلب المتاجرة المبكّر الذي تلقّاه من كباكا سونا، ملك بوغندا، التي كانت المملكة الأقوى التي تسيطر على أراض واسعة في غرب وشمال بحيرة فكتوريا. وقد نجحت قافلة يقودها أحمد العامري، وهو تاجر ماهر من زنجبار، في الوصول إلى مقرّ الملك سونا، مرسلا من السيد سعيد، في عام 1844م، أي بعد بضع سنوات فقط من وصول ابن النعُمان إلى نيويورك.

كانت مملكة بوغندا في ذلك الوقت أقوى الدول في إفريقيا الوسطى، وملكها الذي يعرف باسم الكباكا له مكانة الرب، كما أن مخالفة أوامره وقراراته أمر غير وارد لدى أتباعه، ويستوجب عقوبة قصوى.

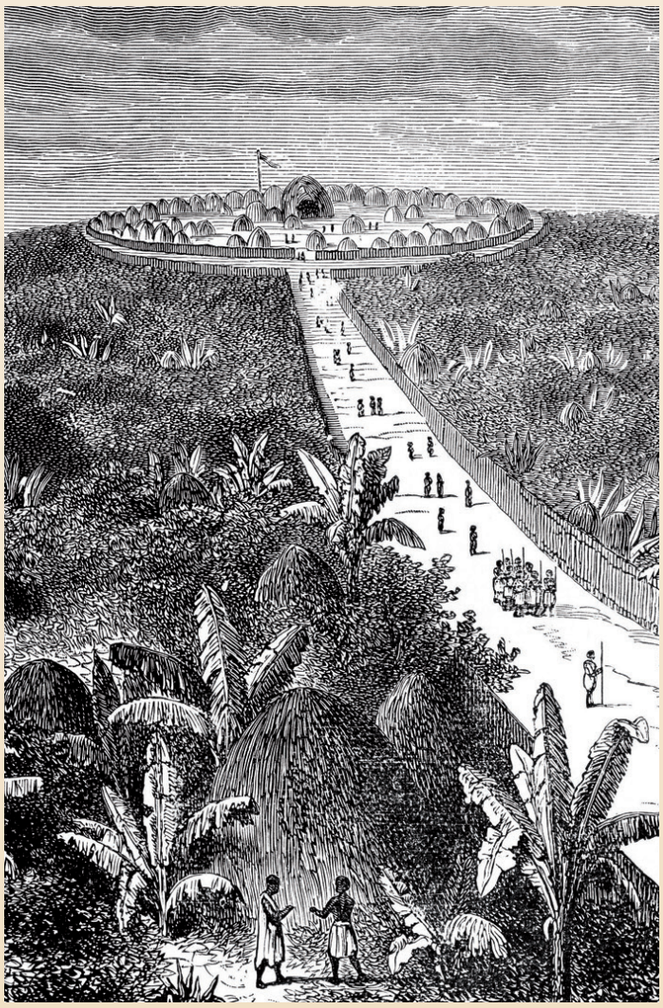


د. سليمان المحذوري

أحمد بن إبراهيم العامري

يُعد التاجر العُماني الشيخ أحمد بن إبراهيم العامري أول من أدخل الإسلام إلى المناطق الداخلية في شرق إفريقيا؛ بفضل أخلاقه السامية، وشخصيته القوية المؤثرة، كما كان يتحدث اللغة السائدة في بوغندا. وتُشير المصادر التاريخية إلى أنّه وصل إلى مملكة بوغندا في عام 1844م خلال حكم الكباكا سونا، وبالتالي فهو أول تاجر عربي يصل هذه المملكة. وقد دوّن قصته أمين باشا في مذكراته اليومية التي نشرتها المجلة الأوغندية، عندما التقى به في إحدى رحلاته في إفريقيا الوسطى.

وتذكر لنا المصادر أنّه بحسب معتقدات وطقوس ديانة لوباري الوثنية التي كان يعتنقها الكباكا سونا -الذي يمثل السلطتين السياسية والروحية في المجتمع – كانت دماء الأبرياء تسفك وتقدم قرابين للآلهة. وكانت هذه الممارسات سائدة لدى بعض المجتمعات الإفريقية جزءًا من الثقافة المتوارثة، لا سيما خلال القرن التاسع عشر الميلادي [14]



يتخذ ملوك بوغندا دائما من قمم الهضاب سكنا لهم.

وفي هذا السياق وثّق أمين باشا قصة الشيخ العامري مع الكباكا سونا؛ وذلك عندما أصدر الملك أوامره للقيام بهذه المذبحة في حضرة الشيخ العامري فما كان من الشيخ إلا أن وقف على قدميه متحديًا الملك وسط دهشة الحضور مخاطبًا ومعاتبًا إياه بشجاعة بقوله: "إنّ الله خلقه هو وقومه، وأنّه يدين بمملكته لله وحده، وأنّ إهلاك خلق الله إثم عظيم". فقال الملك: "إنّ الآلهة هي من أمرتني بذلك". وبدأ الشيخ في شجاعة ورباطة جأش يردد: "إنّ الله الواحد الأحد هو الذي يملك الحق في إنهاء حياتهم، وليس ذلك لمخلوق". وبدأ الملك يتساءل في حيرة عن الله الذي لا شريك له الذي يتحدث عنه الشيخ العامري والذي يعده خالقًا للكون وله ما في السموات والأرض. ورويدًا رويدًا بدأ قلب الملك بالانشراح، وطلب من العامري أن يعلمه المزيد عن الإله الذي لا يُعبد أحد سواه. [15]

وهنا بدا الملك أنّه مستمع جيد، وبعد عدة لقاءات تمكّن العامري من شرح مبادئ الإسلام. وتذكر بعض المصادر أنّ الملك اعتنق الإسلام مع عدد كبير من حاشيته، كما تُشير بعض المصادر أنّه استطاع تعليمه آيات من القرآن الكريم. ومن الآثار التي وجدت مجموعة من المخطوطات الدينية المقدسة مكتوبة باللغة العربية، ربما تكون آيات من القرآن تركها الكباكا لابنه موتيسا، الذي خلفه في الملك. وفي عام 1874م اطلع تشيلي لونج هذه الوثائق، ودوّن ذلك في كتابه إفريقيا الوسطى. لذا يُعد وصول الشيخ العامري إلى مملكة بوغندا نقطة تحول في تاريخ هذه المملكة والمناطق المجاورة لها، لا سيما بعد الحادثة التي وقف فيها الشيخ العامري متحديًا الملك في وقف سفك دماء الأبرياء وتقديمهم قرابين. وبذلك بزغ نور الإسلام إلى أوغندا والمناطق المجاورة.

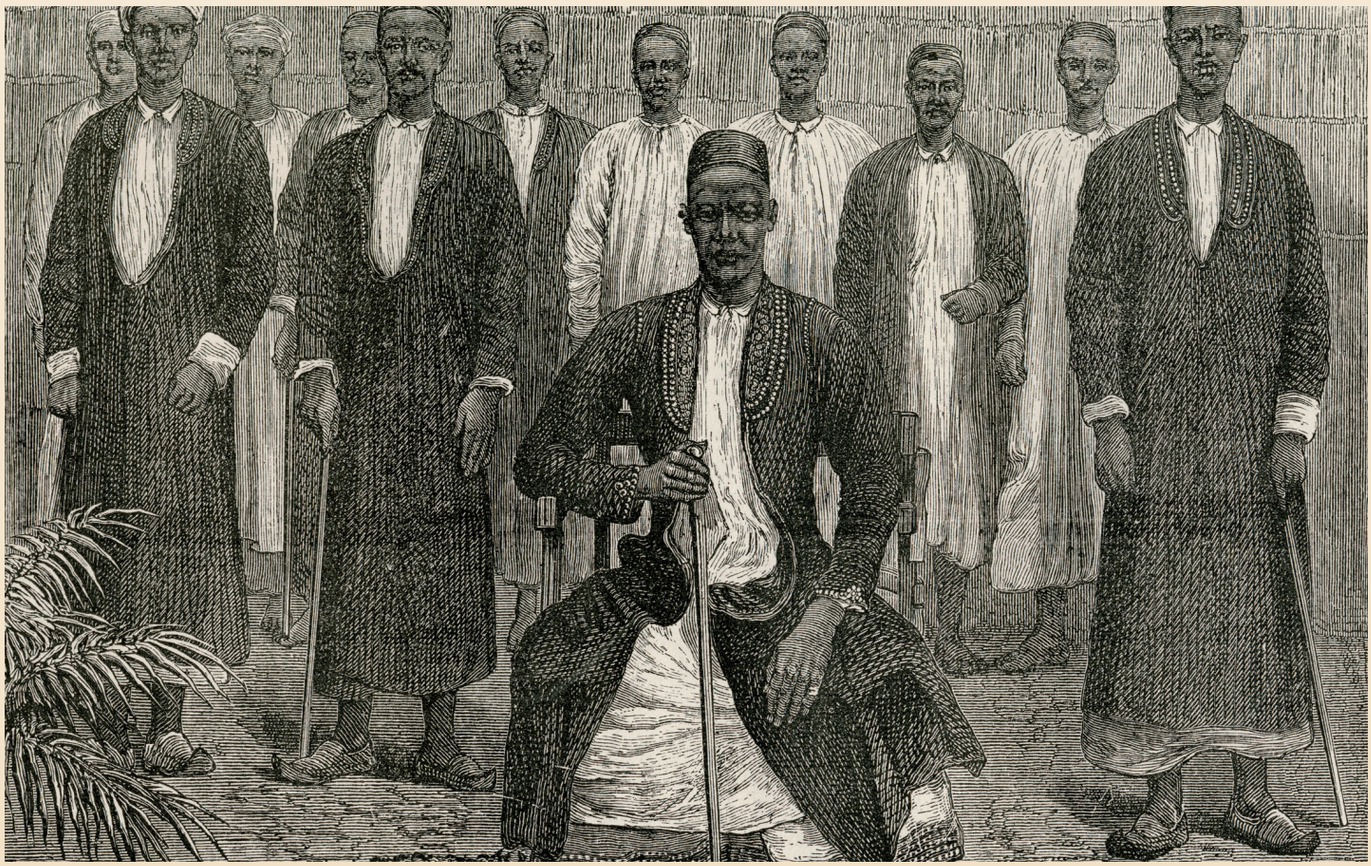
وتُؤكد المصادر التاريخية أنّ الملك موتيسا (1856-1884) الذي خلف أباه سونا في الحكم-دخل الإسلام؛ حيث أبدى حماسًا منقطع النظير للإسلام فنشره بين مواطني مملكته. وتُشير المصادر أيضا إلى أنّه أصدر أوامره بإقامة شعائر الإسلام، وتشييد المساجد في جميع أنحاء مملكة ناكاوا لتأدية الصلوات وبخاصة صلاة الجمعة، كما أصدر قرارًا يقضي بأنّ استخدام غير اللغة العربية للتحية بين أتباعه يُعد جريمة يعاقب عليها في إشارة واضحة إلى ضرورة استخدام اللغة العربية لغة

رسمية. إضافة إلى ذلك أدخل العمل بالتقويم الهجري في مملكته، كما وصل به الحماس لهذا الدين أن بعث رسله إلى الملك كاباريجا ملك إقليم بنيور داعيًا إياه للدخول في الإسلام.[16]

وفي بلاطه حظي التجار العُمانيون بمكانة مرموقة؛ اذ اتخذ منهم مستشارين له مثل عبد الرحمن بن عبيد.[17]

وعلى الرغم من كل النجاحات التي حققها الشيخ العامري في رحلته إلى المناطق الداخلية بشرق إفريقيا، إلا أن نهايته كانت مأساوية؛ فقد قتله أحد أفراد قبيلة وانيانبو، إذ رُمي بسهم وهو جالس في برزته مساءً أمام منزله مع مجموعة من العرب، كما روت ابنته صالحة هذه الحادثة قائلةً: "كنت صغيرة عندما توفي والدي الذي كان يلقب بالدولة -أي ممثل الحكومة -ولكني أتذكر جيدًا ما حدث يوم وفاته. كان أبي سخيًا ولطيفًا معنا جميعًا". وبعد مقتله هجر كثير من التجار العرب كافورو. ويصف الضابط الجرّاح بارك هذه المدينة في كتابه "خبراتي الشخصية في إفريقيا الإستوائية" قائلًا: "عند وصولنا إلى كافورو في أغسطس من عام 1889م الساعة 11 صباحًا وجدنا المستوطنات التي شيدها التجار العرب في حالة يرثى لها، وتبدو أشبه بالخرابات المهجورة ذات جدران متساقطة. ويُمكن رؤية المقابر العربية التي ما زالت باقية، ولم يبق من آثارهم سوى شجرة ليمون وبعض أشجار الطماطم التي زرعوها". [18]

وهكذا انتهت قصة الرجل الذي خاطر بحياته من أجل إنقاذ حياة الآخرين، عندما وقف بجرأة وشجاعة في بلاط الملك سونا، ومنعه من تقديم الدماء البشرية قرابين للآلهة حسب معتقداتهم الوثنية. حيث لم يسبق أن تمّت مخاطبة أي من ملوك بوغندا السابقين بهذه اللهجة، كما فعل الشيخ العامري. وبفضل شخصيته المؤثرة كان التجار العرب محل ترحيب في مملكة بوغندا التي ارتبط ملوكها بعلاقات ودية مع سلاطين زنجبار، وتبادلوا معهم الهدايا. ولا شك أنّ الشيخ أحمد العامري يُعد نموذجًا مشرفًا للتاجر العربي الذي يحمل تجارته بيد ودعوته إلى المبادئ والأخلاق الإسلامية في اليد الأخرى. كما أنّ إسهامه في توصيل الدعوة الإسلامية إلى المناطق الداخلية من إفريقيا الشرقيّة جنبًا إلى جنب مع أقرانه من التجار العرب لا تزال آثاره باقية إلى يومنا هذا.



موتيسا، كباكا مملكة بوغندا مع بعض كبار أتباعه.

الفصل الثالث



اكتشاف قلب إفريقيا

رحلة البحث عن العاج

شهد السوق العالمي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي طلباً كبيراً ومتزايداً على إحدى السلع القادمة من شرق إفريقيا التي كانت تباع بأسعار مرتفعة للغاية، وتُعد ذهب إفريقيا الأبيض، ألا وهي العاج. ولآلاف السنين، كان العاج يباع بكميات قليلة جدا لإمبراطوريات أوروبا، وآسيا، وذلك لصناعة منتجات فاخرة وأعمال فنيّة وهدايا للحكام والنبلاء والزعماء الدينيين.

وكان لندرة العاج وارتفاع ثمنه دور كبير في انخفاض الطلب عليه، كما أدى تزايد قوة المجتمعات المحلية ووصول أفرادها للسلطة وزيادة تأثيرهم ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي وما تلاه، إلى تناقص استيراد العاج بشكل كبير.

وتراجعت أهمية الذهب الأبيض ومكانته بشكل أكبر مع ارهاصات تغير مسار الاقتصاد العالمي وبداية توجه أوروبا وأمريكا إلى التحول الصناعي الذي أحدث تغيّرا واسعا في عمليات الإنتاج وأسفر عن ارتفاع هائل ومتسارع في إنتاج السلع والبضائع، إلى جانب التغيرات الجذرية التي نشأت في المجتمع جراء ذلك.

التاجر العُماني الأشهر خلال القرن التاسع عشر الميلادي وحتى يومنا هذا، حمد بن محمد بن جمعة بن رجب المرجبي، المعروف بـ "تيبو تيب".

لقد أسفر التحول الصناعي عن زيادة الحاجة إلى عمّال للعمل في مناجم الفحم الذي يستخدم في تشغيل المحركات الجديدة لتسريع عمليات الإنتاج، حيث ظهرت حاجة في المصانع لإنتاج بضائع تلبّي النمو المتزايد للطبقة الوسطى. وقد عانى هؤلاء العمال مخاطر وظروفا قاسية في مقابل الحصول على أجور زهيدة وغير مجزية، في حين كان هذا الاستغلال للعمال سببا في حصول أصحاب هذه المصانع على ثروات طائلة، وارتفاع مستوى المعيشة لأفراد الطبقة الوسطى، التي كانت حريصة على إظهار مكانتها الاجتماعية من خلال اقتناء بضائع ثمينة والتباهي بها، مما ساهم في نشوء مجتمع استهلاكي.

وبسبب تلك التغيرات، تحول العاج من سلعة فاخرة ونادرة، إلى سلعة متوفرة وفي المتناول، وذات ذات استخدامات متعددة، وقد حلّ محلّه البلاستيك في القرن العشرين، وتحوّل استخدامه من صناعة مفاتيح البيانو، وكرات البلياردو، إلى صناعة أدوات الاستخدام اليومي، مثل مقابض السكاكين وأدوات المائدة، والمظلات والعصي، وحتى في أطقم الأسنان الصناعية، واكسسوارات الموضة، وأدوات تزيين المنازل.

وقد تطوّرت بمرور الزمن الصناعات المنزليّة الخاصة بصناعة العاج ونحته. فها هي قرية إيرباخ الصغيرة في ألمانيا تستقطب حتى يومنا هذا الكثير من السوّاح إلى "متحف العاج الألماني". والمثير في الأمر أن صناعة نحت العاج أصبحت النشاط التجاري الرئيس في إيرباخ وجارتها ميكلستات، وأنجح صادراتهما هي وردة إيرباخ، وهي وردة مفردة تأخذ شكلا طبيعيا للغاية، وقد حازت على جائزة الاستحقاق في معرض فيينا العالمي منذ عام 1873م. ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تمكن حوالي خمسين فنانا من الفنانين المستقلين بمهنهم بمساعدة مائة وخمسين من العمال الذين يعملون لديهم بالأجر اليومي في إيرباخ وميكلستات من الاعتماد بشكل كامل على إنتاج ورداتهم المصنوعة من العاج كمصدر رزق يعيشون عليه، ونجحوا في تسويق منتجاتهم وبيعها في جميع أنحاء أوروبا.



استخدمت الوردة عنصراً للنحت على العاج للمرة الأولى من قبل الفنان فريدرك هارتمان من قرية إيرباخ.

واستوجب الطلب المتزايد على العاج زيادة في استيراده، لكن لم تكن الفيلة الهندية مصدراً مناسباً للعاج، وذلك لأن ذكور الفيلة الهندية فقط لها أنياب العاج، فضلا عن أن متوسط طول الناب الواحد لا يتعدى 1.60 سنتيمتراً فقط، ووزنه الإجمالي لا يتجاوز عشرين كيلوجراماً. وعليه فإن معظم العاج التجاري يأتي من فيلة إفريقيا، إذ إن كلا الجنسين من الفيلة في إفريقيا لها أنياب عاج، ويصل طول بعضها إلى 3 أمتار، ويتراوح وزنها بين 50 إلى 90 كيلوجراما. وأطول ناب مسجّل بلغ 4.10 سنتيمترات، وأثقلها 120 كيلوجراماً. كما كان



قرون العاج وهي تغطّي أرضية أحد المخازن في ميناء لندن تمهيدا لبيعها.

كانت لندن وأنتويرب (بلجيكا) المكانين الرئيسين لمزادات العاج في أوروبا.

العاج القادم من شرق إفريقيا ووسطها يلقى رواجا أكبر، وهو المفضل عن العاج القادم من غرب إفريقيا بسبب رقته ولكونه الأنسب للمعالجة والنحت.

ومع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، وتحديدا في عام 1891م، بلغ الاستهلاك السنوي لبريطانيا من العاج 188 طناً، في حين بلغ استهلاك ألمانيا 113 طناً، وفرنسا 108 أطنان، والولايات المتحدة 116 طنا، والهند 121 طنا، والصين 13 طناً، والدول الأخرى مجتمعة 6 أطنان، أي أن المجموع الكلي للاستهلاك العالمي بلغ 647 طناً. وكانت معظم هذه الكمية، بمقدار 430 طناً، تستورد من زنجبار ومن ساحل شرق إفريقيا، بينما لم يتجاوز مجموع الواردات قبل أربعين عاماً، أي في عام 1841م، من هذه المنطقة 190 طناً.[1]

وكان لارتفاع الطلب العالمي للعاج في ظرف عقود قليلة آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية بعيدة المدى على حياة السكان في شرق إفريقيا وكذلك على السياسة في أوروبا.



وفي مقابل العاج، ومستخلص الصمغ، والجلود، والمعادن الثمينة، والرقيق الذين ينقلون إلى الساحل، كانت مجموعة من البضائع من التجارة العالمية تصل إلى داخل إفريقيا مثل الخرز، والملابس، والمنتجات الزراعية، والأدوية، والمعدات، والأسلحة.

لقد أدى التبادل المادي والثقافي الذي حدث في طرق القوافل إلى علاقة تكاملية استفادت منها جميع الأطراف، واندمج البرّ الإفريقي مع نسيج عالمي تربطه مصالح مشتركة في عالم المال والتجارة.

التوسّع في قلب إفريقيا

وسّع التجار الأفارقة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي شبكة الطرق الواسعة في وسط إفريقيا عبر ارتياد طرق تجارية تصلهم بالساحل، ويعد تجار قبائل البانتو مثل الكامبا، والياو، والنياموزي أبرز هؤلاء التجار. ويربط طريق أقصى الشمال مقاطعة كامبا، وهي اليوم وسط كينيا مع ممباسا. في حين يربط أقدم هذه الطرق وهو طريق أقصى الجنوب، بين مقاطعة ياو، في أقصى جنوب بحيرة مالاوي، وكيلوا. أما الطريق الواقع بين هذين الطريقين فقد اكتشفه النياموزيون في حوالي عام 1800م، ويقع فيما يعرف اليوم بوسط تنزانيا، وينتهي على الساحل في باجامويو في الجهة المقابلة تماما لجزيرة زنجبار. وقد جعل هذا الموقع الجغرافي من هذا الطريق أهم الطرق جميعها، وذلك بسبب التطور الكبير الذي قاده السلطان سعيد بن سلطان في زنجبار، والذي جعله الميناء التجاري الأهم على المحيط الهندي.


0
300 km
Albertsee
Victoria-Nil
Mt. Elgon
Turkana
Ruwenzori
Kongobecken
Buganda
Edwardsee
Victoriasee
Mt. Ke
Lualaba
Kiwusee
Mwanza
Kilimandschar
Eyasisee
Nyangwe
Ujiji
Tabora
Kabambare
Tanganjikasee
Luvua
Rukwasee
Pweto
Mwerusee
Lualaba
Malawisee



يمين

لا تعتبر شرق إفريقيا الموطن الأم لأشجار النخيل، ويرجح أن التجار هم من اهتم بزراعتهابهدف زيادة سلتهم الغذائية، وربما تكون نبتت من تلقاء نفسها عندما يبصق من يأكل التمر النوى على الطريق.

لا تزال أشجار النخيل موجودة في مراكز التجارة القديمة في داخل شرق إفريقيا، وعلى طول طرق القوافل التجارية القديمة، التي حُوِّلت أغلبها إلى طرق حديثة.

شجّع الارتفاع المتزايد لأسعار العاج والطلب عليه، والعائد المجزئ من المتاجرة به، التجّار العرب والسواحيليين في الساحل على تنظيم حملات استكشافية إلى قلب قارة إفريقيا المجهول وغير المكتشف في ذلك الوقت. وكان الهدف من ذلك التخلّص من الوسطاء الأفارقة والحصول على العاج من مصدره. وقد رعى السيد سعيد بن سلطان هذه المشاريع المحفوفة بالمخاطر، وذلك بتخفيض الضرائب على العاج للتجار الزنجباريين.

وقد وصلت القافلة الأولى القادمة من الساحل إلى أوميامويزي، موطن قبيلة النيامويزي، عام 1825م. وفي هذه النقطة التي وصلت إليها القافلة برزت محطة تجارية هي تابورة، التي سرعان ما أصبحت أهم مركز تجاري في البرّ الإفريقي. ومن تابورة انطلقت الاكتشافات للمنطقة حتى بحيرة تنجانيقا وبحيرة فكتوريا. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي تأسست ثلاث طرق تجارية رئيسة تنطلق جميعها من تابورة، حيث تقود إحدى هذه الطرق إلى الشمال نحو ممالك بوغندا، وبيونيورو، ورواندا، وبروندي في المنطقة الواقعة بين بحيرة تانجنيقا وبحيرة فيكتوريا. ويتجه الطريق الثاني نحو الجانب الجنوبي الأقصى لبحيرة تانجنيقا. أما الطريق الثالث فيصل إلى الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة تانجنيقا، حيث استحدثت محطة أوجيجي التجارية عام 1831م التي سريعاً ما أصبحت بوّابة التجارة لجميع الطرق العابرة لبحيرة تانجنيقا نحو الكونغو، إحدى أهم المناطق التي يجلب منها العاج.

دور القوافل في نقل التكنولوجيا وتبادلها

ولتعظيم فائدة التجارة في البرّ الإفريقي كان لا بد من وضع نظام فعال لها، وتطوير البنية الأساسية من قبل التجار العرب والسواحيليين بما في ذلك شبكة الطرق ومراكز التجارة ومستودعات حفظ البضائع على طول المدن الساحلية وعبر طرق القوافل. ولضمان أمان هذه الطرق، كان على التجار القادمين من الساحل كسب ثقة شركاء تجاريين يمكن الاعتماد عليهم، وبناء تحالفات مع زعماء قبائل البانتو، ومخالطة السكان الأصليين، ومناقشة العقود التجارية وشروطها التي يجب أن تحقق بعض مصالح الزعماء المحليين.

مثّل تنظيم تجارة القوافل بين ساحل شرق إفريقيا والبرّ الإفريقي على مستوى عال، تحدياً لوجستيًّا كبيراً، إذ لا توجد شوارع، ولا سكك حديد، وغالبا ما تمر المسارات عبر الأنهار التي تفصل بين المناطق. وقد استُعين في مناطق أخرى من العالم ببعض الحيوانات كالجمال والحمير والخيول لنقل البضائع الثقيلة، إلا أن هذا الحل غير وارد في شرق إفريقيا، نظرا لأن هذه الحيوانات كانت معرضة بشكل كبير للإصابة بأمراض استوائية قاتلة، مثل مرض النوم (داء المثقبيات الإفريقي).

كما أن هناك تحديًّا آخر تمثل في تفريغ حمولة البضائع الثمينة قبل عبور النهر لضمان حماية البضاعة والمؤونة المراد نقلها عبر النهر بواسطة الحمالين. وفي كل الأحوال فإن اجتياز النهر، مع التنزيل ثم الشحن ثانية كان عملا خطيراً ويستغرق وقتا طويلاً. وكان حمل البشر للبضاعة كما كان يفعل البانتو على نطاق ضيّق، هو الحل الأكثر فعالية.

يتطلب حمل مئات من قرون العاج والبضائع الأخرى ونقلها مسافة 1200 كيلومتر جهة الساحل، ثم العودة بالسلع التي طلبها سكان البرّ الإفريقي مئات الحمّالين، الذين يحتاجون للغذاء والماء طوال مدة رحلتهم، التي ستستغرق عدة أشهر وقد تمتد أحياناً لسنوات.

ومع تنامي حركة القوافل التجارية، تراجعت مقدرة القرى الواقعة على الطريق على توفير المؤونة التي تحتاجها تلك القوافل بشكل مستمر. لذلك فإن مزيدا من المزروعات والفواكه التي أدخلها التجار زرعت لأول مرة على طرق القوافل. ومن هنا شارك التجار خبرتهم ومعرفتهم الزراعية مع السكان المحليين لتكون الأساس فيما يقدمونه للقوافل، وما يستفيد منه السكان المحليون بطبيعة الحال.

وكان محصول الأرز، من أهم المحاصيل التي تم إدخالها وحصدها بشكل واسع في المناطق المحيطة بتابورة ونيانجوي وكاسونجو، وقد عرفت هذه المنطقة باسم البنجال الجديد لتوفر مزارع الأرز بها وتوسعها.



حقول الأرز بالقرب من شاطيء بحيرة تانجنيقا



أشجار المانجو المعمّرة في الطريق المؤدي إلى أوجيجي، تعود فترة زراعتها إلى عصر القوافل التجارية.

كما كانت زراعة أشجار المانجو على طول طرق القوافل والمناطق المجاورة للمراكز التجارية هي الأخرى عملاً مهماً حيث يمكن اليوم مشاهدة أشجار المانجو المعمّرة والضخمة جداً على طول الطرق التاريخية التي شهدت أنشطة تجارية في تلك الأيام الخوالي وكان المانجو محصولا واسع الانتشار، ولا يزال يصدّر من شرق إفريقيا إلى العالم حتى يومنا هذا.

لقد تطورت تابورة بفضل خصوبة أراضيها وتمركزها على مفترق طريقين من طرق القوافل؛ لتصبح مركزا ومحطة توقف رئيسة للتجارة بين الساحل والبرّ الإفريقي، فقد ضمت مستودعا، ومحطة مؤونة، ومكانا للترفيه، واستراحة للقوافل العابرة، وتوفّر كل ما من شأنه توفير سبل الراحة بعد عناء الطريق. وقد كانت مكاناً للاستراحة وتبادل البضائع، التي لا يمكن الحصول عليها في أي مكان بين البرّ والساحل الإفريقي.

وقد أسهمت المزارع الكبيرة، التي كان يدير معظمها تجار عُمانيون اختاروا الاستقرار في البر الإفريقي، في توفير الطعام الوفير والزاد للقوافل العابرة. كما استحدثت مزارع



تحتل تابورة، حتى هذا اليوم، صدارة المدن التي تمتلك أكبر عدد من الأبقار في تنزانيا، حيث تجاوز عددها ثلاثة مليون بقرة.

تربية الماشية لتوفير الحليب واللحوم والجلود. وقد أدى الحضور العُماني المتمثل في وجود التجار العُمانيين في تلك المناطق إلى انبلاج فجر عصر جديد، وجد فيه السكان الأصليون فرصة سانحة للتطور والازدهار. فقد عملت حقول الزراعة وتربية الماشية التي أدخلها التجار القادمون من الساحل على إيجاد فائض من الطعام، الذي أتاح للسكان المحليين بيعه، وبالتالي زيادة دخلهم وتحسين معيشتهم. وكان التسويق التجاري الذي كانت بدايته عبر التواصل المباشر للساحل بالبرّ الشرقيّ الأقصى، سببا في تحقيق التبادل والتطوّر بكافة أشكاله.

يطلق الدكتور كارين بالافير، وهو مؤرخ من جامعة بولونيا، على مدينة تابورة في تلك الأيام "زنجبار الثانية". ويبدو أن بروز التجار العُمانيين في منطقة تابورة توافق مع مصلحة الزعيم النيمويزي الأقوى فوندي كيرا، الذي أعفى بضائعهم من الرسوم. وقد خص محمد بن جمعة بن رجب المرجبي، أحد أوائل التجار العُمانيين وصولاً إلى البرّ الإفريقي، بمعاملة خاصة. فقد تزوّج محمد بن جمعه المرجبي بكاروندي، ابنة فوندي كيرا، وبذلك فقد أوجد لنفسه ولبقية العُمانيين الذين جاءوا من الساحل موضع قدم في تلك المنطقة. ومنحه هذا الامتزاج عن طريق الزواج والمصاهرة مكانة عالية في تابورة على المستوى التجاري والاجتماعي. وقد أصبح ابنهما حمد، المعروف بتيبو تيب، التاجر العُماني الأشهر في القرن التاسع عشر الميلادي. فكانت هذه الروابط الأسرية غاية في الأهمية كون أن أفراد الأسرة الواحدة يثقون ويهتمون ببعضهم البعض. وبزواجهم من بنات السكان المحليين، أصبح العُمانيون أكثر قبولا واندماجا ومساهمة في رعاية المجتمع المحلي. والامتزاج بالمصاهرة كان أمرا شائعاً جدا، كما أن الأطفال الذين يولدون عن طريق هذه الزيجات يمتلكون مكانة اجتماعية مميزة في المجتمع.



لاتزال العلاقات والروابط الأسرية الموغلة في القدم، والتي تربط بين التجار العُمانيين والنياموزيين حيّة حتى يومنا هذا.

يفتخر الأحفاد اليوم بانتمائهم إلى هذه الثقافة المتسامحة والفريدة من نوعها.

يعمل الزعيم نجولاتي فوندي كيرا وأخوه على كتابة سيرة عائلته، التي تربطها علاقات وطيدة مع عائلة تيبو تيب.



أحد البيوت المعاد ترميمها والمبنية على نمط التيمبي في تابورة، والتي كانت مسكناً للمستكشف والمنصّر البريطاني د. ديفيد ليفينجستون في عام 1872م. وكان هذا البيت ذات يوم ملكاً لتاجر عُماني.

وإلى يومنا هذا لا تزال بيوت التيمبي التقليدية شاخصة في منطقة تابورة، ومنها البيت الذي تملكه عائلة تيبو تيب. وتختلف فكرة بيت التيمبي عن بيت البوما الإفريقي التقليدي، الذي يتكوّن من عدة مبان طينية يحيط بها سياج خشبي.

فقد نشأ الطابع المعماري لبيت التيمبي نتيجة للامتزاج والتواصل والتعاون بين التجار العُمانيين والسكان المحليين، ويُعد منجزا ثقافياً لكلا الطرفين حيث تبنى هذه البيوت ذات الأسطح المستوية على الطراز المعماري العربي، وتكون على شكل مربع أو مستطيل تلتف حول فناء داخلي، والمبنى والساحة محميان بسور، وليس للبيت أي نافذة مطلة على الخارج، وهو نمط مثالي للدفاع وحماية الممتلكات الخاصة من اللصوص. والمدخل، وهو النقطة التي يمكن ملاحظتها فورا عند التعرض لأي هجوم، معزّز بأبواب خشبية مزخرفة ولكنها في ذات الوقت قوية ومتينة وثقيلة للغاية.



إن عبور بحيرة تانجانيقا بزوارق صغيرة كانت مغامرة كبيرة وإنجازاً رياضيا، وإلى اليوم تنقل الخضراوات وأدوات الاستخدام اليومي عبر البحيرة باستخدام القوارب الصغيرة.

يعد بناء السفن مظهرا مهما آخر من مظاهر ذلك التعاون الذي حدث في بحيرة تانجنيقا، التي تعتبر ثاني أكبر بحيرة من حيث الحجم في قارة إفريقيا، بطول 673 كيلومتراً، وعرض يصل إلى 50 كيلومتراً. وقبل وصول التجار العُمانيين كانت الزوارق الشجرية الصغيرة وسيلة العبور الوحيدة من بحيرة أوجيجي إلى ساحل الكونغو. ونظرا لامتلاك العُمانيين إرثا وتاريخا بحريا في صناعة السفن، فقد أدخلوا إلى هذه المنطقة أسلوب وطريقة بناء السفن بهياكل وألواح. وبامتلاك زوارق أكبر أصبح عبور البحيرة أكثر سلامة وأمناً وأكثر نفعا وجدوى للجميع.

كما واجه تجّار القوافل تحدّيًا آخر تمثل في استخدام عملات مختلفة في مناطق عدة في أثناء مرورهم بها. وفي تلك الأيام البعيدة كانت العملة الأكثر انتشاراً في إفريقيا هي الخرز الزجاجي القادم من مدينة البندقية، لكن لم تكن هنالك عملة موحدة تستخدم في جميع المناطق. ففي بعض المناطق يباع الطعام والمؤونة وتدفع العشور في مقابل الخرز الأبيض، وفي مناطق أخرى يقبلون الخرز الأحمر، أو الأسطوانيات الحمراء، أو الشرائط الزرقاء والبيضاء، وهكذا. وعليه، فكان على القوافل أن تحمل معها أنواعا وألوانا

من الخرز من الساحل، وأن يكون معها أيضاً أصداف الودع، المستخدمة آنذاك كوسيلة للدفع في بعض المناطق، مثل مملكة بوغندا.

ومع مرور السنوات تزايدت أهمية القطن الأمريكي المعروف بـ "المريكاني" كوسيلة للمقايضة. وكان امتلاك الزعماء المحليين للقطن المريكاني أمرا مهما للغاية لإظهار مكانتهم الاجتماعية وثرائهم وقوتهم السياسية. وقد أدى استيراد الأقمشة والبضائع الأخرى دورا كبيرا في إنعاش الاقتصاد المحلي وربطه عن طريق التجار في الساحل بالتجارة العالمية. وسيطرت ثلاثة أطراف على مشهد التجارة بين الساحل والبرّ الإفريقي وهي القبائل الإفريقية، والتجار العُمانيون والسواحيليون، والمصرفيون من البنيان الهنود. وقد لاقت عملية تنظيم تجارة القوافل الكثير من المخاطر، فالعدد الهائل من العمال المطلوبين لخلق مسارات طرق التجارة، وتطوير البنية التحتية، وإيجاد وسائل تواصل ومنافذ بيع، ونقل البضائع، وبناء مجتمعات مستقرة، وتوفير المعيشة لآلاف المشاركين في هذه الأعمال يحتاج لرأس مال ضخم. ولم يكن يستحق عناء كل ذلك ويغطي تكلفته سوى البضائع غالية الثمن التي تلقى رواجا عالمياً كالعاج.

كان التجار العُمانيون أول من أدرك حجم هذه الفرصة الثمينة، وهم من وفّر التمويل المطلوب عن طريق الممولين الهنود البانيان. وعملوا بمعية التجار السواحيليين على تنظيم آلية للتعاون مع القبائل الإفريقية في البر الإفريقي، التي قامت بدورها بجمع الموارد الطبيعية، كالعاج، والصمغ، والمعادن النفيسة، بمساعدة الرقيق لنقلها إلى الساحل عن طريق القوافل التي يديرها العُمانيون والسواحيليون.





القارب في الصورة قيد الإنشاء ويصنع لغرض نقل البضائع عبر بحيرة تانجانيقا. تجدر الإشارة إلى أن ألواح الهيكل تربط قبل إدخال بقية الألواح التي تمثل إطار السفينة - وهي مشابهة لطريقة الصناعة التقليدية للمراكب الشراعية العربية المعروفة بـ"الداو". ويملك هذا المركب تاجر محلي من أصول عُمانية.

ذكر الرحّالة الأورويون مراراً أن مهمة نقل قرون العاج كان يقوم بها العبيد، الذين يباعون هم أيضاً عند بلوغهم الأسواق في الساحل. وهذه الفكرة الواسعة الانتشار تحتاج إلى مراجعة؛ إذ جرت العادة في شرق إفريقيا أن يُستخدم للقيام بمهمة نقل العاج بشكل رئيسي حمالون تدفع أجورهم من قبل الأفارقة والعُمانيين.

أ.د. كارين بالافير

الرقيق والحمالون في شرق إفريقيا

نشأ الرق في كثير من المجتمعات الإفريقية منذ زمن بعيد قبل مئات السنين سبقت بكثير تجارة الرقيق في المحيط الأطلسي، وقبل أن تعرف زنجبار الزراعة على طول الساحل السواحيلي، وقبل حتى قيام المستعمرات الفرنسية والهولندية في المحيط الهندي.

وعلينا أن ندرك أن الرق في ذلك الزمن هو رق من نوع آخر يختلف تماما عن ذلك الذي عرفناه من خلال الممارسات التي شهدها العالم في مناطق المحيط الأطلسي، فهؤلاء الرقيق لا يعيشون في ثكنات أو مجمّعات كبيرة لكنهم يعيشون بالقرب من أسر ملاّكهم، وأغلبهم من الجواري التي تساعد في الأعمال المنزلية أو في الأعمال الحقلية. ويمكن للرقيق أن يصبحوا جزءا من العائلة ومن المجتمع الذي يعيشون فيه. ومن الوارد جداً أنهم لا يعيشون هم وأبناؤهم في الرق طوال حياتهم.



محاربو النياموزي

ومع اتساع رقعة الزراعة في المحيط الهندي، تزايدت الحاجة إلى العبيد، وازدادت كذلك معها أهميتهم، وارتفعت أسعارهم وأعدادهم في السوق. وكانت مهمة التجار الأفارقة الحصول على العبيد، وإحضارهم إلى الأسواق المركزية الواقعة على طرق القوافل، وذلك لبيعهم للتجار العُمانيين والسواحيليين. وقد شاركت المجتمعات الإفريقية في تجارة الرقيق في القرن التاسع عشر الميلادي، خلال الفترة نفسها التي تطورت فيها تجارة العاج.

يأتي الرقيق من الجنوب فيما يعرف الآن بتنزانيا، ويصلون إلى الساحل عبر الطريق الجنوبي إلى كيلوا، بينما تربط الطرق الوسطى والشمالية بحيرة تنجانيقا،



وبحيرة فيكتوريا، وتابورة بالساحل حيث تمركز تجارة العاج.

لقد كانت تجارة المسافات الطويلة تتطلب رجالا يستطيعون حمل العاج من البرّ إلى الساحل، وفي الوقت نفسه تحتاج آخرين يستطيعون حمل البضائع

المستوردة في الاتجاه المعاكس من الساحل إلى البرّ. ويتطلب هذا العمل أن تتوفر لدى الحمّالين مهارات خاصة، تمكّنهم من السفر عدة أشهر، أو قد تمتد إلى سنوات يقضونها على طرق القوافل. فيجب أن يكونوا أقوياء جداً، ويمتلكون القدرة على حمل بضائع يصل وزنها إلى 40 كيلوجراماً.

وقد أسّس شعب النياميزي شبكة نقل داخلية عبر المناطق التجارية قبل ظهور تجارة المسافات الطويلة في شرق إفريقيا. واعتماداً على اعتيادهم نقل بضائع مثل العسل ومنتجات اللحاء، والبطاطا الحلوة في مقابل الحديد، والملح، والمنتجات الحيوانية التي تتوفر في المناطق المحيطة، فإن شعب النياميزي اكتسب خبرة، وإمكانية، ومعرفة بالطرق التجارية المختلفة.

ومع ظهور تجارة المسافات الطويلة مع الساحل، وسّع النياموزيون نشاطهم من المناطق المحيطة إلى تجارة المسافات الطويلة، وكانوا منظمين ويمتلكون دافعية عالية. وعرفوا بأنهم أكفأ الحمّالين في شرق إفريقيا كلها؛ ذلك أنهم كانوا يضعون الأحمال فوق رؤوسهم وليس على أكتافهم، كما يفعل الحمّالون من الساحل. واعتادوا التنقل في غالب الأمر بصحبة نسائهم وأطفالهم الذين يحملون الأشياء الصغيرة خفيفة الوزن، كأدوات الطهي، التي كانوا يستخدمونها أثناء رحلاتهم لإعداد الطعام، فخلقوا بهذه الطريقة قرية متحركة توفّر لهم ظروفا معيشية تتسم بنوع من الراحة في أثناء تلك الرحلات.

في المقابل يتلقّى الحمّالون أجوراً نظير عملهم، وكانت هذه الأجور يُتفق عليها قبل بدء العمل مع زعيم القافلة. ويدفع الجزء الأول من الأجور مقدما قبل انطلاق الرحلة، بينما يتلقى الحمالون المتبقي منها فور انتهاء الرحلة، وذلك لضمان عدم فرار الحمالين وتركهم البضائع على الطريق. وبعد أن يجمع الحمّالون مبلغاً جيّداً فإنهم عادة ما ينفقونه في دفع مهور الزواج أو شراء العبيد. وترتب على زيادة عدد القوافل التي تعبر أونيامويزي، زيادة الطلب على المنتجات الزراعية. وعليه تزايدت الحاجة للرقيق لمساعدة النساء في زراعة الحقول عندما يكون رجال النياميزي مستخدمين في القوافل.

لقد صوّر الأوروبيون في القرن التاسع عشر الميلادي تجارة العاج في شرق إفريقيا أنها قائمة على استغلال العبيد الحمّالين، وهناك الكثير من الرسومات في كتب

المستكشفين الأوروبيين تظهر العبيد الإفريقيين مكبلين بالسلاسل وحاملين للعاج. ولم تكن هذه هي الحقيقة في الواقع، لأن حمل قرون العاج الثقيلة جداً لمسافة طويلة من مناطق في البرّ الإفريقي إلى الساحل كان بحاجة إلى حمالين مهرة، ومنظمين، وأقوياء، وفوق ذلك كلّه يجب أن يتمتعوا بالدافعيّة. إلا أن العبيد لم يمتلكوا الدافعيّة قط، كما أنهم لا يمتلكون المهارة، وليس لديهم القدرة على تجشّم عناء هذا الطريق الطويل. لقد كان العبيد يسيرون مع القوافل، لكنهم لم يستخدموا بشكل أساسي كحمالين.

وقد كان ذلك كله جزءاً من الدعاية الأوروبية المعادية التي تصوّر العرب وتتهمهم بالاستمرار في المتاجرة بالعبيد حتى بعد أن منع الأوروبيون ذلك وتخلوا عنه. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كان غرض هذه الدعاية المعادية تبرير بقاء الاستعمار وضرورته لوقف تجارة الرقيق.



مستوطنة عربية في أوجيجي عام 1899م.

أوروبا تكتشف مسارات الأنهار

أسس مجموعة من كبار المسؤولين من أفراد الطبقة العليا في لندن، في عام 1788م، اتحادا صغيرا تحت مسمى "جمعية تعزيز اكتشاف المناطق الداخلية في إفريقيا"، وكانت تُعرف في تلك الأيام بالرابطة الإفريقية. لقد أَسِف أعضاء هذه الرابطة على ما اعتبروه فشلا ذريعا، في أن جغرافية إفريقيا ظلت مجهولة تماما على الخرائط الأوروية في الوقت الذي جاب فيه البحارة العالم أجمع. وقد وجد أعضاء الرابطة الذين يتمتعون بالثراء أنهم ملزمون بدفع مساهمة مالية سنويّة محدّدة لتسيير حملات مدفوعة الأجر من إنجلترا إلى إفريقيا، وذلك لمعالجة هذا الفشل، ومواجهة تجارة الرقيق في إفريقيا في الوقت نفسه.

ومع التنامي غير المحدود للتحول الصناعي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، تغيّر الوضع تماما، إذ لم تعد تقتصر دائرة المتحمّسين على فئة صغيرة، ولم تعد وحدها المهتمة بالقارة المجهولة، بل تطوّر الأمر وأصبحت كلّ دول أوروبا متلهفة للحصول على موارد إفريقيا وثرواتها.

تركّزت الاهتمامات الأوروبية في اكتشاف مسارات الأنهار في إفريقيا بما في ذلك نهر النيل، ونهر النيجر، ونهر زامبسي، ونهر الكونغو. ومع أن الهدف الذي جاءت من أجله هذه الحملات الاستكشافية كان بشكل عام، إما جغرافيا، أو تنصيريا، بقصد القضاء على تجارة الرقيق، إلا أن المطامع الاقتصادية كانت واضحة، حيث كان على هذه الحملات استكشاف قلب إفريقيا بحثاً عن الأنهار، التي توفر سبلاً سهلة لنقل الكثير من البضائع بالقوارب إلى الساحل الأطلسي أو البحر الأبيض المتوسط، ومن هناك فإن نقل هذه البضائع ثانية إلى الموانئ في أوروبا سيكون أسرع وأسهل. وفي حال نجاح تلك الحملات



حكم السلطان ماجد بن سعيد زنجبار خلال الفترة من 19 أكتوبر 1856م إلى 7 أكتوبر 1870م.

فإن الطريق المائي سيوفر فرصة مهمة لتجاوز طريق القوافل الحالي في شرق إفريقيا، وعليه يتم التخلص من الوسطاء، وضمان الوصول المباشر للموارد والثروات الثمينة كالعاج، والصمغ وهو مستخلص نباتي من أشجار الغابات الذي يستخدم بخوراً ولاصقاً، وفي الوصفات الطبية التقليدية.

وعكست هذه الحملات، إلى جانب الاهتمامات التجارية والاكتشافات الجغرافية، التنافس والتسابق بين القوى الأوروبية، لتهيئة الطريق تمهيدا لما عرف بـــ "التدافع الأوروبي على إفريقيا"، لاقتسام القارة الإفريقية بين الدول الأوروبية.

ولتحقيق هذا الهدف، أرسلت أكثر الدول الأوروبية تطلعاً واهتماما، مبعوثيها إلى زنجبار، لكونها مركزا تجاريا صاعدا وذلك من أجل متابعة التطوّرات والحفاظ على المصالح القومية في هذه البوّابة المهمة لغرب ووسط إفريقيا.

وبوفاة السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي، في عام 1865م على ظهر سفينته أثناء رحلته من مسقط إلى زنجبار، سنحت للبريطانيين فرصة لتقوية موقفهم داخل المحيط الهندي. وقد أسفر التدخل والتأثير البريطاني لإضعاف النفوذ العُماني في إفريقيا عن إعلان تقسيم الأراضي العُمانية إلى قسمين هما سلطنة زنجبار ويحكمها السلطان ماجد خلفا لوالده السيد سعيد، وسلطنة مسقط وعُمان، ويحكمها أخوه السلطان ثويني المقيم في مسقط.



لا يزال الحي الحكومي الذي بناه السلطان ماجد في دار السلام قائما حتى الآن.

وإدراكاً من السلطان ماجد أن مصدر ثروته ومملكته تقع في البرّ الإفريقي، فقد حرص على نقل مقر حكمه من الجزيرة إلى الساحل القريب للبر الإفريقي. ففي بداية عام 1862م عمل على تحويل قرية مسيسيما، الواقعة في الجهة المقابلة تماما لزنجبار، إلى مدينة تضم حيا حكوميا (بوما) يشمل مباني حكومية، وقصرا، ومكتبا حكوميا، وكلها مرافق تستخدم للاجتماعات الرسمية وحفلات العشاء. وقد سمّى هذه المدينة دار السلام، لتكون كاسمها. وكان السلطان يقضي عدة أشهر من كل سنة في البرّ، حتى قبل جاهزية المدينة، وخاصة خلال شهر رمضان المبارك، بشكل يعكس مدى اهتمامه بهذا المشروع. ولم يمض وقت طويل حتى انتقل جميع رجال الطبقة العليا ممن تتصل أعمالهم بالديوان السلطاني إلى العاصمة الجديدة مثل الشخصيات المهمة في المجتمع من العُمانيين من أهم المدن على الساحل، والقناصل من غير التجار، والأوروبيين، وكذلك كثير من الممولين والمصرفيين الهنود.

واستمر حكم السلطان ماجد على نفس النسق المنفتح اتجاه الثقافات الأخرى، وهو ذات النهج الذي تميز به والده. كما حافظ على إرث التسامح الديني الذي خلفه السيد سعيد، ووصفه الدبلوماسي الأمريكي إدموند روبرتس عام 1833م على النحو الآتي:

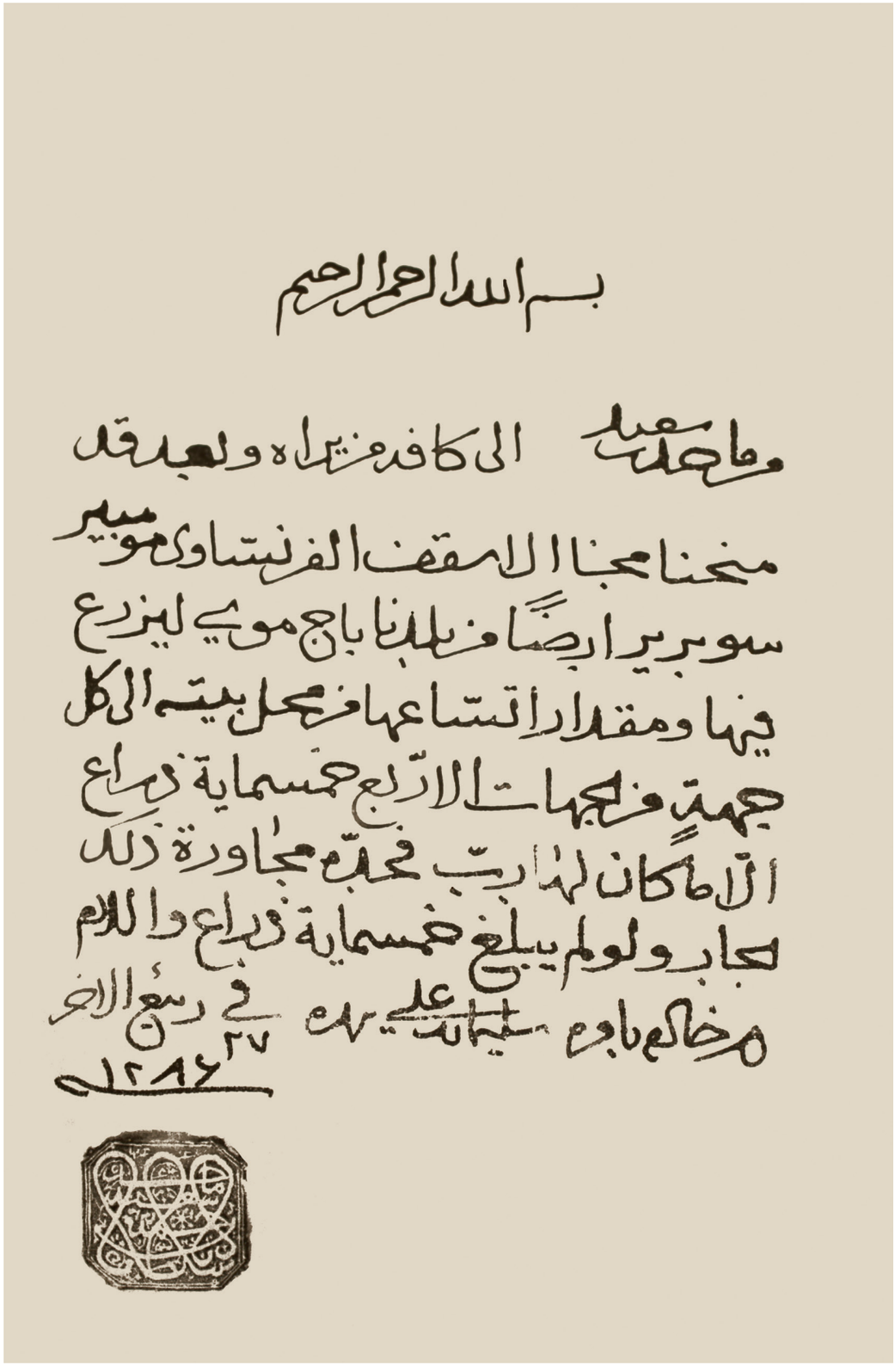
"لم تكن جميع الأديان في ممالك السلطان متسامحة بشكل كامل، لكنها حظيت بحمايته، ولم يكن هنالك ما يمنع بأي شكل من الأشكال ممارسة المسيحيين أو اليهود، أو الوثنيين لشعائرهم وطقوسهم الدينية المختلفة، ولا من يعترض بناء معابدهم"[2].



د. جوهان لودوج كرابف

وكان السلطان سعيد قد شجّع أيضا أعمال المنصّر الألماني واللغوي د. جوهان لودوج كرابف، الذي بعثته إلى شرق إفريقيا جمعية كنيسة المنصّرين البريطانية في عام 1844م. ولم يكتفِ كرابف بتأليف أول كتاب نحو ومعجم للغة السواحيلية، بل ترجم إليها كذلك كتاب جينيس وأجزاء من الإنجيل.

إن روح التسامح الديني، والتفاهم، والتعايش السلمي، واستقرار المجتمع الأوروبي في الجزيرة، جعل زنجبار نقطة انطلاق مناسبة للمنصرين للدخول إلى شرق إفريقيا، وقد تمتع هؤلاء على الدوام بدعم من السلطان ومعاونيه في تنفيذ أعمالهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

وما حدث بعد الى كافة نيراه ولعبد قد
منحنا مجانا الاسقف الفرنساوي موسيير
سوبريرا ايضا فى بلدنا باجموي ليزرع
فيها ومقدار اتساعها فى محل بيته الى كل
جهة فى الجهات الاربع خمسماية ذراع
الا اذا كان لها باب فحدّه مجاورة ذلك
الباب ولو لم يبلغ خمسماية ذراع واللام
وخاتم بابه عليه السلام على يده
فى ربيع الاخر
٢٧
١٢٨٦

يوثق هذا المستند، الذي يظهر عليه ختم السلطان ماجد، تمديد الأرض القريبة من بجامويو، التي منحها للمنصريّن الفرنسيين.



يسار

البعثة الأولى في باجامويو، التي أسّسها "آباء الروح القدس" لا تزال تمارس عملها إلى اليوم.

منح السلطان ماجد في عام 1868م المنصرين الفرنسيين قطعة أرض شاسعة على الساحل في جنوب بجامويو، لبناء مقر لأول بعثة في شرق إفريقيا، وحظيت تلك البعثة بالحماية المباشرة للسلطان.

واحتراماً لأتباع الديانة الهندوسيّة، وتقديرا لهم، منع السلطان ماجد ذبح الأبقار في مدينة ستون تاون، وهذا مثال آخر لتسامحه الديني وتعزيزه للتعايش في زنجبار.

وكان من أكبر المستفيدين من هذا الانفتاح، المنصر والمستكشف البريطاني الدكتور ديفيد ليفينجستون، الذي وصل زنجبار عام 1866م، وذاع صيته في الغرب بسبب بروزه في اكتشاف وسط إفريقيا. وقد يكون ليفينجستون في حقيقة الأمر، أول أوروبي يعبر شمال وسط إفريقيا، ويرسم خارطة نهر زمبابوي، إذ إن التجار العُمانيين وقبل ذلك بسنوات عديدة، قد عبروا في عام 1853 و1854م القارة من زنجبار إلى بنغويلا، الواقعة في الجهة الأخرى من القارة على الساحل الشرقي لأنجولا. كما عبر قبل ذلك، في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، التجار المحليون من أنجولا إلى موزمبيق، وتوغل كذلك البرتغاليون إلى وسط إفريقيا قدوما من الساحل الشرقي والغربي. لكنّ جميع هذه الإنجازات تجاهلتها الكتابات التاريخية الغربية.

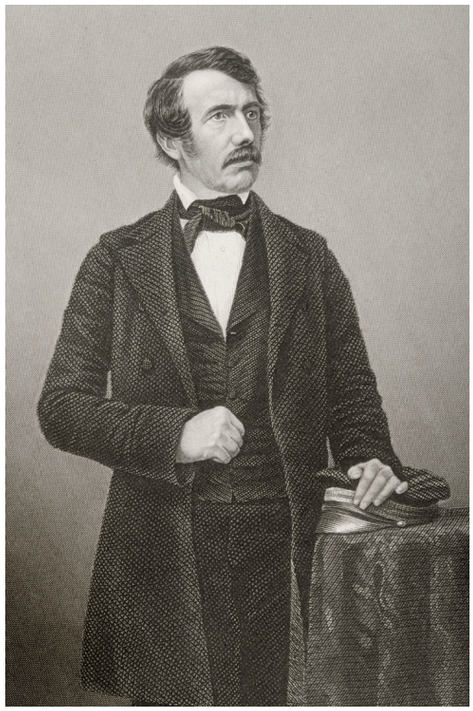
ملتقى الطرق في حياة
ليفنجستون وستانلي وتيبو تيب

اعتمدت "الاكتشافات" والتحليلات والاستنتاجات التي تحققت وكتب عنها حول العالم، بشكل عام، على الملحوظات والكتابات التي دونها وتركها معظم المستكشفين الأوروبيين، ونقلا عما شاهدوه وعايشوه. إلا أن أغلب المشاهدات فُسّرت بشكل خاطئ نتيجة قلة المعرفة بالخلفيات الثقافية العميقة وعدم الإلمام باللغات. كما أن كثيراً من المستكشفين يميلون عادة لتصوير مغامراتهم بشكل يعكس شجاعتهم وذكاءهم. والواقع أنهم، وعلى الرغم من ذلك، لم يروا سوى لمحة صغيرة من ذلك العالم، ومن ثقافته وشعوبه.

ومع ذلك فإن تقاريرهم انتشرت على نطاق واسع، مشكّلة صورة مشوهة عن ذلك العالم، وشعوبه، وتم تداولها على أنها حقائق، وأثّرت على المتلقين، ليس فقط من العامة ولكن حتى على متخذي القرار السياسي، والطبقة العليا في المجتمعات، ولا تزال تؤثر على المتلقين حتى الآن على مختلف الأصعدة.

وبالنظر تحديدا إلى شرق إفريقيا ووسطها، فإن الصورة أكثر تباينا واختلافا، ذلك أن أكثر ثلاثة مستكشفين دراية بهذا الجزء من العالم هم الأسكتلندي د. ديفيد ليفينجستون، والأمريكي من أصول إنجليزية هنري مورتون ستانلي، والعُماني حمد بن محمد بن جمعة بن رجب المرجبي، المعروف بـ تيبو تيب. وقد نشط هؤلاء الثلاثة في هذه المنطقة في نفس الحقبة الزمنية، وحدثت بينهم مواجهات مصيرية، ووثق كلّ واحد منهم وجهة نظره تجاه ما عايشه من أحداث، وتركوا آراء ومعلومات فريدة حول شرق إفريقيا في فترة ما قبل الاستعمار وبداياته في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وبالتالي قدّم هؤلاء ثلاث وجهات نظر مختلفة من منظورات غربية وعربية.





من اليمين لليسار:
الدكتور ديفيد ليفينجستون، وتيبو تيب، وهنري مورتون ستانلي.

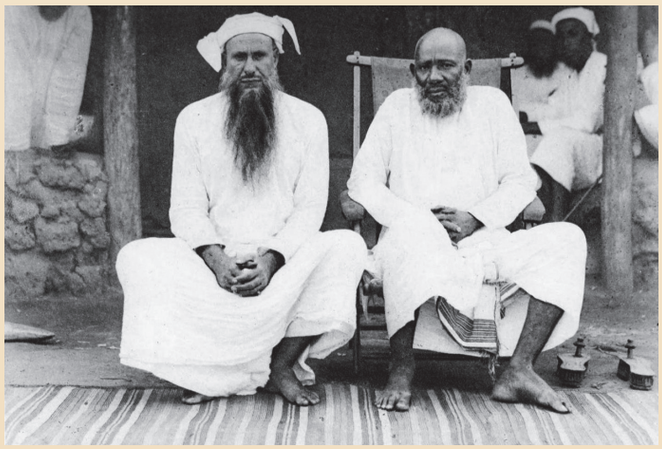
وعمل هينرش برود، اللغوي الألماني وممثل الحكومة الاستعمارية الألمانية في زنجبار، على إقناع تيبو تيب بعد اعتزاله العمل التجاري وفي أثناء قضائه لسنواته الأخيرة في زنجبار أن يكتب مذكراته عن حياته المليئة بالأحداث. ويعد كتاب (حياتي) "Maisha"، أول سيرة ذاتية باللغة السواحيلية، وكتبت باستخدام الحروف العربيّة. وأعاد برود كتابتها بالأحرف الرومانية، ونشرها بعد أن ترجمها إلى اللغة الألمانية. وهي وثيقة وإرث مهم جدا، كان يصعب بدونها معرفة التحديات والمخاطر والأساليب التي واجهتها تجارة القوافل الإفريقية. وقد كان كتاب هينريش برود: "سيرة تيبو تيب في زنجبار وإفريقيا الوسطى" مبنياً على لقاءاته ومعرفته الشخصية بتيبو تيب، وسيرته، فضلا عن استناده إلى مصادر أخرى مثل تقارير مورتون ستانلي.

يواخيم بولس

أعظم تجار العاج على مرّ العصور

اكتسب حمد بن محمد المرجبي شهرة واسعة خلال حياته، فقد كان يعرف بـ تيبو تيب، وكان أنجح قادة القوافل التجارية في القرن التاسع عشر الميلادي على الإطلاق. لكنّه كان أكثر بكثير من مجرد تاجر عادي. كان تيبو تيب قائدا حربياً مهاباً وصديقاً مقرباً للسلطان.

كما كان سيد قومه، وأحد زعماء القبائل الإفريقية وحاكما لدولة الكونغو الحرّة. وأصبح في آخر حياته أحد أغنى رجالات زنجبار، وأكثرهم تقديرا.



تيبو تيب وصديقه بوانا نزيجي (1889م)

وقد أطلق عليه المنصّرون والمستكشفون الأوروبيون لقب "ملك إفريقيا غير المتوّج"، وكانوا غالبا ما يستعينون به ويطلبون مساعدته وحمايته أثناء رحلاتهم. وبعد سقوط سلطنة زنجبار في عام 1964م، وتعرض العُمانيين للاضطهاد والطرد من هناك، تغيّرت النظرة التاريخية للوجود العربي والعُماني وما ارتبط به من إنجازات وشخصيات. واعتمد الحكام الجدد لجزيرة زنجبار في تغيير صورة الوجود العربي والعُماني، وتبرير أعمالهم وتصرفاتهم على نشر الأكاذيب والشائعات والدعايا المعادية للعرب، تماماً كما حدث سابقاً لتلميع صورة القوى الاستعمارية.

ولم يتردد هؤلاء عندما زعموا أنّ الثقافة السواحيليّة لا تضم سوى الأفارقة، في حين أن حقيقة هذه الثقافة تألفت من انصهار التأثيرات الإفريقية والعُمانية والهندية وامتزاجها، عبر مئات السنين.

وفجأة أصبح اسم تيبو تيب لعنة، من وجهة نظر إفريقية، لأنه مرادف لكل ما هو مستهجن ومرتبط بالهيمنة العُمانية. لقد انقلبت شهرته إلى سمعة سيئة ووصمة عار.

ولكن يجري الآن إعادة تقييم هذه الصورة النمطية والاعتراف بالجوانب الإيجابيّة للتأثير العُماني على شرق إفريقيا من قبل مؤرخين وباحثين حول العالم. وستقودنا هذه الجهود إلى نظرة جديدة ومنصفة لمرحلة القوافل العظمى، ومن المحتمل جداً الاعتراف بالتأثير الكبير وتسمية تيبو تيب أو إحدى الشخصيات من أصول عُمانية كأعظم أبناء زنجبار.

لقد كُتب عن التيبو تيب الكثير من المؤلفات مقارنة بأي شخصيّة معاصرة له، كما أسهم تيبو تيب نفسه، في انتشار شهرته بما كتبه عن سيرة حياته في كتابه (حياتي) باللغة السواحيلية "Maisha". وتقدّم التقارير الكثيرة التي كتبها معاصروه ومرافقوه معلومات دقيقة عن حياته التي كانت مليئة بالحكايات والمغامرات.

وُلد حمد بن محمد المرجبي في زمن شهد اضطرابات سياسيّة واقتصاديّة عظيمة، حيث لم يكن الوصول إلى مكانة اجتماعية عليا أمرا سهلا، ولم يكن مقرونا فحسب بالأسرة والأصول التي ينتمي إليها المرء، بل أيضا بالثراء والنجاح الذي بإمكان الفرد تحقيقه. وكأنه كان مدفوعاً بقوّة وطاقة داخليّة عظيمة، فقد وجّه حياته برمتها، وكأن لا شيء يمكن أن يوقفه، نحو تحقيق النجاح الذي يتوق إليه ويصارع من أجله.

ومنذ رحلته الأولى في البرّ الإفريقي، تحدّى رغبة والده، وتولّى مسؤولية قيادة القافلة. وفي أرض لا تزال مجهولة إلى حد كبير يخشى تجار الساحل التوغل داخلها، اكتسب هذا الشاب خبراته الأولى في تجارة العاج. ومع أن قادة القوافل من ذوي الخبرة لم يأخذوه على محمل الجد ولم يحسبوا له حسابا، بل سخروا منه، إلا أنه وبعد مضي أشهر قليلة فقط، تفوّق عليهم واستطاع كسب أرباح وعوائد أكثر من أي شخص آخر في زنجبار بأكملها. ولم يكن المرجبي في حاجة إلى دراسة قوانين العرض والطلب من أحد، بل تعلمها بالممارسة.

كان الشغف الذي يحمله لتحقيق الإنجازات دما يجري في عروقه، وبنجاحه المبكّر أصبح سيّد نفسه، وتمكن من القيام بأيّ مشروع تجاري أراده تحت مسؤوليته الكاملة. وكان هذا إيذانا بسطوع نجمه وذيعان صيته. >

إن عصر القوافل العظيمة كان فترة عصيبة وخطيرة، فكان الموت يتربص بالقوافل كل يوم على طريق الأسفار الطويلة، وكان المسير الجبلي الذي يستغرق أشهرا مليئا بالحرمان، ولم يكن متعباً وشاقا فحسب، بل كان مصدر تهديد بالموت؛ فالمحاربون من الأعداء سيغيرون في أي لحظة، والأوبئة، والمجاعات، والأمراض الاستوائية، والحوادث هي الأخرى تؤدي أدوارها دون كلل. ولتضمن نجاتك في هذه القوافل يجب أن تكون قويّاً وجاهزاً للقتال بكل ما تملك وبكل ما أوتيت من قوة. كما أن النجاح في إيصال البضاعة بسلامة يعتمد على شجاعة وبسالة التاجر وسيطرته على الأوضاع في طرق التجارة.

أما تيبو تيب فكان من طراز جديد من التجار، كان ينتهز الفرص ويستغل الأوضاع السياسيّة لصالحه. ولم يكن يتجنب المواجهات، لكنه يختار من بينها تلك التي تكون نتائجها في صالحه على المدى الطويل. ويكفي التذكير بطريقة تعامله مع نساما، ملك البانتو، الذي كان مشهوراً بعنفه ووحشيته ودموية غاراته على قوافل التجارة. فعندما أدرك المرجبي فشل المفاوضات التجارية السلمية معه، حوّل استراتيجيته من التجارة إلى الحرب.


تيبو تيب في عام 1837م

ومع أن محاربي نساما كانوا يتفوقون في العدد كثيراً على رجال المرجبي، إلا أنهم لم يمتلكوا قط الخبرة في استخدام الأسلحة النارية. وعرف تيبو تيب الاستفادة من هذه الإيجابية فسلّح رجاله بالبنادق، وحققوا الانتصار على نساما. وفي أثناء المعركة أصيب المرجبي بعدة سهام تسببت في إصابته بجروح عديدة، لكنه واصل القتال إلى جانب رجاله، وكسب احترامهم وإخلاصهم، لأنه أظهر مخاطرته بحياته من أجلهم. وانتشرت أخبار انتصاره الساحق على نساما كالنار في الهشيم، وأصبح بذلك أسطورة حيّة؛ ومنذ ذلك الحين عُرف باسمه الجديد تيبو تيب.

صنعت غنائم المعارك من تيبو تيب رجلاً ثرياً، وانضم بذلك إلى النخبة من رجال زنجبار، واستفاد من تقدير السلطان، ومن ثقة الممولين الهنود. لكنه لم يكسب نجاحاته بسبب نسبه، أو زواجه أو ألقابه، بل كسبها بجده وسعيه، فقد أعاد المرجبي بناء نفسه وولد من جديد في شخصية تيبو تيب.

وفي عام 1887م كتب المنصّر الاسكتلندي ديفيد ليفينجستون في رسالة إلى جون كيرك، القنصل البريطاني في زنجبار، بعد أن أنقذه تيبو تيب ورجاله من الجوع والمرض: "التقيت بحميد بن محمد (تيبو تيب) .... وقد عاملني وإخوانه من الوجهاء بكل لطف... وبكل كرم أعطوني ملابس، ومالا، ومؤونة ...".

أدى حديث شخصية مشهورة، حظيت بالاحتفاء والتبجيل في إنجلترا مثل ليفينجستون، بالمدح والثناء عن المرجبي، إلى أن يصبح هذا الأخير معروفاً في كلّ أنحاء أوروبا. ومن هنا فإن المنصّرين ومكتشفي إفريقيا سيتوافدون عليه طلباً لحمايته لهم أثناء رحلاتهم. وقد ذكر هؤلاء المنصرون والمستكشفون في تقارير لهم، أنه - تيبو تيب - كان رجلا محباً للاستطلاع، وودودا، ومنصتاً، ولديه معرفة ودراية واسعتان. وبذلك يظهر جلياً أن تيبو تيب أحب مناقشة بعض الأمور والقضايا مع الأوروبيين وإن صَدَقَ ما يقولون، فإنه يكون بذلك رجلا قاسيا جداً، لكنّه يتمتع بالذكاء وسرعة البديهة.

وفي غضون سنوات قليلة نجح المرجبي في إقامة إمبراطورية ضخمة في قلب إفريقيا. وعَمِدَ، في كاسونجو على نهر لوالابا في أعالي الكونغو، على بناء مقر حصين لحكمه، وشرع في إظهار مهاراته في التنمية والبناء. وقد بنى في وسط الغابة مركز إدارة وتموين ودعم لوجستي لم يسبق أن عرفه سكان تلك المناطق، ومحكمة للفصل بين المتخاصمين. وأصبحت كاسونجو في عهده مركزاً تجاريّاً متطوراً، يرتبط عن طريق زنجبار بدول شتى حول العالم.

وقد وصف الطبيب الإنجليزي سيدني هيند مذهولا رفاه المدينة بقوله "لقد حصل أفراد قوتنا جميعهم على ملابس جديدة، حتى الجندي العادي نام على مراتب من الحرير والساتان، في أسرّة مزخرفة، وستائر من حرير تمنع دخول البعوض. وكانت غرفتي بطول ثماني عشرة قدما، وعرضها خمس عشرة قدما، ولها باب يقود إلى بستان به أشجار برتقال، ومن ورائه منظر على مد البصر يمتد لأكثر من خمسة أميال. هنا وجدنا كثيرا من مظاهر الرفاه الأوروبي، التي كنا قد نسينا حتى كيف نستخدمها كالشموع، والسكر، وأعواد الكبريت، والكؤوس الفضية والزجاجية، والأواني بكميات كبيرة".

أما اليوم، فإن كاسونجو، التي تبدو وكأنها مخبأة تحت مظلة عظيمة من أشجار المانجو المعمّرة، <

هي مجرد مدينة ريفية لا قيمة لها، وبعيدة جداً في الجانب الشرقي لدولة الكونغو الديموقراطية الشعبيّة، ومنقطعة الصلة عن تاريخها، وعن كونها كانت يوماً شريان الحياة في الشرق.

وقد يكون التوق إلى الأيام العظيمة الخوالي يجعل سكان كاسونجو اليوم ينظرون إلى حقبة السيادة العُمانية نظرة غير منتقدة، كما قد يعتقد البعض. وعلى العكس تماما، فإنهم يحبون تذكر أعمال التحسينات والتطوير التي أدخلها العُمانيون، والتقدم الكبير في الزراعة، لاسيما زراعة الأرز والمحاصيل الأخرى مثل أشجار المانجو، إلى جانب توفر الأحذية، والصابون، والأقمشة المريحة ذات الألوان الزاهية كالثوب المريكاني، فضلا عن تعريفهم وإدخالهم في الدين الجديد.

وعلى مشارف المدينة، وفي منزل صغير أبيض مسقوف بالصفيح، تتموضع جمعية أم تيبو تيب. ويشرح أرونا شاد، رئيس الجمعية، أن اسم تيبو تيب يمثّل تنظيم العمل في مجال المساعدة والعون الاجتماعي لاسيما في تعزيز حقوق الطفل والمرأة.

والمثير للدهشة أنك ستلاحظ من الوهلة الأولى في هذا المكان عمق الصلة بالتراث العُماني، الذي يمكن رؤيته والشعور به في كل زاوية في هذا المكان، وما يتعلق منه باسم تيبو تيب ورمزيته. إنه إحساس بالانتماء الثقافي الذي تزايد بمرور السنوات!

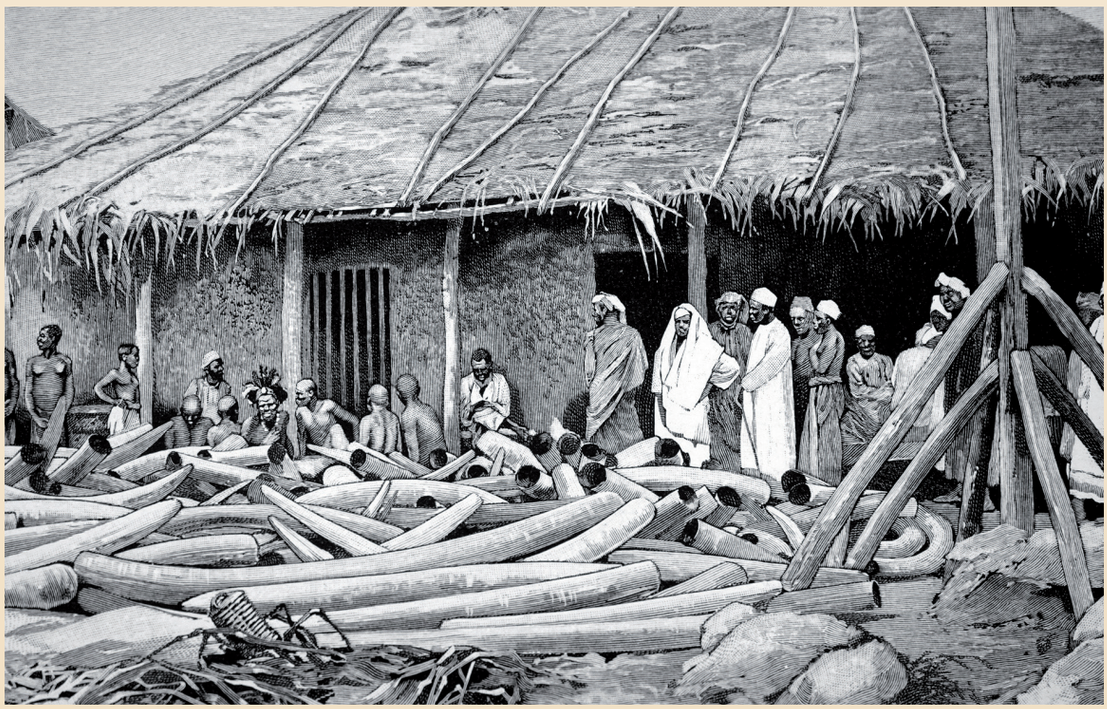
والكلمات التي نقلت إلينا عما قاله تيبو تيب عند مغادرته الكونغو للأبد في عام 1890م، عائداً إلى زنجبار تحمل شيئاً من الحزن:

"الرجل الأبيض أقوى منّي، سيأكلون ممتلكاتي، كما أكلت ممتلكات أولئك الوثنيين، أرى سحباً في السماء! والرعد قريب! إنّي أرحل".

لقد كان يمتلك منطقاً وواقعية عندما استشرف المستقبل وتنبأ بما سيحدث حين رأى أن الأوروبيين سيستخدمون تقدّمهم وتطور قوتهم العسكرية في تقسيم إفريقيا بين بعضهم البعض.

لقد عرف أن وقت رحيله قد حان، لكنه كان –وسيظل- شخصية استثنائية في تاريخ شرق إفريقيا، لأنه كان ابن زمانه، وعاش خلال حقبة صعبة ومتناقضة أيضا، فبقدر ما تميزت تلك الحقبة بالحرمان الشديد، كان يمكن فيها

أيضا تحقيق الكثير عندما تمتلك الشجاعة، والجرأة، والإقدام؛ وهي القيم التي اعتمد عليها التيبو تيب ليصنع نفسه بنفسه، ويحقق طموحه الأسمى ليصبح أعظم تاجر للعاج على مر العصور، كما كان يقول ويردد دائما.



لوحة تعريفية لمخيّم تيبو تيب في شلّالات ستانلي، في الكونغو، وتظهر في اللوحة كومة من العاج بانتظار تصديرها.

حملة إغاثة ديفيد ليفينجستون

في خريف عام 1865م وصل الدكتور ديفيد ليفنجستون إلى زنجبار بمساعدة الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، حيث كانت مهمته ظاهريا إزاحة الغموض عن مسارات نهر النيل، لكنه كان عازماً على فعل ما يمكنه فعله لإنهاء تجارة الرقيق في شرق إفريقيا.

وبعيد وصوله بفترة قصيرة، بدأ في سبر أغوار إفريقيا واستكشافها، فسافر ليفنجستون مع عدد صغير من الحمالين كي لا يجذب مخاوف زعماء القبائل والقرويين. وبتتبعه نهر روفوما باتجاه الداخل وصل إلى بحيرة مويرو، القريبة من بحيرة تنجانيقا، فعلق هناك ونفدت مؤونته، بسبب الحرب الدائرة بين التاجر العُماني تيبو تيب والملك نساما الثالث في تلك الفترة.

وكان تيبو تيب قد غادر تابورة بقافلة قوامها 2000 شخص في المناطق البعيدة التي يوجد بها عاج لا يزال يباع بأسعار مناسبة. وسافر تيبو تيب إلى أرض تدعى أورونجو يحكمها الملك نساما الثالث، الذي يخشاه التجار والكثير من القبائل ويكرهونه. وعُرف بالوحشيّة والمباغتة، مخالفا بذلك نصائح كثير من التجار الذين حاولوا منعه من فعل ذلك.

وكانت قوة نساما عائقا في طريق التجارة للجميع، فأراد تيبو تيب التخلّص منه لأنه يثق في قدرته وتفوقه وقوة رجاله، إلا أنه سعى في بداية الأمر إلى عقد اتفاق مع نساما، امتثالا لتوجيهات السلطان في زنجبار الذي كان يؤكد على التعامل السلمي مع السكان المحليين. وبعد أن فشلت المحادثات حول العاج، هجم محاربو نساما على تيبو تيب ورفاقه. وانتهت هذه المعركة لصالح تيبو تيب؛ فقد كان رجاله مدججين بالبنادق، التي لم تكن القبائل المحليّة قد عرفتها بعد.

وهذه هي المعركة التي اكتسب منها حمد بن محمد المرجبي لقبه تيبو تيب. وقد صرّح بنفسه أن الناس كانوا لم يعهدوا في تلك الأرجاء بعد أصوات البنادق وهي تطلق الرصاص، وعندما سمعوا بنادق المرجبي تصدر صوتاً هو "تيب تيب"، أطلقوا عيه لقب تيبو تيب. وقد ترتب على هذه المعركة أمران مهمان لصالح تيبو تيب، تمثل الأول في أنه استولى على كنوز ضخمة من العاج، وكان يباع بأسعار مرتفعة وقتها، وهو ما حقق له بدايات الثراء. أما الأمر الثاني فهو انتشار خبر هزيمته لنساما الذي لا يقهر، انتشار النار في الهشيم، في المقاطعات القريبة، وهذا يعني أن الجميع الآن يرغبون في التقرب إليه ويخطبون وده.



تنشب النزاعات بين القبائل بشكل مستمر.

وبعد هذا الحدث المهم، وجد رجال تيبو تيب المستكشف والقس ديفيد ليفنجستون، وقد أنهكه الجوع، قرب بحيرة مويرو، فأخذوه إلى المعسكر. وفي 29 يوليو من عام 1868م التقت الشخصيتان للمرة الأولى في بوندا، وهي قرية تبعد مسافة ثلاثة أيام عن بحيرة مويرو. يقول ليفنجستون في كراسة مذكراته أن تيبو تيب عامله عند لقائه معاملة لطيفة جدا، وقدّم له شاةً، وقطعة من

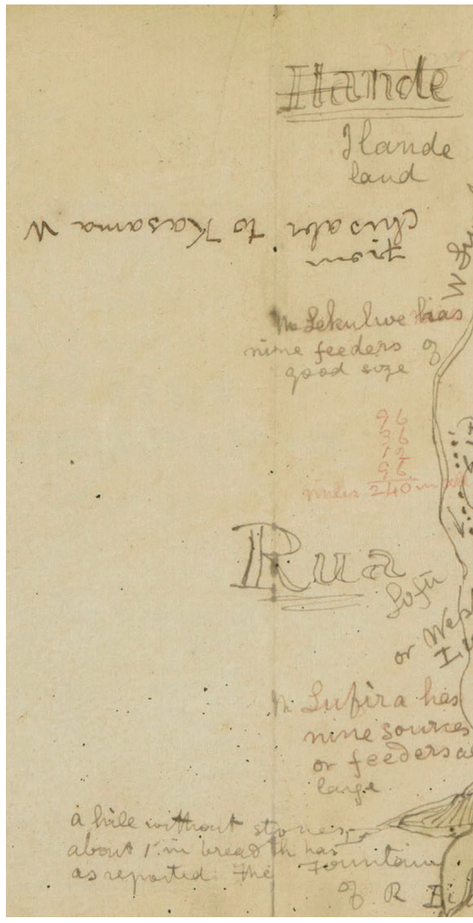


القطن الأبيض، وأربعة مكايل من الخرز، وشوالا من الذرة الجيدة، واعتذر إليه عن التقصير. وذكر ليفنجستون أن تيبو تيب أصيب في معركته ضد نساما بإصابتين.

واعتماداً على وصف تيبو تيب للفينجستون فإن الأخير وُجد معدما دون مؤونة، وأنه أُنقذ من موت محتمل. وجهّز تيبو تيب عدة صناديق تحمل بضائع ليفنجستون لتنقل على نفقته إلى أوجيجي في بحيرة تنجانيقا، وأرسل ليفنجستون رسالة إلى القنصل البريطاني جون كيرك، في زنجبار ذكر فيها تيبو تيب بإطراء كبير.

ملحوظات ديفيد ليفينجستون كتبها على خريطة رسمها جون سبيك، في "مجلة اكتشافات منبع نهر النيل" (أدنبره ولندن: وليام بلاكود، وأبناؤه، 1863م).

لم يزر ليفينجستون إطلاقاً معظم تلك الأماكن التي رسمها في هذه الخريطة، بل جمع معلومات عنها من خلال أحاديثه مع الرحالة العرب والأفارقة.



لقد استكشف ليفينجستون وتيبو تيب إفريقيا الوسطى، لكن نظرة الأوروبيين والعرب إلى العالم تختلفان تماما.

وعلى الرغم من أن الحوار المتخيّل التالي لم يحدث بالتفصيل على النحو المذكور، لكنّه كاف لإبراز وجهات نظرهم المختلفة، وقد يكون حوارا كهذا قد حدث بالفعل:

"تيبو تيب: أنتم الأوروبيون تثيرون استغرابي لأنكم تضعون حيواتكم في خطر لاكتشاف الجبال والأنهار والبحيرات. ما فائدة كل ذلك؟

ليفينجستون: إنها الطبيعة وغير المستكشف منها ما يثيرنا، ولأننا نريد أن نكتشف أماكن جديدة، وبلدانا ومناطق لم تقع عليها عين أحد من قبل!

تيبو تيب: إن أردت رأيي، سأقول لك، عزيزي ليفينجستون، إن الجبال والأنهار موجودة قبل أن تكتشفوها أنتم- وهناك أيضاً أناس رأوها قبلكم!"[3].

لقد ترتبت على مساعدة تيبو تيب وضيافته ومعاملته الودودة للفينجيستون تداعيات بعيدة المدى؛ فبسببها التمس جميع الرحالة والباحثين الأوروبيين في إفريقيا مساعدة تيبو تيب وحمايته أمثال فيرنيه لوفيت كاميرون (1874م)، وهنري مورتون ستانلي (1876م)، وجيروميه بيكر (1881م)، وهيرمن فون ويزمن (1882م)، وغيرهم الكثير. ومع أن هذا قد يكون جيّداً لتيبو تيب لكونه تاجرا، إلا أن تقارير ليفينجستون أثارت الكثير من الحماس لإفريقيا في أوروبا، نتج عنها في الأخير تأثيرات كبيرة وسلبية على إفريقيا.



هذه الرسمة التوضيحية وضعها ستانلي ونشرها في كتابه "كيف عثرت على ليفينجستون"، نقلت وعدّلت مرات كثيرة، لذلك كان لها دور كبير في زيادة شهرته.

وقد يشك المرء في أن الوضع لم يكن كما يبدو في الرسمة تماماً. فالعلم الأمريكي في الصورة قد يكون تقديراً للداعمين الماليين له.

والعبارة القرينة باللغة الإنجليزية للقائه الأول بليفينجستون: "أنت الدكتور ليفينجستون، أليس كذلك؟!"، نشرت لأول مرة في المقال الافتتاحي لصحيفة نيويورك هارولد، بتاريخ 10 أغسطس 1872م. ووجد المحرّر قصته الأبرز والسبق الصحفي الأهم-ومن هنا أصبحت هذه العبارة الترحيبية العادية مشهورة عالميّاً ومتداولة على نطاق واسع.

ومن بين الكثير من المغامرين الأوروبيين الذين تعاملوا مع تيبو تيب، كانت تبعات مساعدته لهنري مورتون ستانلي أكثرها أثراً.

لخّص آدم هوشيلد شخصيّة ستانلي في كتابه "شبح الملك ليوبولد":

"على عكس ليفينجستون غير المقاتل، والذي يعتمد نهج الأبوية، وكان يسافر مع عدد قليل من الحاشية من الأتباع المسلحين حتى لا يلفت الانتباه، كان ستانلي رجل المهمات الصعبة والقاسية. (...) وكان يسعى لأمر أكبر من أن تكون له شهرة عالمية كمستكشف. (...) ومع كل خطوة يخطوها في إفريقيا كان ستانلي ينسج قصته التي سيحكيها في دياره بعد عودته. وعلى نمط القرن العشرين، كان ستانلي ينقش تفاصيل شهرته بعناية فائقة"[4].

لقد كان سلوكه المتهوّر وأساليبه المخادعة وكتاباته تجلب له شهرة في الغرب، وتجعله في مقدمة قادة الجيوش الاستعمارية لإفريقيا وأشهرهم على الاطلاق.

تيبو تيب في الكونغو

وللتعرف من كثب على الشخصية التي ساعدت العديد من المغامرين الأوروبيين في محاولاتهم عبور التضاريس الوعرة للطرق المؤدية إلى وسط إفريقيا، فإنه ينبغي الاقتراب من أعمال تيبو تيب وسيرته. ففي عام 1869م، وفي طريق عودته من حملته الاستكشافية الثانية متوجها إلى الساحل، وصلته الأنباء بأن السلطان ماجد بدأ في بناء عاصمة جديدة لسلطنته في البرّ الإفريقي، وعلم أن العديد من الشخصيات المهمة استوطنت هناك منذ عدة سنوات. وعليه فقد قرر عدم التوجه إلى بجامويو والذهاب بدلا من ذلك إلى المكان الجديد المعروف بدار السلام.

وقد كتب د. هينرتش برود، الدبلوماسي الألماني الذي أقنع تيبو تيب بكتابة مذكراته، تقريراً عن وصول قافلة تيبو تيب في يناير 1869م، قائلا:

"...وعمت بوصول القافلة فرحة عارمة؛ فبرؤية الغنيمة العظيمة من العاج شعر الدائنون الهنود لتيوتيب أنهم حتما سيستردون نقودهم التي أقرضوه إياها بفوائد كبيرة. وإلى جانب ذلك، أثارت القافلة اهتماما واسعا من جميع الأوساط؛ ذلك أنها أول قافلة تصل من البرّ إلى العاصمة الجديدة. بل إن السلطان نفسه أبدى اهتماماً بالمغامرين الشجعان، الذين حظوا باحتفاء وتكريم من لدنه، وأصبحوا ضيوفا عنده حتى يوم عيد الفطر المبارك"[5].

كان الوصول إلى دار السلام لحظة عظيمة في حياة تيبو تيب إذ لم يجاوز عمره حينها 32 عاما. وقد شهد تلك اللحظة السلطان الذي كان موجودا في المدينة حينها، ومعه أفراد ديوانه جميعاً، وكذلك معظم مبعوثي الدول الأجنبية بما فيها إنجلترا وألمانيا. لقد منحت العودة الناجحة لتيبو تيب من حملته التجارية مكانة اجتماعية عظيمة.

وبعد حصوله على أرباح كبيرة، فإنه من الواجب عليه كمسلم دفع زكاة ماله وإخراج الصدقات للمجتمع تعبيرا عن شكره لله على نصره على نساما؛ لذا تبرّع تيبو تيب بمبلغ مالي لبناء مسجد في دار السلام سمّي بمسجد جابر بن زيد، مؤسس المذهب الإباضي المنتشر في عُمان.

لقد صنعت البضاعة الكبيرة التي عاد بها ثراءه وشهرته، وتركت انطباعا على أنه شريك جدير يمكن الاعتماد عليه في التجارة. لذلك، تمكّن من اقتراض مبلغ ضخم لشراء بضاعة يمكن مقايضتها بالعاج في حملته الاستكشافية القادمة، التي انطلقت من زنجبار في مطلع عام 1870م، واستغرقت اثني عشر عاماً.

قرّر تيبو تيب الآن التركيز على تجارة العاج مع المناطق الواقعة في أعالي الكونجو، إذ إنه وبعد سنوات من الصيد الجائر للأفيال، أصبح العاج شحيحاً في شرق بحيرة تنجانيقا، وارتفع سعره نتيجة الإقبال الكبير عليه، ولكن ما زالت هناك في غرب بحيرة تانجنيقا، بين نهري لوالبا ولومامي، الكثير من الأفيال. وقد أقيم مركز تجاري عُماني في نيانجوي، وهي منطقة واسعة جداً، وكثيفة الغابات، ومن الصعوبة سبر أغوارها، ويسكنها أفارقة وهم أكثر ضراوةً من أولئك الذين يقطنون في الجانب الشرقي من البحيرة.





أعلى
نقش في أعلى الباب الرئيس للمسجد، وعليه اسم باني المسجد.

يسار
مسجد جابر بن زيد الذي أعيد تجديده وتوسعته بشكل مستمر بمرور الأعوام، ليصبح اليوم أحد أكبر المساجد في المدينة.

ولضمان سيطرته على المنطقة، كان على تيبو تيب فرض نفوذه، مما يعني الحرب في بعض الأحيان، والتفاوض مع الزعماء والقبائل في أحيان أخرى. وللذين اختاروا دفع الجزية فإن جيشه المسلّح لن يألوا جهدا لمساعدتهم متى طلبوا ذلك لإخماد أي صراع، وضمان استتباب الأمن. وقد خلقت هذه السياسة مستوى من الاستقرار والأمان لممارسة التجارة، واستفاد منها الجميع، فضلا عن أنها ساهمت في تعزيز سمعته في أوساط المجتمعات العربيّة والإفريقيّة.

كما استخدم تيبو تيب استراتيجيات مختلفة للحفاظ على تأثيره في مملكة أوتيتيرا الواقعة في أعالي الكونغو. فقد حرر تيبو تيب المئات من العبيد الذين وقعوا في الرق وأُخذوا من أوتيتيرا، وأعادهم إلى ديارهم. وبعد أن عرف حاكم أوتيتيرا المسن ما حكاه تيبو تيب له عن صلة القرابة التي تجمعه به، تخلّى عن الحكم، وأعلن تيبو تيب خليفة له.

د. هنريتش برود

سلطان أوتيتيرا الجديد

وبعد أن استراح المسافرون في المكان المخصص لهم في أرض المخيّم، زارهم أحد أقارب سلطان كاسونجو، واسمه ريبوي، وقد اندهش تيبو تيب من بنيته الجسمانية الضخمة.

ونظرا لعلم تيبو تيب بصلة قرابة هذا الرجل بالسلطان، فقد اختلق له سلسلة من الأكاذيب التي تزعم الروابط الأسرية التي تجمع تيبو تيب بالسلطان أيضا، وقصّ عليه بشكل مؤثر، كيف جرت الأعوام والسنوات ولو لم تقصّر همته الحروب ولا المشاغل لسارع بالسفر لرؤية أقاربه من جهة أمه التي يحبها كثيرا.

واقتنع ريبوي، المتأثر والمأخوذ بالمعرفة الواسعة لهذا الشخص الغريب. ولأنه تأثّر كثيراً بهذا الإثبات وبعثوره على قريبه هذا سارع بإهداءه 300 شاة و20 قرناً من قرون الأفيال، وأخبر السلطان الذي كان يعيش في منطقة بعيدة جدا بهذا الخبر السار.

وتأثّر كاسونجو بالقدر نفسه، وأرسل مباشرة مبعوثين لجلب تيبو تيب الذي وافق دون إلحاح على الذهاب إلى العاصمة التي كانت متوسطة المساحة، وكانت يقطنها كاسونجو وزوجاته فقط، لكنّها محاطة بمدن أكبر.

وكان كاسونجو، الذي يسيطر على أحد الطرق المهمة بين لومامي وسانكورو، شيخا كبيرا، وله عادات غريبة. كما أنه لا يرى أحدا يمتلك مكانة اجتماعية مساوية له من المخلوقات سوى الشمس والفيل اللذين يعدّهما سلطانين مثله تماما.

وقد عبّر عن احترامه للشمس بعدم النظر إليها عند الغروب ولا عند الشروق، ذلك أنه من غير اللائق أن تنظر إلى أخيك الملكي وهو يقضي حاجته. أمّا ما أبرزه من تقدير لإخوانه الأفيال فتمثل في عدم أكل لحومها ولا لمس قرونها.

وإن صدّقنا ما قاله تيبو تيب فإن كاسونجو أعلن تنازله عن جميع سلطاته على البلاد لصالحه، في صباح اليوم التالي لوصوله. ومع غرابة هذا الأمر تماماً، لكنه يبدو أنه الحقيقة كما أثبتها مغامرنا بحيلته، وصار بناء عليها حاكماً لهذه البلاد.

وقد بدا الأمر غريبا جدا للسكان البسطاء من قبيلة الشنسي، الذين –حتى ذلك الوقت- نادرا ما يلتقون بالقبائل المتمدنة، فكيف يمكن لغريب قادم من مكان بعيد، وعند وصوله مباشرة أن يكون على معرفة تامة بجميع من له صله قرابة بعائلة السلطان. إلا أن ما جعل تيبو تيب في موقف جيد للغاية هي السانحة التي استغلها في مكاهوجا واستطاع فيها تحرير المئات من السجناء من شعب الواتيتيرا. فقد أعادهم إلى جدّه المزعوم كهدية، مما مكّنه من التعبير عن مشاعره العائلية بطريقة مبتكرة، تقضي على أيّ شك في آصرته الدموية. وبذلك أصبح سلطاناً على أوتيتيرا[6].



تيبو تيب



قرر تيبو تيب، سلطان أوتيتيرا الجديد، تأسيس مقرّ حكمه الرئيس للكونغو في المكان التي سكنه السلطان السابق ويحمل اسمه (كاسونجو). ومنذ منتصف عام 1872م إلى أواخر 1874م حوّلها تيبو تيب إلى مركز تجاري ومحطة استراحة للقوافل. فأصبحت مدينة كاسونجو مدينة عظيمة تدهش العابرين الأوروبيين، حيث أنشئت عليها بيوت حديثة مبنية بالطوب، ومزارع واسعة على طول الحقول الخصيبة في ضفة النهر. فكان هذا، بالنسبة للسكان المحليين، انتقالا لشكل جديد من الحياة، يدخل فيه المعمار بالطوب، واستخدام أساليب جديدة في الزراعة واللباس مثل لبس الحذاء.

وباختياره كاسونجو عاصمة له، بدلا عن نيانجوي، فإن تيبو تيب صار محاطاً بقبائل سخيّة مضيافة، ضمنت له العون وبعض الحماية. كما أن موقعها الذي يقع بالقرب من ضفتي نهر لوالبا خلق مسارا للنقل والتواصل مع البرّ عبر النهر.

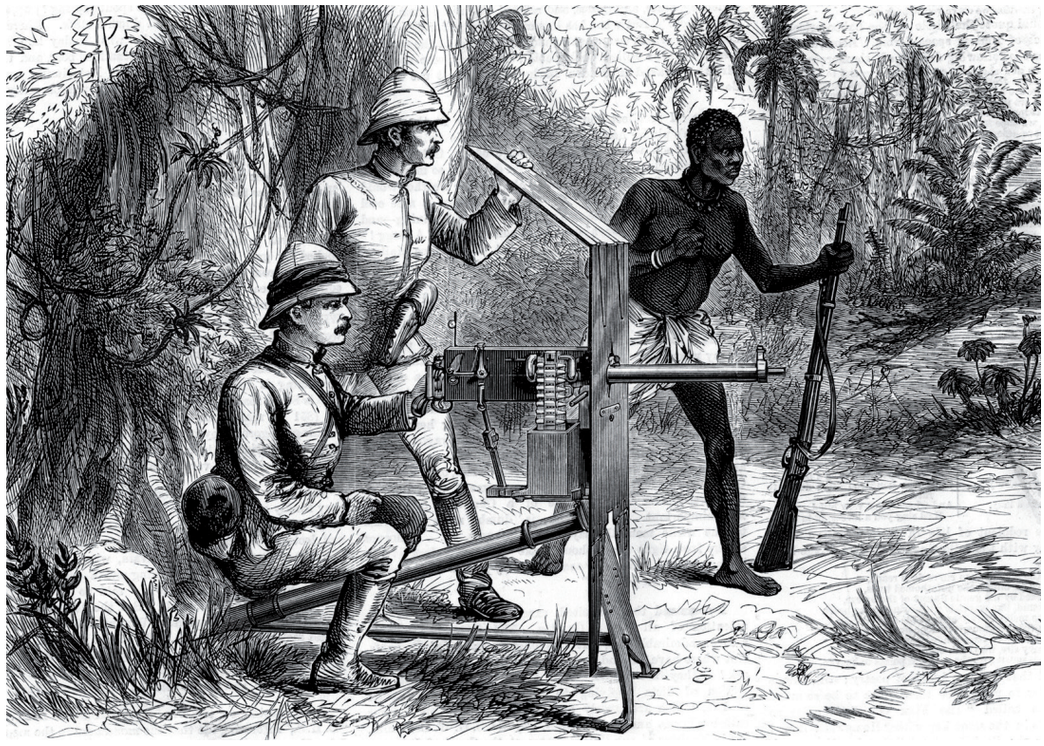
إن الجانب الأهم في خطة تيبو تيب هو التمكّن من توفير الطعام للعدد الضخم من الحمّالين، وكان الاقتصاد الزراعي وخاصة زراعة الأرز مفاتيح النمو في المدينة، التي يبلغ عدد سكّانها أكثر من عشرين ألف نسمة.

وكان الأرز هو الوجبة الرئيسة للتجّار وقوافلهم، وقد سهّل حصد غلّة هذا المحصول بشكل واسع في وسط إفريقيا وعلى ضفة بحيرة تنجانيقا وفي أعالي الكونغو، الحياة بشكل أكبر. فلم تعد هناك حاجة تدعو لاستيراد الأرز من الهند وحمله لمسافات طويلة إلى البرّ. وأصبح الأرز محصولا محليا، ولم يكن عرضة للفساد بسبب التخزين والنقل. لقد وفّر الأرز الطعام في المنطقة بشكل غير معهود من قبل، ولكثرة مزارع الأرز وامتدادها كانت كاسونجو تسمّى أحيانا بالبنغال الجديدة.



لايزال الطوب الطيني يصنع حتى اليوم في كاسونجو بنفس الطريقة القديمة.

وبمقدم التجّار العُمانيين، دخل دين جديد إلى هذه المنطقة؛ هو الإسلام، ومعه دخلت النظافة العالية، مما قلّل انتشار الأمراض، مثل الإسهال والكوليرا والملاريا. كما دخلت اللغة السواحيلية وأصبحت لغة تجارية محكيّة ولا تزال كذلك إلى اليوم في منطقة الكونغو- وجميع مناطق شرق إفريقيا ووسطها. واليوم، يتحدث بالسواحيلية ما يقارب 150 مليون نسمة في إفريقيا، حيث أصبحت بمرور الزمن لغة التفاهم الرسمية السائدة في جميع أنحاء القارّة الإفريقية.



رسمة لهنري مورتون ستانلي يستعرض البندقية الآلية المعروفة بالرشاش.

لقيت رسومات ستانلي وقصصه رواجاً وانتشاراً عالمياً في الصحف وعبر الاقتناء الكبير لكتبه.

مجازفة مشتركة وعواقب بعيدة المدى

بعد وفاة الدكتور ديفيد ليفينجستون في عام 1873م، وإدراكاً من ستانلي لأهمية الحملات الاستكشافية وجاذبيتها، قرّر تتبع خطى ليفينجستون. وكانت شخصيّة ستانلي مختلفة تماماً عن شخصيّة ليفينجستون، إذ إن شعوره بعدم الاستقرار في حياته أعوزه للحصول على المكانة الاجتماعية، التي ستتحقق له في حال تمكن من النجاح في مهمة رسم خرائط للبرّ الإفريقي. وعلى الرغم من توفر الكثير من المعلومات عن جغرافية وسط إفريقيا، إلا أن الكثير من الحقائق التي تعرضها الخرائط ظلت غير واضحة، مثل مسار نهري النيل والكونغو، وكذلك الطرق المختلفة الواصلة بين البحيرات الكثيرة في المنطقة.

وبتاريخ 12 نوفمبر، عام 1874م غادرت قافلة ستانلي زنجبار، وإلى جانب المؤونة واحتياجات الحملة المعتادة، كان على الحمالين نقل الأجزاء المفكّكة للقارب المسمّى "السيدة أليس"، الذي أراد ستانلي أن يحمله إلى نهر الكونغو متى ما كان ذلك ممكنا. وبعد الطواف حول بحيرة فكتوريا، تابع مسيره نحو بحيرة تانجنيقا. وفي الطريق نشبت

بينه وبين بعض القبائل اشتباكات ومناوشات. وكانت رغبته في استخدام القوّة المفرطة واضحا وقد وصل الأمر لتلقيه انتقادات من قبل المجتمع البريطاني.

وبعد أن أثبت عدم وجود مسار يربط بين هاتين البحيرتين الكبيرتين -فكتوريا وتانجنيقا- ونهر النيل، كانت المهمة التالية لستانلي هي دحض نظرية ليفينجستون القائلة إن نهر لوالابا هو مصدر النيل، لأنه كان يعتقد أن هذا النهر هو المصدر الرئيس لنهر الكونغو. وكان يعرف جيّدا في قرارة نفسه أن دخول منطقة صعبة كهذه سيحتاج فيها إلى مساعدة من رجل قوي وله مكانته في المناطق الواقعة في أعالي الكونغو، وهو سلطان أوتيتيرا.

ويصف تيبو تيب في مذكّراته لقاءه الأول بستانلي على النحو الآتي:

"وفي نهاية شهر آخر ظهر ستانلي عصر أحد الأيام. أمرت بالترحيب به، وأنزلناه في أحد المنازل. وفي صباح اليوم التالي، ذهبنا لرؤيته فأخرج إلينا بندقية وقال: من هذه البندقية تستطيع إطلاق خمس عشرة رصاصة دفعة واحدة. لم نعهد حينها بندقية تطلق خمس عشرة رصاصة ولم نسمع بمثلها أو نرها. سألته: من ماسورة واحدة؟ قال: تخرج من ماسورة واحدة. ثم قلت له: أطلق أمامنا لنرى ذلك. لكنه قال: أنا مستعد لدفع عشرين أو ثلاثين دولاراً الآن عوضا عن أن أطلق خرطوشة واحدة.

يسار

نهر لوالابا في كاسونجو، الذي يعدّ المصدر الأساسي لنهر الكونغو الذي يغذّي النيل.

وقلت في داخلي إنه يكذب، فتلك بندقية ذات ماسورة واحدة! كيف يمكن أن تخرج الرصاصات واحدة تلو الأخرى من ماسورة واحدة؟ فقلت له في مقابل ذلك: هناك في لومامي قوس يأخذ عشرين سهماً [دفعة واحدة]، وعندما ترمي تطير السهام معاً، وكل سهم يقتل إنساناً واحداً، حينئذٍ خرج وأطلق إحدى عشرة رمية وأخذ المسدس وأطلق ست رصاصات ثم عاد وجلس في الشرفة. ذهلنا من ذلك، فرجوته أرني كيف تحشو الرصاص، فأراني"[7].

هذا الموقف لم يذكره ستانلي في كتاباته، ويبدو بالنسبة له أنه من الطبيعي جداً أن يستعرض تفوق أسلحته المتقدّمة وبندقيته في لقاء ترحيبي. لكن تيبو تيب سرعان ما أدرك أثر هذا النوع من السلاح في مجرى تاريخ شرق إفريقيا وله شخصيّاً في الأعوام المقبلة.

كان ستانلي معجباً جدا بشخصية تيبو تيب، فقال واصفا إياه:

"كان طويلا، ذا لحية سوداء وبشرة بها مزيج سواد، في مقتبل العمر، قويّا وسريعا في حركاته، يضرب به المثل في القوّة والحيوية. ذا وجه حسن، يوحي بالذكاء، وعينان لهما رموش تتحرك باضطراب، وتلمعان، وأسنان ناصعة البياض. وحوله حاشية كبيرة من الشباب العرب، الذين يعدّونه زعيماً لهم، وعشرات من الوانجوانا والنياموبزي من أتباعه، وقد قادهم وعبر بهم آلاف الأميال في إفريقيا.
وبوفادة وأخلاق العربي الأصيل، وبسلوكه الراقي رحّب بي في قرية موانا وامبي، وبمساعدة خَدَمه الجاهزين بالبُسُط والضيافة، جلسنا متقابلين، وقد أحاطتنا علامات الإعجاب بأسلوبه في أعين الحاضرين.
وبعد التمعن به لدقائق تبيّن لي أن هذا العربي رجل مهم، بل الأهم ممن رأيتهم



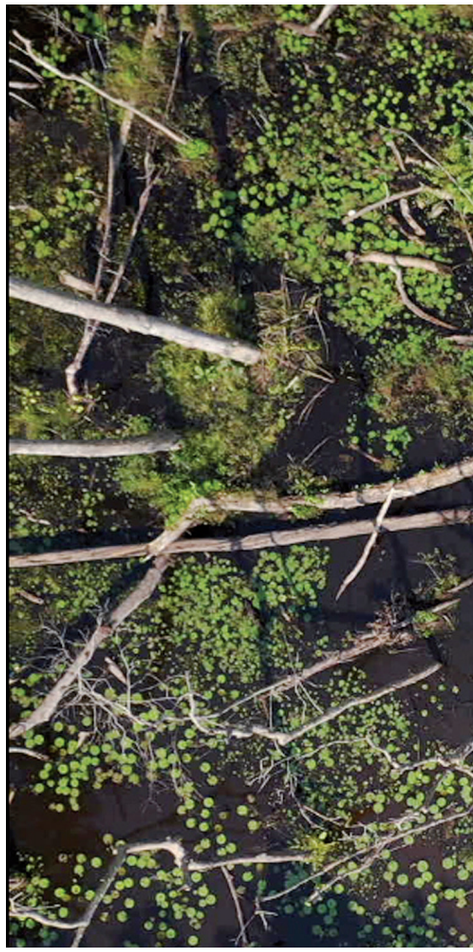
من العرب، والسواحيليين، والمولّدين في شرق إفريقيا. ملابسه ناصعة البياض، وعمامته جديدة، وحول وسطه حزام مرصّع، وفيه خنجر من فضة، ومظهره العام دلّ على أنه العربي الذي يعيش في بحبوحة"[8].



توجد حتى اليوم مناطق على نهر لوالابا لا يمكن المغامرة بالدخول فيها.

وبعد عدة أيام من المفاوضات وافق تيبو تيب على طلب ستانلي للدعم، مع أن الكثير من العرب نصحوه بعكس ذلك، إذ إن الأراضي التي سيخترقونها في هذه الحملة معروفة بشراسة سكانها وسهامهم المسمومة. كما أن هناك صعوبة كبيرة في التنقل وعبور النهر بسبب صعوبة الرؤية فيه، فضلا عن المصاعب الكثيرة الأخرى التي تعيق الدخول إلى المنطقة، وهذه الأراضي هي أراضٍ بكر مجهولة لم تعرف حتى للتجار العرب أنفسهم. وكانت هذه الحقيقة هي التي أثارت اهتمام تيبو تيب، وأن هذه الحملة ستفتح له علاقات تجاريةً جديدةً رابحةً وسيدفع ثمنها ستانلي.

وستبدأ مع هذه المغامرة، واحدة من أصعب وأعظم الحملات الاستكشافية في إفريقيا الوسطى، حيث واجهت هذه الحملة صعوبات كثيرة ومتعددة، وارتبطت بشروط غير واضحة، إلى جانب غياب الكثير من التفاصيل المحددة والمسجلة، بشكل يؤدي إلى تباين في الآراء، وقد يصل إلى التملص والتنصل عن أداء الالتزامات بين المتعاقدين.



تعهّد تيبو تيب بأن يقدم لستانلي والحمالين الذين برفقته 140 مسلحاً و 70 رجلا من الجنود الاحتياطيين مقابل 5000 دولار، وأنهم سيواصلون رحلتهم حتى إن كانت متعذّرة التنفيذ. وبالنسبة لتيبو تيب فقد ذكر في تقاريره أن الأمر بهذه التفاصيل لم يكتب فيه عقد، وأن المبلغ المتفق عليه هو 7000 دولار.

وفي كتابه عن تيبو تيب، يقدّم د. برودي وصفاً أدبيّاً للغابة التي كان على رجال الحملة اجتيازها:

"في مساء يوم 5 نوفمبر غادرت القافلة نيانجوي، بعد أن قطعت مسافة تسعة أميال ونصف ميل على أرض عادية مغطاة بالعشب، ووصلت إلى قرى ناكسيمبي، التي كانت محطة توقفها الأولى. وفي اليوم التالي وجد أفراد القافلة أنفسهم في مواجهة متامبا، وهي غابة كثيفة سوداء، حيث ابتلعتهم ظلال أشجارها، التي تحجب حتى بصيص أشعة الشمس، ومن لم يشاهد بأم عينيه الغابات البدائية الاستوائية من قبل فلن تكون لديه أدنى فكرة عن مدى الرعب الذي تخلقه هذه البرّية. تذكر أفراد القافلة في ذلك الجو الخانق، نسمات الهواء المنعش لغاباتهم المحلّية. كانت الرياح تتسلل بين الأشجار العملاقة التي تسخر بقوتها حتى من الفؤوس، وتظهر كأنها أخطبوط يحاصر الأشخاص ويمسك بأذرعهم وأطرافهم. وبينما يجاهد العابرون لتثبيت أقدامهم على تربة لزجة، تظل جذوع الأشجار القديمة المهتزّة في رقدتها يتساقط منها الندى في قطرات ضخمة"[9].



يمين

القافلة وهي تجاهد لاختراق الغابة الكثيفة.

عانى الحمالون من مشاق كثيرة لإيجاد طريق لهم عبر هذه الغابة الكثيفة، فكان سيرهم بطيئاً، وصار من الصعب الحفاظ على السير أربع ساعات في اليوم حسب ما كان متفقا عليه، وبالتالي لا بد من تمديد عدد الساعات. فأصبحت بذلك المسافة التي يتطلب قطعها أربع ساعات تستغرق ثماني إلى تسع ساعات للحمالين. كما كان على الذين يحملون أجزاء القارب الثقيلة أن يسيروا ساعات أطول بكثير. فلم تستطع الحملة إكمال مسير يوم الحادي عشر من نوفمبر إلا في اليوم التالي، وذلك بعد وصول المجموعة الثانية من الحمالين إلى المخيم ظهراً، وهم في قمة التعب والإرهاق.

وعلى هذا فلم يكن مستغرباً أن يعصي الحمالون الأوامر ويرفضون مواصلة المسير، بل أعلنوا في يوم 26 نوفمبر قرار الانسحاب وعزمهم على العودة، معللين ذلك بأن الغابة التي يحاولون عبورها بشق الأنفس، قطعا لا يمكن اجتيازها، ولا يمكن أن ينجو بالعيش فيها سوى الوحوش المفترسة والقرود والوثنيين من سكانها البدائيين. وبعد وقت قصير أصبح من الواضح أن الحملة لن تسير وفقاً للبنود المتفق عليها. وفي المقابل فإن لدى تيبو تيب وستانلي وجهتي نظر مختلفتين حول طريقة المواصلة.

وقد نقل د. برود تفاصيل الخلاف بين الرجلين بقوله:

"وبعد تجاذب الحديث والنقاش لساعتين، بذل خلالهما ستانلي كل ما بوسعه من أساليب الإقناع، نجح فيما يبدو في إقناع تيبو تيب في متابعة التقدم. وقرروا عبور النهر والسير بمحاذاة الضفة اليسرى منه. وتخلّى تيبو تيب بنفسه عن العقد الأول، وأضاف عشرين مسيراً جديداً من النقطة التي وصلوا إليها تواً وخيموا على أرضها، في مقابل 2600 دولار، واتفقوا أن يناقشوا لاحقاً أية إضافة جديدة.
وقد اختلفت تصريحات تيبو تيب، ثانية، عما كتبه ستانلي حول ما جرى بقوله إن الأمريكي، حينما واجه صعوبات المسير، وعدم رغبة الحمّالين في المواصلة، فقد عقله تماماً وغضب، فقدّم بنفسه مقترحاً بتغيير الاتجاه نحو الكونغو. وقد رفض أي تراجع عن الاتفاق، ولم يقدّم له فيه من البداية سوى موافقة مشروطة، ناهيك عن تخفيضه الأجر الذي وعد به"[10].

نجح تيبو تيب في تهدئة حمالي ستانلي في هذا الموقف، وفي مواقف أخرى لاحقة، ووافق الحمالون على الاستمرار والتوجّه نحو النهر. وفي 27 ديسمبر عام 1876م، استطاع أخيرا ستانلي إكمال الرحلة بمحاذاة النهر بفضل دهاء تيبو تيب وقدرته على الإقناع. وهنا افترقت الشخصيتان وذهب كلٌ منهما في طريق مختلف. وبوصول ستانلي ومن نجا معه من المرافقين إلى الساحل الغربي لإفريقيا، مطلع أغسطس 1877م، تبين فعلا أن نهر لوالابا كان مصدر نهر الكونغو، ويمكن استخدامه والإبحار خلاله لمسافات طويلة.

ويبدو أن تيبو تيب وستانلي لم يحسما جدلهما حول العقد أبداً، إلا أن تيبو تيب لم يعتمد على أموال ستانلي، وفتح مناطق تجارية جديدة، لكنه كان متعجباً من نقض ستانلي للعقد ووعوده الكاذبة.

يقول د. برود:

"وهكذا حصل بطلنا (تيبو تيب) على قسيمة قيمتها 2600 دولار، وحمار ركوب، وسلسلة ذهبية، ومسدس، وذخيرة، وكمية عظيمة من الخرز، وأسلاك نحاسية، وملابس (...).

ولم يقل تيبو تيب كلمة عن هذه الهدايا في مذكراته، مع أنه اعترف لي شخصيّاً أنه تلقّى حوالة مالية، لكن المبلغ لم يسجل باسمه(...). أرسل الصك المالي إلى شريكه في التجارة تاريا توبان ليسحبها، وكانت مفاجأته الكبرى أن يتسلم مبلغاً بين 2000 إلى 3000 دولار، بدلا من المبلغ المتفق عليه وهو 7000 دولار.

وقد شكّك في تسلمه الهدايا التي عدّدها ستانلي(...).

وكان لدى ستانلي، كما يظهر، أربعة حمير، اختار أفضل حمارين منها، وترك الباقيين، لعدم مقدرته على شحنهما. والأشياء التي عدّدها ستانلي وعدّها أنها هدايا له ولرجاله حصلوا عليها حقاً، لكّنها لم تكن إكراميّة، إنها في مقابل المبالغ المؤجلة الدفع، كما قضى بذلك الاتفاق، وكان على ستانلي دفعها لمواصلة حمايته في العودة. لكنه، بالفعل، أعطاه وعوداً كاذبة، وقال له: لا أعرف كيف أكافئك على طيبتك، ولا أعرف كم أعطيك.

ولكن عندما أعود إلى أوروبا سأحصل على مكانة وغنى كثير. سأحضر لك ساعة يد قيمتها ألف دولار وعليها قطع من الألماس. ولا أستطيع أن قول لك، أو أقدر بالتحديد كم سأعطيك من المال الوفير.



بيّن ستانلي بوضوح أسلوبه الجدلي والناقد لقيادة الحملة بنفسه في هذه الرسمة، وعنوانها "انتبه، لقد أسقطت ذلك الصندوق، سأطلق عليك النار"، وهي منشورة في كتابه: "كيف عثرت على ليفينجستون".

كما أن ستانلي في نهاية الأمر توسل إلى تيبو تيب أن ينتظره لمدة شهر في مكانه لأجل مساعدته إن أُرغم على العودة إلى ذلك المكان مرة أخرى"[11].

لا ندري ما الذي خطر في عقل تيبو تيب عندما تلقّى بدل الساعة الموعودة رسالة مع صورة فوتوغرافية لهنري مورتون ستانلي تحتوي على بعض كلمات الشكر. ومن المؤكد أنه لم يتوقع رؤية ذلك الرجل ثانية، وهو يتقدم من جديد بطلب عاجل للمساعدة، ويحمل إليه خطاباً موجهاً إليه من أحد ملوك أوروبا.



وضع مؤتمر إفريقيا المنعقد في برلين الأسس اللازمة لتقسيم القارة الإفريقية بين القوى الأوروبية.

وبعد وقوع الكارثة بدأ البريطانيون والألمان بالفعل مباحثاتهما لتقليص أراضي سلطان زنجبار لقطاع يمتد عشرة أميال على الساحل، وتحديد مهمة أخرى لأرخبيل زنجبار سيكون لها تأثيرات على سلطان زنجبار وكذلك على التجار العُمانيين.

الصراع على إفريقيا

ترتب على اكتشاف ستانلي لنهر الكونغو كطريق تجاري من الممكن أن يربط إفريقيا الوسطى بأوروبا، عواقب وخيمة لتجارة العاج والبضائع الأخرى كان من أهمها خسارة طريق القوافل القديم باتجاه الشرق أهميته الكبيرة، وفقدان سلطنة زنجبار أحد مصادر دخلها التي تدر عليها عوائد كبيرة، وسيكون بذلك هذا الطريق بوابة مفتوحة على مصراعيها للقوى الأوروبية لاستغلال إفريقيا وتسخيرها لمصلحتها.

كان الملك ليوبولد الثاني (King Leopold II)، ملك بلجيكا، أول ملك أظهر رغبة قويّة لوضع يده على الثراء السهل الوصول إليه حينها، والمخبأ في قلب القارة الإفريقية. فعندما رفضت إنجلترا عرض ستانلي في التعاون لاحتلال الكونجو، تبنى ملك بلجيكا الفكرة، وبعث ستانلي بشكل رسمي إلى حوض نهر الكونغو تحت غطاء إجراء بحثٍ علمي، بينما كان في الواقع يبني طريقاً من مصب الكونغو إلى مكان يعرف ببحيرة ماليبو، فمن هناك يمكن أن تبحر السفن البخارية لأعلى النهر. والأدهى من ذلك، أن الأوامر كانت تقضي بالاستحواذ

على الأراضي سرّاً. وفي غضون سنوات قليلة، تمكّن ستانلي من الحصول على عقود مزيّفة مبرمة مع 450 من زعماء القبائل، وقعوا فيها على تنازلهم عن أراضيهم لصالح الملك ليوبولد الثاني، والقوى التابعة له، ومن المؤكد ألا أحد من هؤلاء الزعماء المحليين كان على علم بمضمون تلك العقود المكتوبة بلغة لا يعرفونها.

وكان على الملك ليوبولد الثاني أن يقدّم سبباً مقنعا لاحتلال الكونغو وضمها محميّة خاصة به، وعندها نُصح بتقديم عذر يتمثل في أنه ذاهب إلى هناك من أجل توفير شروط الحضارة وأسبابها للفقراء الذين استعبدهم التجار العرب. وأكّد أن واجبه كملك مسيحي أن يطرد أولئك المسلمين، وأن ينقذ شعب الكونغو، وأن يسعى إلى تطويرهم من مدخل التجارة الحرة على وجه الخصوص، نافيا أن تكون لديه أي مطامع أو منفعة شخصية في الأمر. وعلى هذه الشاكلة سوّق لمشروعه بين القوى الأوروبية الكبرى في عام 1884/1885م في مؤتمر برلين بقيادة المستشار الألماني أوتو فون بسمارك.

عُقد هذا الاجتماع الرفيع المستوى للقوى الأوروبية وأمريكا بهدف تقليص تجارة الرقيق، وترويج قيم المثالية الإنسانية في إفريقيا، مع أن تجارة الرقيق كانت مستمرة في المحيط الأطلسي عبر مئات السنين تقودها أمم تحضر اجتماع برلين نفسه. وعليه فليس غريباً أن يخرج المؤتمر بقرارات فارغة فيما يتعلق برفاه الحياة في إفريقيا، لأن الذي حدث في ذلك المؤتمر حقيقة أن القوى الاستعمارية الأوروبية ناقشت كيف ترسم مناطق سيطرتها في إفريقيا، وكيف تضع القوانين لتنظيم السيطرة على الثروات في القارّة. ولا داعي لذكر أنه لم يُدعَ أيُّ حاكم إفريقي إلى اجتماع برلين، وتُجُوهلت جميع الأصوات المنتقدة له.



الملك ليوبولد الثاني هو الرجل الوحيد في التاريخ الذي ادّعى مستعمرة ملكا خاصاً به.

في برلين، بدأت أكثر فصول تاريخ الكونغو سواداً، ففي عام 1885م أعطى ليوبولد الثاني ممالكه الإفريقية، التي كانت تكبر بلجيكا سبعين ضعفا، اسم دولة الكونغو الحرّة. واسم الدولة مضلِّل، فلا يوجد أي شيء (حرّ) فيها، عدا حريّة عملاء الملك في استغلال شعبها وثرواته الطبيعية.

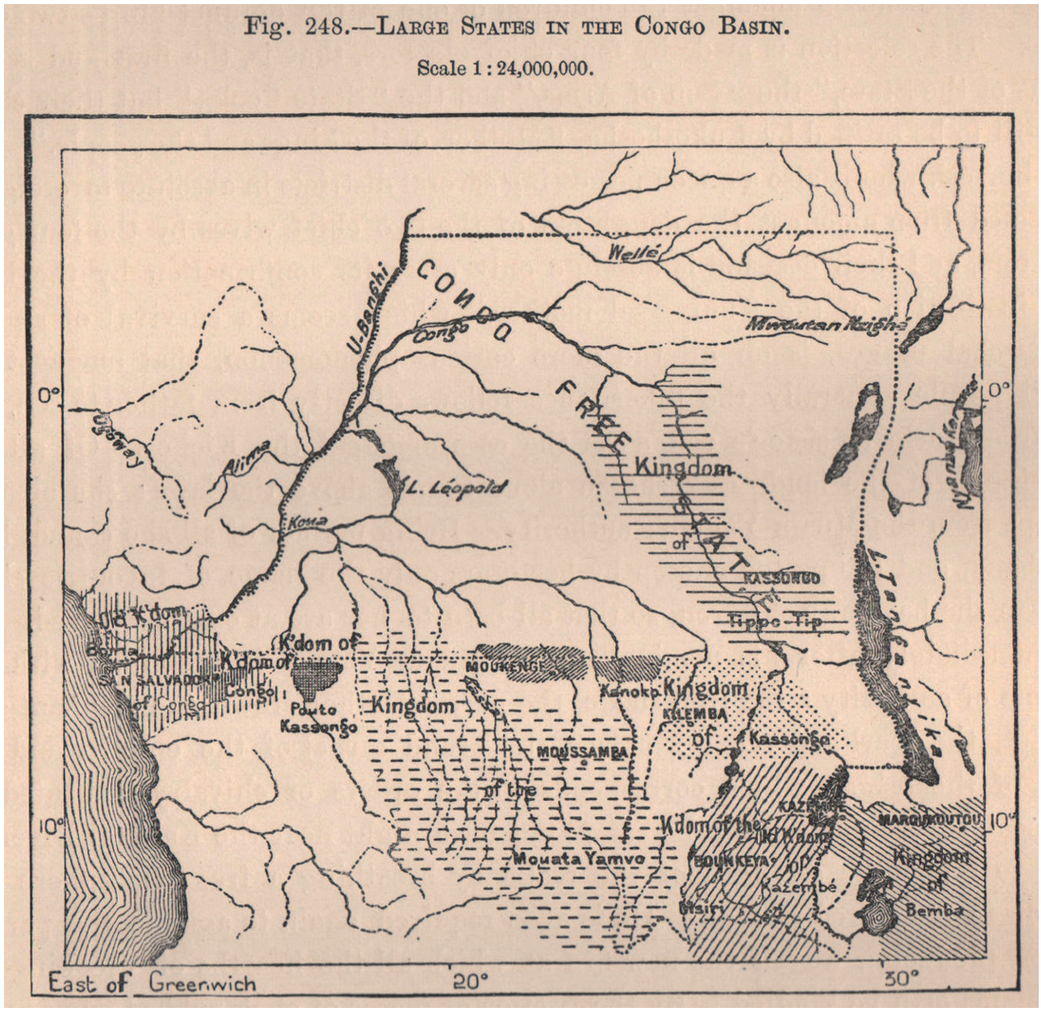
وكان العاج هو السلعة الأساسيّة التي طلبها التجار البلجيك في أول الأمر، ولكن مع اختراع جون بويد دنلوب الإطارات المطاطية عام 1888م، تغيّر الوضع؛ فالطلب على المطاط تزايد بشكل كبير جداً، وكذلك سعره، والمطاط عنصر طبيعي متوفر بكثرة في الكونغو، لكن حصاده يتطلب مواجهة مخاطرة كبيرة، ويحتاج قوى عاملة كثيرة.

ولأجل الوصول الكامل إلى ثروات الكونغو، احتاج التجار البلجيك في بداية الأمر أن يتعاونوا مع التجار العُمانيين الذين يعرفون المنطقة وطرقها التجارية ولغاتها وشعوبها ووسائل الحصول على الطعام فيها، ويمتلكون مهارات سبر هذه التضاريس الصعبة.

فكان البلجيك عاجزين عن فعل شيء من غير مساعدة العُمانيين، كما كان ستانلي سابقاً.

لذلك طلب الملك ليوبولد الثاني من تيبو تيب أن يكون حاكماً رسميا عنه لمنطقة أعلى الكونغو، وبهذه الطريقة استطاع الاستفادة من مكانته المهمة وسط التجار العُمانيين. فكان على تيبو تيب، بوصفه حاكما ولخبرته كتاجر عُماني، ضمان تدفق التجارة جميعها لتعود إلى الكونغو والساحل الغربي إلى جانب منع تجارة الرقيق. وفي الحقيقة فقد أُمر تيبو تيب أن يَجبر زملاءه من التجار العرب أن يتصرّفوا وفقاً لإرادة الملك.

وعلى الرغم من مخاطر استغلاله كحاكم لمنطقة أعلى الكونغو، وبعد مشاورة السلطان برغش في زنجبار، قبل تيبو تيب بالعرض. ويبدو أن الرجلين أدركا أن هذه هي الطريقة الوحيدة للعُمانيين للحفاظ على دور في مستجدات التطوير في أعالي الكونغو، للحفاظ على صلاتهم التجارية مستمرة. غير أن هذا التعاون وصل لطريق مسدود وبمواجهة مسلحة مباشرة مع البلجيك.



تعود هذه الخارطة إلى عام 1885م، وهي لا تظهر فقط المساحة الشاسعة لدولة الكونجو الحرّة، وإنما تظهر في جهة الغرب مملكة كاسونجو، التي قادها تيبو تيب.
كما تظهر الخارطة كذلك شبكة الأنهار الضخمة على نهر الكونجو، مشكلة شبكة تجارية نهرية مثالية في غرب إفريقيا.



"في لفائف المطاط"

رسم كرتوني في مجلة بنش البريطانية الساخرة يُظهر الملك ليوبولد الثاني في شكل أفعى تعتصر رجلا كونغوليا حتى الموت.

استمرت حرب عرب الكونغو التي نشبت بين قوات دولة الكونغو الحرّة التابعة لملك بلجيكا ليوبولد الثاني ومجموعة من التجار الزنجباريين والعرب بقيادة سيفو بن حمد، نجل تيبو تيب، من عام 1892م إلى عام 1894م، وكانت حرباً بالوكالة، إذ قام بمعظم المعارك السكان المحليون في الكونغو، الذين انقسموا بين الفريقين المتحاربين. وفي نهاية هذه الحرب، تعرّضت كاسونجو ونيانجوا إلى التدمير التام من قبل القوات البلجيكية، وانقطع التجار العرب عن أعلى الكونغو، وخسر تيبو تيب اثنين من أبنائه، هما سيفو ومسيري في المعارك.

وقد أُحتفل في أوروبا بالانتصار على (تجار الرقيق العرب)، انتصاراً للإنسانية، وأُلصقت بتيبو تيب الرجل الذي فتح باب إفريقيا الوسطى للأوروبيين، وصمة عار التاجر السيّئ السمعة في تجارة الرقيق عبر العصور المختلفة، وهي دعاية مضادة لنشر الأكاذيب وتلميع صورة الغرب، ولا تزال هذه الدعاية تنتشر وتطوف العالم.

وبالنسبة لشعب الكونغو فإن الفصل الأكثر سواداً قد بدأ للتو، فقد أجبر الشعب كاملا على العمل الشاق، وقام وكلاء المطاط البلجيك، وجيش دولة الكونغو الحرّة -جيش الاستعمار البلجيكي- بإجبارهم على العمل في ظروف شاقة ووحشية وصعبة للغاية. وكان أخذ الرهائن، وسلب القرى، وإحراق الثمار، وقطع الأيدي جزءاً من سلسلة العقوبات التي لا تنتهي. لقد تناقص عدد السكان خلال فترة الاستعمار البلجيكي زمن حكم ليوبولد الثاني، حتى وصل إلى قرابة النصف، وذلك بما يقارب 10 ملايين نسمة من عدد سكان الكونغو. ولا شك أن تجارة الرقيق استمرت جزءا من الأعمال التجارية المعتادة لتلك الأيام، لكن المعاملة الوحشية التي مارستها القوى الاستعمارية وصلت غايتها، وكذلك ارتفاع معدل الوفيات، خاصة بعد أن أصبح (القضاء) على الرق يتطلب ارتكاب جرائم القتل الجماعية.

استثمر ليوبولد الثاني أرباحه من الكونغو لبناء قصور ومتاحف في موطنه، وكان من بينها متحف الكونغو في ترفورن، الذي افتتح عام 1897م، أداة للدعاية الاستعمارية. في هذا المتحف صُوِّر السواحيليون العرب على أنهم تجار رقيق، مقابل تصوير المسيحيين الأوروبيين، على أنهم حاملو مشاعل الحضارة والنور إلى إفريقيا الغارقة في الظلام. وبعد مضي سنوات قليلة، بدأت تتشكل في أوروبا مواقف ورؤى ناقدة ومختلفة للماضي الاستعماري لهذه القارة، وما رافقه من استغلال وفظائع.

وبعد إعادة افتتاحه بعد تجديده في ديسمبر 2018م، روجعت المعروضات والقاعات في متحف الكونغو، بحيث أصبحت تقدّم الآن رؤى ناقدة بشكل أكبر لذلك الفصل المظلم للاستعمار البلجيكي لشعب الكونغو. وقد يكون التغيير الأكثر رمزية في هذا السياق هو نقل التمثال الضخم للملك ليوبولد الثاني من بهو مدخل المتحف إلى المستودع في الطابق السفلي، وأُعيدت تسمية المتحف ليصبح "المتحف الملكي لإفريقيا الوسطى".

كما أن دور تيبو تيب، وولديه والعرب الآخرين يُعرض الآن بشكل مختلف في هذا المتحف، الذي يشهد تزايدا في الاهتمام بالثقافة العُمانية في إفريقيا. ومن بين الأشياء التي أحضرها الجنود البلجيك إلى موطنهم من تلك المعارك، بوصفها غنائم حرب، أبواب عُمانية من كاسونجو (التي يجري الآن ترميمها)، وقلادة مذهلة يقال إنها تعود لتيبو تيب، وخنجر عُماني يعود لابنه سيف (سيفو) الذي قتل في إحدى تلك المعارك.



نصلة خنجر سيف بن حمد المرجبي معروضة في متحف إفريقيا، في ترفورن. التصميم العُماني التقليدي لخنجر سيفو ما زال مستخدما حتى اليوم في عُمان.

جويدو غريسيلس

رسالة متحف إفريقيا

نسعى أن نكون متحفاً لإفريقيا المعاصرة بمعرض دائم، وبمظهر وحلة جديدة وعصرية ترتبط مباشرة بالتطوّير المستدام، والأهم من ذلك، نريد أن نمنح فرصة عظيمة للأفارقة للتعبير عن أنفسهم، وقول كلمتهم وأن نقدّم نظرة أكثر نقداً للماضي الاستعماري لبلجيكا، وهو ماض لم يتعرض للنقد الكافي في السابق، لذلك فإن وقت التغيير قد حان لنقدّم رؤى جديدة حول ذلك الماضي، وأن نبدأ عملية تحرير المتحف والمؤسسات الثقافية الأخرى المشابهة من الرؤية الاستعمارية في تقديم ذلك الماضي.



المتحف الملكي لإفريقيا الوسطى في ترفورن في بلجيكا

يمكنك النظر إلى التاريخ الاستعماري بعيون الماضي، ولكن يمكنك النظر إليه أيضاً بعيون اليوم، وعندما تنظر اليوم إلى الاستعمار، فإنك تستخلص أنه كان نظام حكم يقوم بطبيعته على الاحتلال العسكري، باعتماد نظام عنصري واستبدادي واستغلالي للبلاد.

ولم يسبق من قبل حتى معرضنا المعاصر (ذاكرة الكونغو، الحقبة الاستعمارية) في عام 2005م، أن أثير نقاش في بلجيكا عن ذلك الماضي الاستعماري، فحتى ذلك العام وعندما سُئل العامة من الشعب البلجيكي عن شعورهم فيما يتصل بالماضي الاستعماري، فإن معظمهم قالوا: لقد عملنا أشياء جيّدة هناك؛ لقد بنينا الشوارع، والمستشفيات، ووفّرنا التعليم للأطفال. كما كانوا يقولون أيضا، أنه في عام 1960م كانت الكونغو ثاني أغنى دولة في إفريقيا، ولديها معدل إنتاج مرتفع مثل كندا؛ إذًا ما الخطأ الذي ارتكبناه بالضبط هناك؟

ترتبط أكثر السلوكيات التي نتعامل بموجبها تجاه الأفارقة أو تجاه الأجانب بنظرة التفوق الثقافي الغربي التي خلقها السلوك الاستعماري. وعليه فإنه من المهم جداً أن نؤسس ونرسم صورة أكثر واقعية وصدقاً لذلك الماضي الاستعماري، لتهيئة أسباب إجراء حوار من شأنه المساعدة في تجاوز مشاكل مجتمعنا المتعدّد الثقافات الذي نعيش فيه اليوم هنا في بلجيكا. ومن المهم جداً أن نواجه أنفسنا، وأن نتحمل المسؤولية. إنه نقاش صعب جداً، بسبب تعقيده من جانب، ولأنه عاطفي جدا من جانب أخر، وبالتالي فإنه من الصعوبة جداً أن تجد عائلة بلجيكية لم يذهب أحد أفرادها إلى المستعمرات.

وحتى عشر سنوات خلت، فإن الكثيرين يشعرون بالتعاطف الكبير مع النظام الاستعماري، أمّا الآن، وبفضل الجدل القائم حول افتتاح متحفنا، فإن النسبة الأكبر من البلجيكيين أصبحوا يمتلكون سلوكا ونظرة ناقدة، ويدركون أن النظام الاستعماري، هو في الحقيقة، نظام هيمنة، وأنه نظام قائم على عدم المساواة بين البشر.

وفي الوقت الذي نملك فيه سمعة عالمية حول أصالة أعمالنا العلمية وجودتها، إلا أننا أيضا نتحمل مسؤولية نشر الدعاية للاستعمار ولوم العرب على تجارة الرقيق. ويضم متحفنا أعمالا فنيّة عديدة تصوّر العرب على أنهم أشرار ومتوحشون، ومعهم أفارقة أو كونغوليون ممدون على الأرض وهم تحت وطأة الأسر، ومربوطون ببعضهم، ونساء يأخذهن العرب قسرا بعيداً عن أوطانهن وأهلهن، لكن يجب الاعتراف أن هذه الأعمال الفنيّة نُفّذت لإخافة الناس. لقد مارس العرب تجارة الرق، لكنهم كانوا تجاراً، ولم يكونوا عنصريين في دواخلهم. وبالتالي فيتوجب أن ينظر إلى الأمر بشكل مختلف. كما يجب الاعتراف أيضا بوجود مشاكل كامنة في مجتمعاتنا المتعددة ثقافيا تجاه الناس الذين ينتمون إلى أصول إفريقية، كما يشعر الناس عندنا بعدم الارتياح للعوائل والأفراد من أصول عربية. وقد تولدت هذه الحالة جزئياً من تلك الدعاية الاستعمارية للملك ليبوبولد الثاني، وللنظام السياسي البلجيكي حتى استقلال الكونغو في عام 1960م. وتركت تلك الدعاية آثارها وانعكاساتها المتعددة، وخاصة العنصرية التي نلمسها في صعوبة تعاملنا مع مجتمع اليوم المتعدد الثقافات.





صورة جويّة لموقع الحفريات في كوسونجو كما تعرض في متحف إفريقيا. ومن المقتنيات التي عثر عليها حتى الآن الفخار والرصاص وبقايا طعام وجمجمة، يرجح أنها تعود إلى الأيام الأخيرة للحرب.

ولأجل تحقيق فهم أعمق عن حياة التجار العُمانيين في كاسونجو، وعمّا حدث في أثناء الحروب، بدأ فريق البحوث في المتحف عمليات تنقيب أثرية في هذه المنطقة عام 2018م، وهي لا تزال مستمرة. وتعد هذه المهمة صعبة، نظراً للأوضاع السياسيّة والأمنية في هذا الجزء من جمهورية الكونغو الديموقراطية الشعبيّة.

ركّز فريق البحث أولاً على الجزء الذي سكن فيه التجار العُمانيون، لكن لم يبق من بيوت المدينة السابقة التي ضمت ما يقارب 25000 نسمة سوى أحجار أساسات البناء. وتثبت الحفريّات أن كثيراً من المباني أحيطت بأسوار خشبية ثقيلة، توفر للمبنى حماية وتجعل مهمة الاستيلاء عليه أمرا شاقا للغاية.

ولم يشاهد تيبو تيب نفسه سقوط كاسونجو ولا تدمير منزله، فبعد عودته إلى زنجبار من حملته الأخيرة في عام 1890م تقريباً، قرّر الاعتزال، وكتابة سيرة حياته، التي كانت أول سيرة ذاتية باللغة السواحيلية. ونقل د. هينرتش برود، الذي عرفه في زنجبار، المخطوطة إلى الحروف الرومانية، وترجمها إلى اللغة الألمانية ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ونشرت في بريطانيا في عام 1907م.



وفي 13 يونيو 1905م، توفي تيبو تيب بالملاريا في منزله في ستون تاون، ذلك لأنه وجد في هذه المدينة بعد من ترحاله وإقامته في إفريقيا الوسطى وقد حوّلها السلطان برغش لتكون المدينة الأكثر حداثة في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، بعد مدينة كيب تاون جنوب إفريقيا.



لوحة إرشادية تحدّد المجمّع السكني الذي يعتقد الأثريون أن منزل تيبو تيب يقع فيه في كاسونجو.



منظر للمرفأ والمدينة في زنجبار صبيحة اليوم التالي للإعصار، نقلا عن أخبار لندن في 1 يونيو عام 1872م.

التحديث تحت ظروف قاسية

بعد أن تسلم السلطان برغش بن سعيد مقاليد الحكم في زنجبار بعد وفاة أخيه ماجد في عام 1879م، بدأ حكمه بخطط طموحة لمستقبل زاهر لسلطنته، وضمّت رؤيته تأثيراً سياسياً متزايداً، وكذلك إدخال التقنيات المبتكرة الحديثة. وطوال السنتين اللتين قضاهما في المنفى في الهند عايش التسهيلات التي توفرها التقنيات الحديثة التي أدخلها البريطانيون هناك، وايجابياتها المتعددة. وقد خدمته الحداثة التي عاشتها مصر كنموذج يحتذى به في عدد من الجوانب.

لكن أنواء مناخية طبيعية غير معتادة صعّبت عليه مهمة إنجاز خططه. ورغم وقوع سلطنته على بعد درجتين شمال منطقة وقوع الأعاصير المعتادة، إلا أن إعصاراً مدمّراً ضرب أرخبيل زنجبار في 15 إبريل 1872م. حيث هبت فجر ذلك اليوم عاصفة جنوب شرقية، وتزايدت قوتها لتتحوّل إلى إعصار مستعر القوّة استمر حتى حلول الظلام.

كان الدمار الذي خلّفه هذا الإعصار كبيرا للغاية، وكان تأثيره على مقدّرات السلطنة أكبر كارثة ممكن أن تخطر على بال. فقد أتى على أقل تقدير على ثلثي مزارع القرنفل والنارجيل وجعلها أثرا بعد عين. ولأن زراعة هذه الأشجار من جديد ستحتاج إلى سنوات طويلة حتى تثمر ويمكن حينها حصادها، تضاعفت آثار الدمار وخسائره. ونجحت سفينة بخارية واحدة فقط في الهرب إلى المياه المفتوحة، فيما كان مصير 150 سفينة للعرب والهنود والأوروبيين إما الغرق، أو الجنوح للساحل، والكثير منها كانت بكامل حمولتها، إذ كانت عائدة لتوّها. وكان لسفن السلطان نصيب كبير من الدمار، فقد جنحت ثلاث سفن بخارية وسفينة حربية تقليدية للساحل وتدمرت. كما تأثرت قوة السلطان البحريّة، وكذلك خزانته المالية بشكل كبير.

وبرغم كل هذه الصعاب والعقبات، عمل السلطان برغش جاهداً على الاستفادة من كلّ ما يمكن الاستفادة منه في هذا الموقف العصيب. وبإدراكه أن الدبلوماسية العالمية والتجارة تتطلبان ربطاً بشبكات التواصل العالمية، فقد عمل على دمج زنجبار في منظومة التبادل العالمية، وذلك ما طوّره خلفاؤه من بعده.

فقد بدأت تدريجيا سفن بخارية تحمل ركاباً، وبريداً وبضائع تفد إلى زنجبار، وفي مقدمتها تلك المملوكة لشركة الهند البريطانية للملاحة البخارية في عام 1872م، تلتها شركة مسجيرس ميرتايم الفرنسية عام 1888م، ثم مالا ريل لاين البرتغالية عام 1889م، وشركة خط شرق إفريقيا الألمانية في عام 1890م. وقد ربطت هذه الشركات الجزيرة بمدن بومبي، وعدن، والسويس، ومدن أخرى في المحيط الهندي.

وفي عام 1872م وُضع أول خط للتلغراف في زنجبار، تلاه خط إلى عدن ربط زنجبار بشكل مباشر بمنظومة التواصل العالمية في 1879م.

وللعمل بشكل أوسع ضمن نطاق عالمي، كان من المهم تبنّي مقاييس توقيت عالميّة، ولمساعدة الناس على التكيّف مع هذه المقاييس العالمية أُقيم برج ساعة في الميناء في عام 1879م. وعليه فإن أداة تحديد التوقيت بـ 24 ساعة في اليوم أصبحت موجودة إلى جانب الطريقة التقليدية التي تقسم اليوم الكامل إلى نهار يمتد 12 ساعة، يبدأ بشروق الشمس، وليل يمتد 12 ساعة يبدأ بغروب الشمس. وبإدخال التوقيت العالمي، أُدخلت زنجبار ضمن مجموعة موسكو (ساعتان قبل توقيت جرينتش)، ومع التزام السفن البخارية بمواعيدها بناء على النظام الجديد، بدأت الأنشطة في الميناء الاعتياد على هذا التوقيت شيئاً فشيئاً. وما زال النظامان حتى اليوم مستخدمين بين الناس وبعض المؤسسات في زنجبار.

وثمة مشروع آخر كان على قائمة أعمال السلطان برغش وهو تحسين الظروف الصحية في الجزيرة، فقبل عام من حكمه اجتاح زنجبار وباء الكوليرا العالمي الذي بدأ في عام 1863م في دلتا نهر الغانج، ووصل شمال إفريقيا في عام 1865م، ثم انتشر في المناطق الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى. ومات بسبب هذا الوباء في زنجبار ما يقارب 70000 شخص خلال عام 1869م و1870م. وأدى تدني مستوى النظافة ونقص الماء النظيف والصالح للشرب، وغياب نظام للصرف الصحّي، إلى زيادة معدل الوفيات.



لا يزال خط أنبوب المياه العذبة حتى الآن أحد مصادر توفير المياه في مدينة ستون تاون.



إستمر "الحمام الفارسي" في استقبال مرتاديه حتى عام ١٩٢٠م، وهو الآن أحد الأماكن السياحية لمدينة ستون تاون.

وللتعامل مع مثل هذه الظروف أمر السلطان برغش ببناء نظام صرف صحي، ومدّ أنابيب كبيرة لتزويد المدينة بالمياه العذبة، يغذيها خزّان تتجمّع فيه مياه الينابيع في مناطق بعيدة عن مدينة ستون تاون. وتوزّعت صنابير المياه لتمد السكان بالماء النظيف في المدينة.

كما أدخلت الحمّامات الشعبية أو العامة المعروفة بالحمّامات الفارسية لرفع مستوى النظافة في المدينة، وكانت هذه الحمامات تستقبل الرجال والنساء على حد سواء لكن في أوقات مختلفة. وكانت هذه الحمامات تضم عدة غرف، فبعضها للمياه الساخنة والباردة، وأخرى خاصة لقضاء الحاجة، وثالثة للحلاقة. وكانت المياه الساخنة تجري عبر أنفاق تحت الأرض.

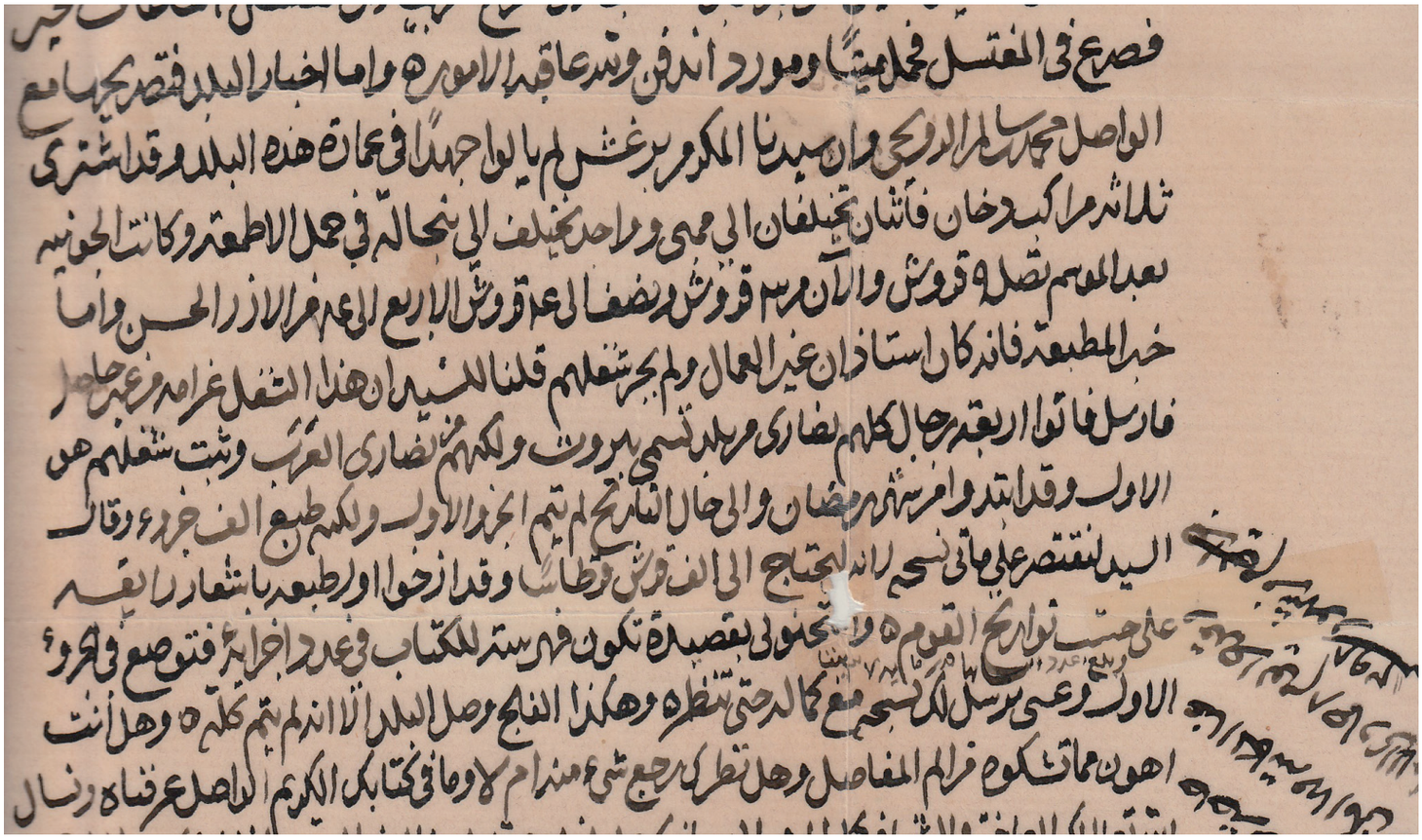
أدرك السلطان برغش أهمية الدور الذي تقوم به المطبعة التي تطبع بالحروف العربيّة، ليس فقط لإيصال الأخبار إلى رعاياه، ولكن أيضا لنشر الوعي، والأعمال العلمية، والموضوعات الدينية وتوثيقها.

وفي عام 1865م أدخل منصّرون أمريكيون أول مطبعة في شرق إفريقيا إلى زنجبار. وأكثر ما نشروه كان نصوصاً مسيحية باللغة الإنجليزية، وترجمات للأناجيل والعهد القديم باللغة السواحيلية مستخدمين الحروف اللاتينية. وخلال سنوات كان المنصرون يتلقون مساعدة من مترجمين محليين، كالشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الأموي، وهو شيخ له مكانته المرموقة في زنجبار والذي ساعد في وقت سابق أثناء حكم السلطان ماجد في ترجمة إنجيل القديس لوقا. كما شارك في عام 1872م الأسقف ستير في ترجمة الإنجيل إلى السواحيلية.



السلطان برغش بن سعيد بن سلطان.

وعندما زار السلطان برغش إنجلترا عام 1875م، ضمّنها وقفة في مصر، وكانت الطباعة العربية قد تطورت آنذاك خلال فترة حكم الخديوي إسماعيل تطوّرا كبيرا، فقد كانت تنشر الصحف العربية والأخبار بشكل واسع. ومع عودته من رحلته تلك، جلب السلطان برغش معه أول مطبعة عربية، واستقدم أربعة من المسيحيين المتخصصين في الطباعة باللغة العربية من بيروت. وبلغت حركة الطباعة أوجها في زنجبار بشراء مطبعة الآباء اليسوعيين من بيروت في عام 1884م.



جزء من رسالة كتبها يحيى بن خلفان بن أبي نبهان الخروصي يعود تاريخها إلى عام 1297هجرية/ 1879ميلادية، يصف فيها التحديات التي واجهت تأسيس مطبعة في زنجبار، ومجيء عمال المطبعة من بيروت، وطباعة مجلد من "قاموس الشريعة".

وقد حرر هذا الباحث العُماني، القاضي والشاعر، الأجزاء العشرة الأولى لمنظومة الفقه الإسلامي وفقا للمذهب الإباضي، التي كانت أول مشروع طباعة كبير تقوم به المطبعة العربية في زنجبار.

يكمن جوهر أهميّة المطبعة السلطانية باللغة العربية في السنوات اللاحقة في طباعتها ونشرها لنصوص تنتمي إلى المذهب الإباضي، الأمر الذي قاد إلى نهضة ثقافية وأدبية في الأدب الأباضي والخطاب الديني. وإضافة إلى نشرها أعمال الدارسين المعاصرين، نشرت المطبعة جملة من المصنفات التي تعد من أهم كتب أصول الفقه الإباضي.

وقد لخّص فيليب سادجروف من جامعة مانشستر أثر مطبعة السلطان برغش العربيّة في مقال مفصّل بعنوان: "المطبعة: أهم محركات النهضة الصغرى لزنجبار"، على النحو الآتي:

"...ومع أن عدد النصوص الإباضية التي نشرتها المطبعة خلال أربعين سنة ليس كثيرا، إلا أن الأعمال المختارة للنشر كانت بالغة الأهمية للمجتمع الإباضي، الذي لم يطلع، حتى ذلك الوقت، على إنتاج المطابع لأدبيات المذهب. وعلى الرغم من قلة المعلومات الدقيقة عن تلك النصوص المطبوعة، لكن يبدو أن معظمها، وهي



تعطي هذه الصورة القديمة غير المؤرخة لمحة لغرفة التنضيد في أحد المطابع في مدينة ستون تاون

بالكثيرة أيضاً، كانت تصدّر إلى المجتمعات الإباضية في عُمان وأبعد منها. وعلى الرغم من أن عُمان كانت تمثل أكبر مجتمع للمذهب الإباضي، إلا أنها لم تكن تمتلك مطابع في تلك الفترة، وكان على الكتّاب العُمانيين أن يتدبروا أمر الطباعة خارج بلادهم. ومواكبة للحراك الثقافي في هذه الفترة، التي عاصرت النهضة العربيّة، التي شهدت تحدّى عدد من المثقفين العرب الشباب، لاسيما في مصر وسوريا، الكثير من القيم والمسلمات، ونشروا أفكارهم السياسية والاجتماعية الجديدة، وجرّبوا أجناساً أدبية جديدة كالمسرح، والرواية، والقصة القصيرة، فإن مطبعة السلطان وجدت أنه من أهم أعمالها استيعاب وتقدير الدراسات الإباضية التي كتبها مؤلفون يبعدون عنها آلاف الأميال في عُمان والجزائر"[12].

وتأسست بمرور السنوات المزيد من المطابع في الجزيرة، تخدم بعضها مجموعات عرقية محلية، وتصدر أخرى مجلات وصحفا. لقد أدّى دخول المطبعة في زنجبار إلى توسّع طباعة المؤلفات والمنشورات الدينية والفكرية، واستمر ذلك مع السلاطين الذين تقلدوا الحكم بعد وفاة السلطان برغش.

كما كانت مصابيح الغاز من بين الابتكارات التقنية التي أدخلها السلطان برغش إلى مدينة ستون تاون، وذلك لإنارة السكك الضيقة والمظلمة. وقد اهتم السلطان بتسهيل الحركة والتنقل في الجزيرة، فأمر بإنشاء شبكة طرق، وأنشأ في عام 1879م سكة قطار يبلغ طولها 7 أميال، تمتد جنوباً من قصره في ستون تاون إلى تشوكواني. وفي بداية الأمر كانت هناك عربتا بولمان تجرّها البغال، ولكن بحلول عام 1881م أمر السلطان بجلب قاطرة من إنجلترا، والتي تعد الأولى من نوعها في شرق إفريقيا. وظل القطار يعمل عدة سنوات قبل أن يخرج والمقطورة من الخدمة عند وفاة السلطان في عام 1888م، ولكن ظلت فكرة السلطان في وجود قطار على الجزيرة حيّة لم تمت.

وبعد مضي خمسة عشر عاماً، وتحديدا في عام 1905م، قامت شركة أرنولد تشيني الأمريكية ببناء سكة قطار جديدة طولها 7 أميال، تمتد من ستون تاون حتى قرية بوبوبو على الساحل الشمالي. ويقطع قطار بوبوبو سكة الحديد سبع مرات في اليوم. وكان هذا القطار وسيلة النقل المفضلة لدى السكان، وقد أُضيفت عربة خاصة فئة الدرجة الأولى للركاب القادمين في السفن البخارية الراغبين في التجول وإلقاء نظرة سريعة على الجزيرة.

وأثناء بناء سكة الحديد مُدّت خطوط الكهرباء إلى جانب السكة، كما استبدلت في عام 1906م المصابيح الغازية، وحلّت مكانها المصابيح الكهربائية لإنارة الشوارع. ويجب التذكير هنا، أن هذه التطورات حدثت قبل سنوات طويلة من معرفة شوارع لندن تطورات مماثلة. وبتطوّر الشوارع وتزايد السيّارات في زنجبار، تلاشت شعبيّة قطار بوبوبو، إلى أن توقف نهائياً عن الخدمة في عام 1930م.



قطار بوبوبو الذي كان السكان يفضلونه كوسيلة نقل، واستخدموه بشكل واسع.



بيت العجائب

بيت العجائب في مطلع القرن العشرين.

يعد بيت العجائب الذي بُني في عام 1883م أبرز وأهم القصور الستة التي بناها السلطان برغش في الجزيرة، فهو أكبر وأطول مبنى في زنجبار، ويحتل مكانا بارزا على الواجهة البحريّة في الجهة المقابلة للميناء. وقد أقام فيه السلطان برغش واستخدمه كقصر يحتفي فيه بالحداثة، ثم صار رمزاً للحضور العُماني في زنجبار وشرق إفريقيا.

كان بيت العجائب أول مبنى تدخله الكهرباء في زنجبار، لذا كانت واجهة القصر في المساء تشع وتضيء ما حولها بشكل لافت وجميل. كما كان التنقل بين طوابق القصر المختلفة يتم عن طريق مصعد، هو الأول من نوعه في شرق إفريقيا. ونظرا لما يحتويه القصر من خصائص لم يعهدها الناس ولم يروا مثلها قط، اشتهر هذا القصر على وجه الخصوص بين الناس واكتسب بذلك تسميته ببيت العجائب.



صورة تاريخية التقطت قبل عام 1896م. تظهر بيت العجائب وهو في حالته الأولى التي بني عليها. وأضيفت المنارة إلى واجهة بيت العجائب بعد تهدم البرج في الحرب الإنجليزية-الزنجبارية في 27 أغسطس 1896.

لم تستمر الحرب الإنجليزية-الزنجبارية أكثر من أربعين دقيقة، لتكون أقصر حرب في التاريخ، وكان سببها المباشر موت السلطان الموالي للإنجليز حمد بن ثويني في 25 أغسطس 1896م، وتنصيب السلطان خالد بن برغش.

وعن تاريخه العجيب، وخصائص الفن المعماري التي تميّز أجزاءه، نجد له وصفاً دقيقا من قبل مؤسسة أركنت (Archnet)، وهي مؤسسة تكونت عبر شراكة بين أمانة أغا خان للثقافة، ومركز أغا خان للتوثيق:

"...ويُنسب تصميم مبنى بيت العجائب إلى مهندس معماري من البحرية البريطانية، ويقدم هيكله في الواقع أنماطاً معمارية جديدة أدخلت إلى زنجبار، من بينها الشرفات الخارجية الواسعة المدعّمة بأعمدة الحديد المصبوب، التي تحيط بالطابق الثاني، والتي ترفع السطح بشكل غير مسبوق. كما أن القصر مزوّد بالكهرباء التي تقوم بتشغيل المصعد. ويحتوي القصر أيضا على العديد من مصابيح الشمعدان التي تبرز من الجدران وتضيء محيط الشرفات. وتتكوّن المواد الأساسية التي بني عليها القصر من مزيج من صفائح الجير، والألواح الخرسانية، وقطع من خشب المانجروف أو البورتي، والقواعد الحديدية. ومع أن هذا المبنى أقيم ليكون شاهدا على الحسّ الحداثي للسلطان، إلا أنه يتضمن عناصر أخرى تقدّم قيمة إضافية وعمليّة للقصر، من بينها الممرات المغطاة التي تربط القصر ببيت الحكم، ثم من هناك ببيت الساحل،



صورة فوتوغرافية تاريخية التقطت عام 1896م.

بعد التحذير الأخير المرسل لخالد بن برغش بسبب رفضه التنحي عن السلطة، اندلعت الحرب في تمام الساعة التاسعة، وبعد مضي دقيقتين فقط توالى القصف من خمس سفن حربية، مما أدى إلى اندلاع الحريق بالقصر وتعطيل سلاح المدفعية.

أودت الحرب بحياة قرابة 500 شخص من قوات السلطان، في حين أصيب بحار إنجليزي واحد فقط. وحصل السلطان خالد على اللجوء من القنصلية الألمانية قبل هروبه إلى مستعمرة شرق إفريقيا الألمانية. وسريعا عيّن البريطانيون حمود بن محمد بن سعيد حاكماً جديداً على زنجبار.

بممشى علوي فوق الشارع، مما يسمح لسيّدات القصر بالتنقل بين القصور دون أن يراهن الناس. كما يقوم المبنى حول باحة كبيرة مغطّاة، تحيط بها معارض مفتوحة. وتحتوي الأبواب الداخلية على زخارف منحوتة نقشت عليها آيات قرآنية. كما جلبت أرضيات رخام القصر ومعظم الزخارف المطعمة بالفضة التي تزين القصر من الداخل من أوروبا.

وقد تهدم بيت الحكم بالكامل في قصف الحرب المسماة بالحرب الإنجليزية-الزنجبارية، والذي أتى كذلك على معظم أجزاء بيت الساحل، وألحق أضرارا طفيفة على بيت العجائب. ودمّر ذلك القصف أيضا المنارة التي كانت في الواجهة، وأضيف برج الساعة لاحقا إلى واجهة بيت العجائب في الموقع السابق للمنارة في عام 1897م. كما تحول المكان الذي كان عليه بيت الحكم إلى حديقة، وتقلّص كثيراً حجم القصر القديم الذي بجانبه، مما زاد من سطوة وبروز بيت العجائب..."[13].

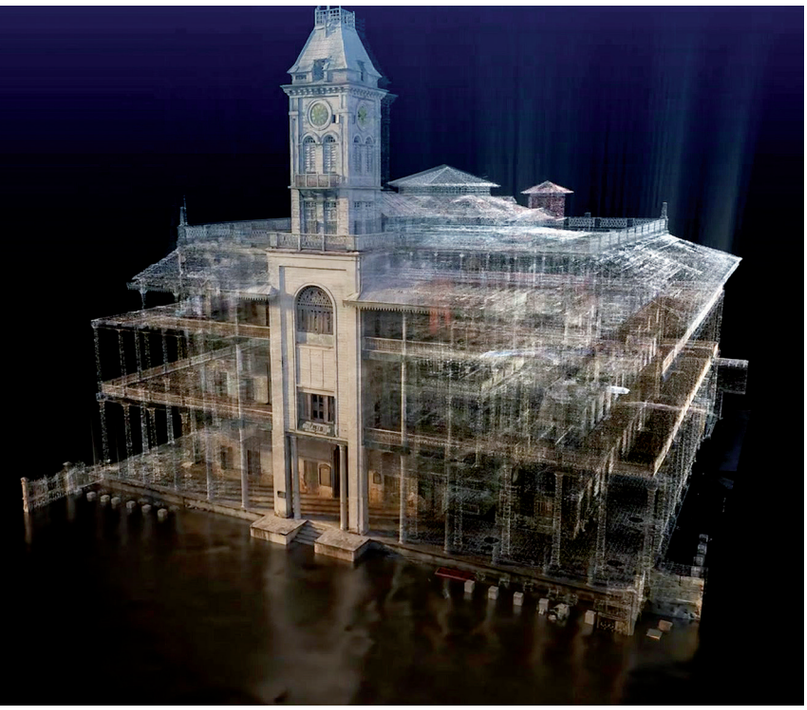
في عام 1911م حُوِّل بيت العجائب إلى مكاتب حكومية، ثمّ جُعل متحفاً إلى أن أغلق دون العامّة، خوفاً من خطر انهياره. وعلى الرغم من إدراجه ضمن قائمة التراث العالمي لليونيسكو، كونه جزءا من مدينة ستون تاون التاريخية، منذ عام 2000م، إلا أن الحكومة المحليّة لم تقم بأيّ جهد للحفاظ عليه. فقد كانت مياه الأمطار تتسرب إليه عبر السطح فضلا عن انهيار أجزاء منه وسقوط بعض الشرفات. ونظرا لتدهور حال بيت العجائب وبعض المباني التاريخية الأخرى، أصدرت اليونسكو إنذارا بإزالة مدينة ستون تاون من قائمة التراث العالمي في عام 2016م.

ونتيجة لذلك الإنذار وُضعت خطة للترميم بالتعاون مع منظمة اليونيسكو، وقررت سلطنة عُمان في عام 2019م المشاركة في جهود الحفاظ على بيت العجائب والمباني العُمانية التاريخية الأخرى، في واجهة الميناء، مقدمة بذلك تمويلا ماليا إضافيا لهذا المشروع الكبير وسخرت له الخبراء والدعم اللازم.

إلا أنه في يوم 25 ديسمبر من عام 2020م، بعد ثلاثة أيام تواصل فيها هطول الأمطار الغزيرة، تعرض الجدار الخارجي للزاوية الشمالية الغربية لبيت العجائب وكذلك برج الساعة إلى انهيار توفي في إثره شخصان، وتهدمت بالكامل أجزاء من المبنى تمثل قرابة 30% من بيت العجائب.

ولحسن الحظ أن مجموعة من المسّاحين المختصين من جامعة كيب تاون، بجنوب إفريقيا، كانوا قد أنجزوا مسبقا في صيف 2019م، مسحاً ضوئياً دقيقا ثلاثي الأبعاد، يعرف بتقنية الليدار(LiDAR) للمبنى بأكمله. كما أنجز الفريق نفسه مسحاً آخر في فبراير عام 2021م، لصالح اليونيسكو. وقد أظهرت بيانات القياسات التي أجريت على المبنى قبل وبعد الانهيار الأخير ضرراً لا يمكن ملاحظته بالعين المجرّدة، تمثل في عدم اتساق الأعمدة، وتغيّر في انفراج الزوايا، وهبوط في الأرضيات.





يمين

صورة جوية لجانب من سقوط بيت العجائب التقطت في فبراير 2021م.

يسار
تعتبر المسوحات الضوئية (الليدار) التي نفّذها مشروع "زماني" لجامعة كيب تاون مهمة وثمينة للغاية لمشروع إعادة إعمار بيت العجائب.

ويعتبر تيرا دوس سانتوس، رئيس مكتب اليونيسكو في تنزانيا، أن بيت العجائب يمثل مركز القيمة العالمية لمدينة ستون تاون بإعتبارها موقعًا تراثيًا عالميًّا.

وعليه فإن اليونيسكو تسعى لإعادته إلى مجده السابق. وتعمل حكومة زنجبار الآن على جعل حفظ هذا المبنى الشهير في رأس قائمة اهتماماتها. وأوضحت ليلى محمد، وزيرة التراث والسياحة في زنجبار، النتائج المترتبة على خسارة بيت العجائب، بأن المبنى يمثل وجه زنجبار، وانهياره يشبه طمس وجهها من خارطة العالم.

ويعّد رياض البوسعيدي، عضو اللجنة العلمية لترميم بيت العجائب بوزارة التراث والثقافة العُمانية (حاليا وزارة التراث والسياحة)، والذي نشأ في ستون تاون قريباً من القصر، أحد الأحياء القليلين الذين يعرفون التصميم الداخلي لبيت العجائب وأثاثه، والمقتنيات المعروضة فيه. ويمثل مكسبا كبيرا لمشروع الترميم.

رياض البوسعيدي

قصر رائع ومتواضع في آن واحد

لا يظهر بيت العجائب من الخارج بشكل يتباهى من خلاله بالعظمة المعمارية كما هي حال الكثير من القصور في أوروبا وفي الشرق، إذ إن واجهته المتواضعة تكذّب جماله وروعته من الداخل.

يظهر المبنى اعتياديا، وتقليديا على شكل مربّع، بباحة داخلية بارزة، تحيط بها عدة غرف. كما أن طرازه المعماري بسيط وغير لافت، وهو كالمساكن السلطانية الأخرى، مثل بيت المتوني، أيضاً لا يشار إليه بمسمّى "قصر"، بل بمسمّى "بيت". ويتسق هذا مع التواضع المعروف في التقاليد والثقافة العُمانية. وعلى ذلك يمكن الاستنتاج أن السيد برغش شارك في تصميم هذا المبنى.

يغلب على الداخل كما هو معتاد، فناء كبير مسقوف، تحيط به صالات مفتوحة، وقد جلب مهندسو البناء والعمّال المهرة من الهند. وشارك مهندس معماري من البحرية الملكية البريطانية في التصميم والإشراف على وضع الأعمدة الحديدية الكثيرة، وصب القواعد الحديدية.

كانت غرفة العرش في الطابق الأول، مواجهة للبحر، وكان بها أفخر السجّاد، وحوله الأرائك. وتتدلى من سطح غرفة العرش ثريّات الكريستال المجلوبة من النمسا.

وقد كانت كل مشكاة على الجدران الداخلية مزخرفة بمواد زينة نفيسة مما اشتراه السلطان بنفسه، أو تلقّاه هدية. وقد كسيت الجدران بين الأبواب حتى الشرفة بستائر مخملية.

وبعد القصف البريطاني، أُزيحت غرفة العرش كاملة، وقُسمت نصفين وذلك من أجل خلق مكان لبرج الساعة التي أضيفت لاحقا.

وكانت غرف السكنى مؤثّثة بأثاث فخم، يتألف من مزيج من الأثاث والزخارف الشرقية والأوروبية،



صورة جويّة لبيت العجائب، التقطت في عام 2019م.

ولها أبواب عديدة تنفتح على الشرفة ليدخل النسيم الاستوائي للغرف لتهويتها وتبريدها.

وتصف الكثير من السرديات بيت العجائب أنه كان قصراً للاحتفالات والمناسبات، لكن هذا ليس صحيحاً تماما؛ فقد اعتاد السيد برغش قضاء ثلاثة أسابيع من كل شهر على الأقل في هذا القصر، للقيام بشؤون الدولة.

ويضم بيت العجائب شققاً خاصّة للسلطان، وحاشية الأسرة من الموظفين الذين يقومون بالأعمال المنزلية اليومية. واعتاد السلطان أن يقيم يوميّ الاثنين والأربعاء برزتين غير رسميتين للاستماع والاستقبال، وبرزة رسميّة، في أثناء حكمه، كانت استعراضاً كبيراً بالملابس الملونة لموكب جنود الشرف، والفرقة الموسيقية العسكرية، واللباس الرسمي للحاضرين. ويتطلب حضور هذه البرزة الحصول على دعوة رسميّة. وربما قادت مثل هذه الإجراءات إلى وصف أحد الكتّاب الأوروبيين بيت العجائب بأنه قصر للاحتفالات والمناسبات الرسمية.

الصراع البريطاني-الألماني على شرق إفريقيا



عُرف كارل بيترس بين أفراد المجتمع في شرق إفريقيا بـ "مكونو وا دامو"، أي ذي اليد الملطخة بالدم.

أدى الدمار الذي لحق بالأسطول البحري والتجاري بسبب الإعصار الذي ضرب زنجبار في عام 1872م، إلى تراجع كبير لوضع سلطان زنجبار العسكري والاقتصادي. كما زاد افتتاح قناة السويس في عام 1869م الوضع المتأزم سوءاً، حيث تحولت طرق التجارة في المحيط الهندي إلى البحر الأحمر. وأثّر الطريق التجاري الجديد بين إفريقيا الوسطى والساحل الغربي على نهر الكونغو كذلك على التجارة التي كانت تعتمد على الطرق البريّة.

وتكالبت على السلطان برغش وخلفائه الظروف، وازدادت يوما بعد يوم صعوبة مقاومة الأطماع والحملات المتواصلة للقوى الاستعمارية الأوروبية للسيطرة على الأراضي في شرق إفريقيا، وعلى السياسة المحليّة في زنجبار.

وفي يونيو عام 1873م، وتحت التهديد بالحصار، وقّع السلطان برغش اتفاقية مع جون كيرك القائم بأعمال القنصل البريطاني، بمنع تجارة الرقيق في مملكته. وأغلق سوق الرقيق في مدينة ستون تاون على الفور.

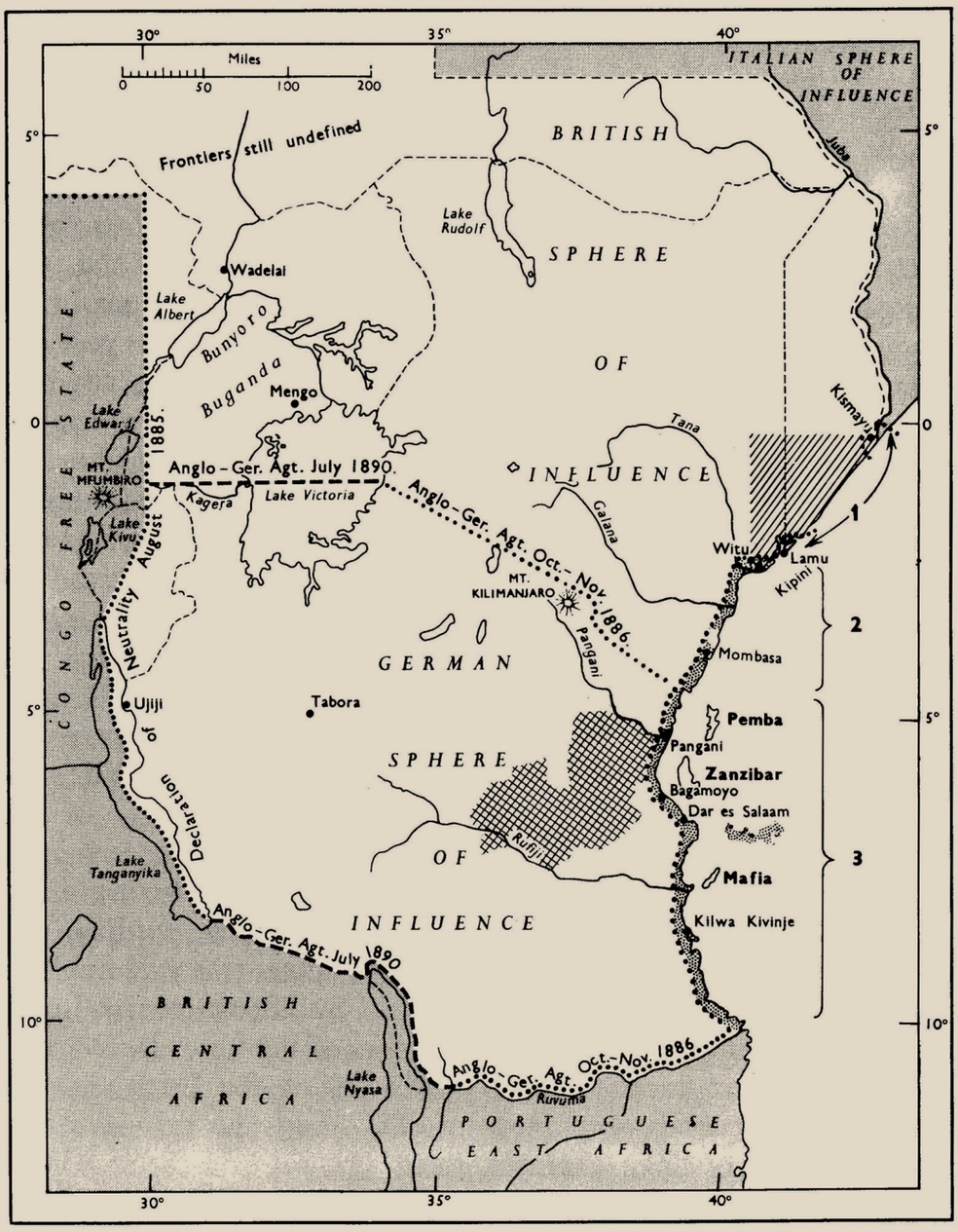
وبعد مرور عام واحد، سافر المغامر الألماني كارل بيتيرس، مع بعض مرافقيه في أنحاء شرق إفريقيا، مرورا على شرق بحيرة تانجانيقا وهو يحلم بأن تصبح الإمبراطورية الألمانية قوة استعمارية تقارع الإمبراطورية البريطانية. وقبل أن يبدأ رحلته، أسّس جمعية للاستعمار الألماني، يمثلها بنفسه. وكان قد قرأ بتمعن كتب هنري مورتون ستانلي، وتعلّم منها كيف استحوذ هذا الأخير على الأراضي لصالح الملك ليوبولد الثاني.

وبعد تبادل بعض الهدايا، وتحت تأثير الكحول، جعل بيترس الزعماء الإفريقيين يوقعون وثائق صداقة مكتوبة باللغة الألمانية، يعلنون فيها أن أراضيهم تقع تحت (الحماية) الألمانية. ضمنت هذه العقود المبرمة في تفاصيلها وعودا للزعماء بالحماية من أعدائهم، إلا أنه في مقابل ذلك صيغت حقوق جمعية الاستعمار بطريقة يعطيها كامل الحق ومطلق الحرية في فرض الرسوم والضرائب، وإقامة نظام قضائي وإداري، واحضار قوات مسلحة إلى البلاد، والسماح للمستوطنين استغلال جميع الموارد والثروات التي يتم العثور عليها في الجبال والأنهار والبحيرات والغابات بالطريقة التي يريدونها.

وضع بيترس جهوده واتفاقياته في شركته المشكّلة حديثاً، شركة شرق إفريقيا الألمانية، في فبراير 1885م، وصدّقت الحكومة الألمانية على استحواذاته، في خطاب استعماري تحت غطاء الحماية. وبعد شهرين فقط، وضعت مدينة ويتو الواقعة على ساحل كينيا بالقرب من لامو، تحت الحماية الألمانية الرسميّة.

وعندما حاول السلطان برغش الاعتراض على تقسيم شرق إفريقيا بين بريطانيا وألمانيا، أرسل المستشار بسمارك خمس بارجات حربية إلى زنجبار، وأمر بتوجيه مدافعها إلى قصره، ولم يكن له خيار سوى الرضوخ للأمر الواقع.

وقد قضى الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وألمانيا بتاريخ 29 ديسمبر 1886م، بأن يقتصر نفوذ السلطان في حدود شريط يمتد 10 أميال فقط من الساحل، من موزمبيق البرتغالية صعوداً إلى نهر تانا، وبعض المدن على الساحل الصومالي.



MAP. 15. Partition of East Africa, 1884–1891

..... Agreements of 1885/1886. – – – – Agreements of 1890/1891.

Approximate area claimed by Germany as Witu Protectorate October 1889. German claim renounced, July 1890.

Approximate area claimed by Germany under protectorate of February 1885.

Sultan of Zanzibar's coastal dominions as acknowledged by Anglo-German-French Delimitation Commission, 1886.

1 Zanzibar northern Ports leased to I.B.E.A. Co. 1889.

2 Northern coastline of Zanzibar leased to I.B.E.A. Co. 1887.

3 Southern coastline of Zanzibar leased to German E.A. Co. April 1888. Sold to Germany December 1890.

خريطة مطبوعة في (تاريخ شرق إفريقيا)، المجلد الأول، مطبعة جامعة أوكسفورد، 1963م.



البشير بن سالم الحارثي

وبعد أربعة أسابيع من وفاة السلطان برغش في 26 مارس 1888م، أُرغم خليفته السلطان خليفة بن سعيد على توقيع معاهدة يوافق بموجبها على تأجير شركة شرق إفريقيا الألمانية جزءا من الساحل مقابل رسوم سنوية. ونفّذ هذا الاتفاق في أغسطس 1888م، على الرغم من عدم قبول السكان به. وازداد الأمر سوءً عندما أساء مدير هذه الشركة الألماني في بانجاني، إميل فون زيليويسكي، بشدّة إلى السكان بدخوله إلى المسجد ومعه كلبه في أثناء صلاة العيد. ولم يتمكن بعدها من رفع علم شركته في المدينة إلاّ بالقوّة وبمساندة من الجيش الألماني.

وقامت الثورة في الساحل كلّه من مدينة تانجة في الشمال إلى ليندي وميكيداني في الجنوب. وقد قاد هذه الاحتجاجات ضد (الحماة) الألمان وسلطان زنجبار، أحد ملاك المزارع العُمانيين في زنجبار وهو البشير بن سالم الحارثي، الذي كسب مساندة العرب في المنطقة والسكان من القبائل المحلية السواحيلية. وبحلول ديسمبر عام 1888م لم يتبق أحد من أفراد شركة شرق إفريقيا الألمانية إلا فر خارج البلاد أو سقط قتيلا، باستثناء بعض الألمان في بجامويو ودار السلام لوجود البحرية الألمانية هناك. وغدا جليّاً أن الشركة لم تعد قادرة على حماية المصالح الألمانية في شرق إفريقيا، وعليه تقدّم بيترس بطلب المساعدة من الحكومة الألمانية.

وعقب هذه الأحداث، قرّر المستشار الألماني أوتو فون بسمارك في فبراير عام 1889م، وضع كتيبة خاصة في شرق إفريقيا بقيادة الملازم هيرمان ويزمان ، في منصب المفوّض الألماني في شرق إفريقيا، وضمت قواته ضباطاً ألمانا، وجنوداً مرتزقة، استؤجروا من مصر وموزمبيق، بالإضافة إلى إسناد من البحرية الألمانية والبحرية الملكية البريطانية.



شُنق البشير بن سالم الحارثي علنا في بانجاني، وهو المكان الذي انطلقت منه الثورة ضد الوجود الألماني.

وعلى الرغم من تفوّق القوة العسكرية للألمان، لم يتمكن ويزمان من مواجهة الثورة بالسرعة المطلوبة. وما كان للبشير الحارثي أن يقع في الأسر إلا بسبب خيانة وقعت في عام 1889م. وقد حُكم عليه بالإعدام شنقا بحكم محكمة عسكرية، وتم تنفيذ الحكم علناً في بنجاني.

وفي 20 نوفمبر 1890م كان على شركة إفريقيا الشرقية الألمانية أن تسلّم الإدارة في تانجنيقا إلى الحكومة الألمانية. واستغرق الأمر حتى بداية عام 1891م، عندما تمكن ويزمان أخيرا من رفع تقرير يفيد أن الثوّار قد قضي عليهم، وأصبحت ألمانيا الآن تمتلك سيطرة تامة على محميّتها في الساحل.

ولم يكن جميع العرب العُمانيين في الساحل مناصرين لانتفاضة البشير الحارثي ضد الألمان؛ إذ خشي الارستقراطيون العرب وملاّك الأراضي من أن تسبب انتفاضته انقلاباً على السلطة، ويتعرضون بذلك إلى خسارة في ممتلكاتهم ومصالحهم، وكان هذا الفريق يقوده سليمان بن ناصر اللمكي، والي بنجاني.

أدرك كلا الجانبين، الألماني والعُماني، ضرورة وجود قدر من التنسيق المشترك والقبول بينهما مستقبلا. وأُعيد ترتيب الإدارة الألمانية الاستعمارية في السنوات التي تلت بناء على الخبرات المستفادة من الإدارة التابعة للسلطان، ومن أراء النخبة من العُمانيين والأفارقة في مراكز الإدارة الجديدة.



سليمان بن ناصر اللمكي.

وفي هذا الخصوص بدأ سليمان بن ناصر اللمكي الوساطة بين الجانبين، وسريعاً ما اعتبر الألمانُ اللمكيَ "وكيلهم المباشر" فشغل منصب الوالي لعقدين من الزمان، على باجامويو ودار السلام، المدينة التي طوّرت لتكون عاصمة شرق إفريقيا الألمانية.

وكما حدث تماما في دولة الكونغو الحرّة، فقد أُجبر الرقيق (المحرّرون) من شرق إفريقيا على العمل الشاق ولكن هذه المرة عن طريق النظام الاستعماري الألماني. وفي عام 1891م، عُيّن كارل بيترس مندوباً في منطقة كليمانجارو. وتميّزت إدارته بالقسوة مع السكان المحليين، والاستخدام البربري للعقاب بالقتل. وارتبط هذا السلوك القاسي بأسباب تتعلق بشخصيته، ما دفع لإطلاق لقب سواحيلي عليه هو "مكونو وا دامو"، أي ذو اليد الملطخة بالدم، وفي الأخير خسر بيترس سلطته السياسية.

وأُمر بيترس بالعودة إلى ألمانيا في عام 1892م، وقادت تحقيقات المحكمة الاستعمارية لاحقا إلى الاستغناء عن خدماته. ومع أن بيترس غادر تانجنيقا، ظلت امبراطوريتا ألمانيا وبريطانيا تحكمان القبضة على شرق إفريقيا. وفي 1 نوفمبر 1890م، أُعلنت الحماية البريطانية على زنجبار التي خسر سلطانها جميع صلاحياته السياسية تقريباً.

أما الشواهد الدالة على التبادل الثقافي والمادي والتأثير المتبادل بين الثقافات العُمانية والإفريقية والسواحيلية فقد تطورت واستقرت عبر مئات السنين، ولا يمكن تجاوزها بالتضليل ولا بقوة الجيوش.

الفصل الرابع



الإرث العُماني في حاضر شرق إفريقيا

استمرار النفوذ تحت الإدارة البريطانية

كانت معظم الأراضي التابعة للسلطان في ساحل شرق إفريقيا تحت إدارة البريطانيين منذ عام 1887م، بموجب حق الامتياز الممنوح لمؤسسة شرق إفريقيا البريطانية لمدة 50 عاماً لإدارة وتنظيم التجارة في المنطقة. وكانت جميع هذه الأنشطة تنفذ باسم السلطان وباستخدام راية علمه.

وبمرور السنوات، تغيّر الوضع القانوني، وأصبح الساحل الذي تحكمه بريطانيا، المعروف بمحافظة سيّدي، جزءاً من محميّة شرق إفريقيا البريطانية، وعاصمتها ممباسا، الواقعة في الجزء الأقصى لأحد أهم الطرق التجارية إلى إفريقيا الوسطى.

ورغم احتفاظ المسؤولين البريطانيين بجميع المناصب الرئيسة في الإدارة، إلا أن سيادة السلطان ظلّت محترمة ومحافظاً عليها، وذلك بسبب ما نصت عليه اتفاقية تعود إلى عام 1895م، بضرورة الحفاظ على الأسلوب الذي وضعه السلطان لتنظيم القضاء والإدارة المحلية، وأن يظلّ ذلك الأسلوب سارياً، بما في ذلك تعيين السلطان لموظفي هذه الإدارات. كما نصت الاتفاقية على ضرورة استماع هؤلاء الموظفين من القضاة والولاة، الذين يمثلون السلطان، لشكاوى الشعب ومطالبهم، وأن يضمنوا سريان القانون والنظام، واستمرار التجارة وتدفق الضرائب إلى الدولة. ويمثل الولاة، على وجه الخصوص، لسكان الساحل نقطة التواصل المباشرة مع السلطان في زنجبار، وكذلك مع الإدارة البريطانية. وللولاة مكاتب في جميع المدن الرئيسة لمحافظة سيّدي، وفي رأس هذا النظام الإداري والٍ لعموم الساحل، يتخذ من ممباسا مقرا له.

كان الشيخ مبارك الهناوي (1896-1959م) ممثلاً لسلطان زنجبار لفترة امتدت إلى 22 عاماً، فقد شغل منصب والي ممباسا (1937-1941م)، ثم والياً على عموم الساحل (1941-1959م). وقدّم طوال هذه الفترة مساهمات جليلة في تعزيز التعايش والتفاهم بين مختلف فئات السكان، وفي المحافظة على الثقافة السواحيلية الفريدة من نوعها، والتي تأثرت كثيراً على مدى العصور بالحضور العُماني في شرق إفريقيا.

رعاية التعليم الحديث



السيد علي ابن سالم البوسعيدي

قاد تأسيس المحميّة إلى نشوء نظامين متوازيين من أنظمة الإدارة هما النظام الاستعماري البريطاني، والنظام البيروقراطي الذي وضعه السلطان سعيد بن سلطان. وعلى الرغم من اختلاف النظامين وتمايزهما عن بعضهما البعض، إلا أنه لم يكن من الممكن لأحدهما أن يعمل بمعزل عن الآخر، وبمعزل عن الشعب. ومنذ البداية، برزت تحديات التواصل والتناغم بين النظامين، ولم يكن حلّ تلك التحديات أمراً سهلاً.

وقد لخّص الأستاذ الدكتور ذو الفقار حرجي، الذي درس عدة مصادر متصلة بهذا الموضوع، هذه التحديات على النحو التالي:

"حلّت تحت الإدارة البريطانية، اللغة الإنجليزية محل اللغتين العربية والسواحيلية (التي كانت تكتب بحروف عربية) فيما يتصل بالأمور الإدارية اليومية. وعندما اكتشف البريطانيون أن من يُتقن اللغة الإنجليزية من السكان المحليين قلّة قليلة، اتّجهوا إلى توظيف كَتَبَة من الهند لإدارة أنشطة الخدمة المدنية؛ وكان هؤلاء الهنود الذين استعين بهم يتقنون الإنجليزية تحدثا وكتابة، وقد تدربوا على الأعمال الإدارية تحت الحكم الاستعماري البريطاني الذي تأسس في الهند البريطانية. ومن بين القيادات العربية كان السيد علي بن سالم البوسعيدي الذي أدرك ضرورة أن يكون لدى العرب وغيرهم من السكان المحليين إلمام ومعرفة جيّدة بالإنجليزية، وأن يحصلوا على تعليم نوعي، إذا ما أرادوا أن يحتفظوا بدور وقدر من الوجاهة في إدارة الساحل. إلا أن هذا النوع من التعليم لم يكن متوفّراً سوى في المدارس التي كانت تديرها مراكز التنصير المحليّة، ويرفض معظم مسلمي الساحل إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، خوفاً من تأثّر أبنائهم بثقافة معلميهم، وبالتالي ابتعاد هؤلاء الناشئة عن معتقداتهم"[1].

كان السيد علي بن سالم البوسعيدي يمثل سلطان زنجبار عندما كان والياً على ممباسا خلال الفترة من 1920م إلى 1922م، ثم عند تعيينه والياً على الساحل في الفترة من 1922م إلى 1930م. وقد خلف والده في هذا المنصب الذي كان هو الآخر واليا عند بداية الحكم الاستعماري البريطاني. لذا كان على معرفة بالأساليب البريطانية، وملما بلغتهم، فضلا عن كيفية التعامل مع التحدّيات التي تظهر باستمرار في التعامل معهم.

وإدراكا من السيد علي بن سالم البوسعيدي للحاجة إلى تكييف أساليب الحياة العربية التقليدية والتعليم مع المعايير الدولية المتقدمة، فقد عزم على تحقيق هذا الهدف، وتمت خلال فترة ولايته إعادة هيكلة ممباسا؛ وذلك من أجل تلبية وتوفير احتياجات المستقبل، ونُقل الميناء من موقعه في المدينة القديمة في كليندیني، واستبدلت الأسواق القديمة ليحلّ محلها سوق كبير هو سوق ماكينون، الذي طبّق معايير صحة عالية، وما زال يستخدم حتى الآن. وقد أوقف السيد علي بن سالم أول مستشفى للولادة في ممباسا، الذي بُني عام 1929م.



لمحة عن سوق ماكينون في ممباسا اليوم.

إلا أنه رأى أن الأولوية الكبرى تتمثل في الاهتمام بالتعليم، وإدخال التعليم الحديث إلى المدارس، وتقديم هذه المدارس إلى المجتمعات العربية. وفي عام 1903م أسّس مكتبة سيف بن سالم، وهي أول مكتبة عامّة في ممباسا. وبعد عمل دؤوب، افتتحت في عام 1912م أول



حي طريق كليندييني القديم في ممباسا، حيث نشأ وترعرع مبارك الهناوي.

مدرسة عربية أبوابها في المدينة. وبحلول عام 1919م أنشأ السيد علي بن سالم مدرسة في ماليندي تحمل اسمه، وما زالت تسمى باسمه حتى يومنا هذا.

لكن هذه الجهود الكبيرة لم تغيّر واقع أن مدارس الإرساليات التنصيرية، التي تعتمد اللغة الإنجليزية في التدريس، يقصدها بشكل أكبر الأفارقة الذين دخلوا في المسيحية، في حين ظل المسلمون يتلقون تعليمهم في مدارس القرآن التقليدية؛ مما أدى إلى تزايد ابتعاد العرب عن النظام الإداري في الساحل. ولم يكن من سبيل إلى إيجاد حل لسوء التفاهم الحاصل، وقلة التواصل بين النظامين الإداريين الحاكمين حينها سوى عن طريق توظيف جيل جديد من العرب ممن تلقى تعليما عصريا حديثا.

وترجمة لذلك، فقد أيّد السيد علي بن سالم الخطة التي تقدّمت بها أرملة من قبيلة الهناويين، وهي ابنة محمد بن علي بن منصور، لإرسال ابنها الوحيد مبارك إلى مدرسة بوكستون الثانوية التابعة لإحدى الإرساليات النصرانية، والتي تُقدّم جميع الدروس فيها باللغة الإنجليزية. وقد أدرك فورا الصغير مبارك أهمية هذا التعليم الحديث له ولزملائه من الصغار الذين في مثل عمره.

وعندما افتتح البريطانيون مدرسة للعرب في ممباسا، تردد العرب وامتنعوا عن إرسال أبنائهم إليها، لذا نصح مبارك الهناوي مدير المدرسة بإدخال التدريس باللغة العربية إلى جانب الإنجليزية، والإهتمام بتدريس تعاليم الدين الإسلامي، لكي يقتنع الآباء بإرسال أبنائهم إلى هذه المدرسة. ولحاجة مدير المدرسة لمن يقنع الآباء، عمد إلى الاستعانة بمبارك وتوظيفه في المدرسة. ولأجل أن يقبل مبارك بذلك، فقد أقنع بدوره مدير المدرسة بأن يتلقى على يديه دروسا في اللغة العربية والدين الإسلامي.



مبارك الهناوي صغيراً

وبعد الحرب العالمية الأولى، تحديداً في عام 1918م، وقع مبارك الهناوي في دائرة الاهتمام البريطاني حيث كان يتقن الإنجليزية، والعربية، والسواحيلية، وأثبت جدارته وكفاءته. لذا؛ طُلب منه الانضمام إلى الخدمات المدنية البريطانية. ولا يجب تفسير موافقته على الانضمام للإدارة البريطانية على أنها عدم إخلاص للسلطان، أو تحديا ونكرانا لأصوله العربية، بل على النقيض تماما، فهو تمييز حصل عليه ويستطيع من خلاله التأثير بشكل أكبر على النخبة الحاكمة، وخدمة مصالح أسرته ومجتمعه بالتوفيق بين المجتمعات البريطانية والعربية والسواحيلية. ولم يجر بباله أبداً، في ذلك الوقت، أنه سيخلف السيد علي بن سالم البوسعيدي ممثلاً للسلطان على الساحل.

الأستاذ الدكتور ذو الفقار حيرجي

بين إمبراطوريتين، والقومية الإفريقية

ازدادت قوة ونطاق تأثير الدور الذي يؤديه الشيخ مبارك الهناوي بمرور الأعوام نظرا لتوليه المزيد من المسؤوليات، وبدأ في فهم وإدراك طرق التعامل مع الصعوبات والقضايا والتحدّيات التي تواجه العلاقة المعقّدة بين البريطانيين والمجتمعات المحلية، وكذلك علاقة البريطانيين بسلطان زنجبار التي طالما شهدت تطورات مستمرة.

لقد وجد الهناوي نفسه بمرور الوقت، في خضم هذه القوى المختلفة، وقد مالت تطلّعاته وآماله ورغباته لخدمة مجتمعه العربي في الشريط الساحلي في شرق إفريقيا. لكن السؤال هو: كيف يستطيع الحفاظ على التركيبة الثقافية العالمية للمجتمع الذي نشأ هو فيه بنفسه؟

وربما تفاجأ بعض الشيء عندما عيّنه السيد علي بن سالم البوسعيدي خلفا له، وأظن أنه لم يتصوّر حدوث ذلك؛ نظرا لأن العادة جرت أن هذه المناصب تشغل بالتوريث، فتذهب لأحد الأبناء أو الأقرب من أبناء العمومة. وعندما وجد الشيخ مبارك الهناوي نفسه في هذا الوضع، أدرك أنه يتوجب عليه التركيز على الأمور التي تمثل أهمية كبيرة من مسؤوليات ومهام ومبادئ تتعلق برعاية مجتمعه، وواجباته تجاه الأمور التي تشغل مجموعات السكان باختلاف خلفياتهم الثقافية، والتي تقصده طلباً للنصيحة وإيصال أصواتهم إلى الحكومة في الأمور التي تمس معيشتهم وحياتهم اليومية. وكان متجاوبا معهم جميعاً على الوجه الذي رأى أنه من واجبه أن يفعل ذلك.



أعضاء من إدارة السلطان في المحميّة الساحلية، ومسؤولون بريطانيون في بيت حكومة ممباسا في عام 1959م. ويظهر الشيخ مبارك الهناوي (الثالث من اليسار) جالسا في الصفّ الأمامي.

وكان تركيزه يتمحور حول ضمان بقائه وفيّاً لمبادئه، وألا يكون منحازاً، وإن اقتضى الأمر أن يوجّه النقد لأحد أفراد عائلته، وأن يضع الوفاء لوظيفته ومسؤولياتها قبل الولاءات التي قد تجعل الناس يظنون أو حتى تساورهم الشكوك أنه لم يكن عادلاً.

وربما كان الشيخ مبارك الهناوي مدركاً أن البريطانيين كانوا يمارسون سياستهم اعتمادا على مبدأ "فرّق تسد" في ساحل شرق إفريقيا، كما فعلوا في أماكن أخرى. وتمثل عمله السياسي الصارم في ضمان أن البريطانيين لا يجدون الفرصة لممارسة هذه اللعبة في الساحل. ولهذا فقد كان لزاماً عليه أن يكون متقدماً عليهم خطوة للأمام، وألاّ يسمح لهم بالالتفاف عليه بحيلهم، لأنهم إن فعلوا ذلك ومارسوا تلكم الحيل في السياسات المحلية، فسوف ينجحون في تفكيك الروابط والولاءات الهشّة التي بنيت وتم الحفاظ عليها خلال سنوات طويلة بين المجتمعات المحليّة من العرب والسواحيليين وغيرهم من السكان الذين عاشوا على ساحل شرق إفريقيا، وممباسا على وجه الخصوص.

لقد تشكلت شخصية الشيخ مبارك الهناوي بفعل عدة مؤثرات، فرغم انتمائه إلى الأصول العربية العُمانية إلا أنه يدرك -بالقدر نفسه- أنه يعيش في وطن بثقافة سواحيلية، ففي شرق إفريقيا حينها كانت الثقافتان العربية والسواحيلية متمازجتان؛ فالثقافة العربية هي ثقافة سواحيلية، والثقافة السواحيلية هي الأخرى ثقافة عربية.



الشيخ مبارك الهناوي يرافق الملكة الأم في أثناء زيارتها المحمية الساحلية البريطانية في فبراير 1959م.

وكان الهناوي متحدثاً بليغاً باللغة السواحيلية، وأبرز الباحثين فيها في شرق إفريقيا قاطبة، فقد جمع مخطوطات من شعر ونثر، وغيرها من الوثائق التي كتبت باللغة السواحيلية، وكان مهتماً بالعادات والتقاليد والممارسات السواحيلية، وكتب عنها ودوّنها. وهو عندما يقرر أن الثقافة العربية مهمة، فهو لا يعني أنها أهم من غيرها، وإنما يقول للبريطانيين إنها تضاهي في أهميتها ثقافة المجتمعات السواحيلية التي تقطن الساحل والتي يعد البريطانيون أفرادها السكان الأصليين، في حين يعد الشيخ مبارك الهناوي أفراد المجتمعات العربية في شرق إفريقيا من السكان الأصليين أيضا، تماما مثل أبناء المجتمعات الإفريقية، الذين استوطنوا الساحل قبل وصول العرب في موجات عديدة خلال آلاف السنين.

عيّن سلطانُ زنجبار الشيخَ مبارك الهناوي ممثلاً له على الشريط الساحلي لشرق إفريقيا على أن يكون مقرّه في ممباسا، وذلك كان ولاؤه الأول، فقلبه كان مع سلطنة زنجبار وليس مع البريطانيين، لكنه أدرك أن البريطانيين جاؤوا إلى هناك لكي يبقوا. فأصبحت مهمته أن يعمل جاهداً لكي يُفهم البريطانيين أن الحاكم الأول والرئيس لهذا الشريط الساحلي ولجزيرة زنجبار والأراضي الأخرى هو السلطان، وأن دوره في الإدارة يقتضي التوضيح للبريطانيين أن دورهم لا يتعدى إدارة المحميّة.

وقد شهدت الإمبراطورية البريطانية في أربعينيات القرن العشرين تغييرات كبيرة لعل من أبرزها النقلة الكبيرة التي حدثت في جنوب آسيا، وهو صعود "الحركة الوطنية الهندية"، وانقسام الهند وباكستان، وما تبع ذلك من مطالبة العديد من الدول الإفريقية باستقلالها عن البريطانيين. وفي السياق نفسه عُقد مؤتمر إفريقيا الموّحدة عام 1948م، الذي حضره الشيخ مبارك الهناوي، ودفعه لأن يتبيّن أن القومية في أجزاء معيّنة من العالم قد تصبح شكلاً من الوطنية العرقية أو العنصرية.

وقد أدرك الهناوي أنه في بعض المناطق من العالم كما هو الحال في شرق إفريقيا، يوجد خليط عالمي من السكان لا يطابق النموذج الخاص بأشكال القومية، وهذا سيسبب مشكلة كبيرة وخطيرة.

وفي ساحل شرق إفريقيا بدأت المنظمة الأفرو-آسيوية، والمنظمة القُمرية ومنظمات المجتمع المدني بإعداد خطط عمل سياسية، والمطالبة بحق تمثيل مجتمعاتها العرقية. فأضحى كلٌّ يريد أن تكون هويته ممثَّلة بشكل أكبر. وقد أسهم هذا التطور بشكل كبير في تفكك وانقسام سكان الساحل عن بعضهم البعض، وذلك أمر عمل البريطانيون على تعزيزه، فقد كانت لديهم خطة تقسيم الناس إلى مواطنين أصليين وغير أصليين. والأصليون بالنسبة لهم هم السود الأفارقة.



يظهر الشيخ مبارك الهناوي في الصورة (الرابع من اليمين في الصف الثاني) مع الملك جورج الرابع ومجموعة من أعضاء مجالس السلطة التشريعية للمحميات والمستعمرات الإفريقية البريطانية، في مؤتمر إفريقيا بلندن عام 1948م.





الشيخ مبارك الهناوي يتفقد حرس الشرف في أثناء برزة العيد السنوية، منتصف الخمسينيات من القرن العشرين.

أدرك الشيخ مبارك الهناوي أن هذه فرصة وتحد في الوقت ذاته؛ فهي فرصة لأنه يستطيع الآن تقديم نفسه لتمثيل جميع هذه الطوائف، وهي كذلك تحدّ، بالنظر إلى هويته الخاصة؛ إذ سينظر إليه على أنه فرد من إحدى تلك الطوائف. وقد بذل أقصى ما بوسعه لصياغة سياسة تمثيل جامعة لا مفرّقة، لكنه في نهاية المطاف، ونتيجة لتوجّه القومية في شرق إفريقيا وأماكن أخرى، لم يكن من الممكن أن يطبق المنهج الذي أراده وخطط له.

ومما يجب أن نتذكره عن حياة الشيخ مبارك الهناوي، أنه في الواقع، شكّل نظرة العالم إلى ما يعنيه المجتمع، وكان له تأثير كبير على اللغة والثقافة والسياسة، وعلى أبنائه، وعلى كلّ من عمل معه. وما زال الناس يتذكرونه بأنه الشخص الذي جمع الناس معاً، وهذا إرث مهم دون شك.

يسار
جرت العادة أنه كلما زار السلطان خليفة بن حارب الأراضي التابعة له في كينيا، يدعى إلى تناول الغداء في منزل الشيخ مبارك الهناوي.



انطلقت إذاعة (صوت ممباسا) في عام 1952م، بأمر من والي الساحل، الشيخ مبارك الهناوي، والتي كانت تقدم في بداياتها برنامجاً يمتد ساعة واحدة للعرب والمسلمين. وتضمنت برامج الإذاعة الأخبار باللغة العربية، والموسيقى العربية والسواحيلية، وبثّ احتفالات العيدين؛ الفطر والأضحى واحتفالات المولد النبوي السنوية في لامو. وقد استخدم الشيخ مبارك الهناوي الإذاعة بشكل اعتيادي، لتوصيل رسائله التي تعزّز الهويّة السواحيلية في الوقت الذي كانت تتزايد فيه الدعوات إلى القومية.

ووصل البثّ في منتصف خمسينيات القرن العشرين إلى الصومال، وتانجنيقا، وزنجبار، وبيمبا. كما أنها كذلك عبرت المحيط الهندي حتى وصلت إلى جنوب الجزيرة العربية.



معهد ممباسا للتعليم الإسلامي في أوائل خمسينيات القرن العشرين.

تطوير التعليم وإدخال التعليم التقني

وفي أواخر عام 1928م سافر الشيخ مبارك الهناوي إلى زنجبار للزواج بسعادة الحرّاصية، وهي ابنة عمّ زوجة السلطان الثانية. وكانت هذه المناسبة فرصة له لكي يلتقي لأول مرّة بالسلطان السيّد خليفة الثاني بن حارب البوسعيدي، الذي كان حاكما متمدّناً ومنفتحاً، ومهتماً بالتقنيات الحديثة والأنشطة الدبلوماسية، والتعليم العصري.



سعادة بنت علي بن سالم الحراصي، قريبة السلطانة نونو بنت أحمد بن سالم البوسعيدي، الزوجة الثانية للسلطان خليفة الثاني بن حارب البوسعيدي.

وقبل عام واحد من هذا اللقاء، افتتحت في زنجبار مدرسة البنات العربية، وهي أول مدرسة حكومية للبنات، وكان الدعم من السلطان ومن النخبة العربية التي تتعاون مع المسؤولين البريطانيين مطلوباً بقوة لافتتاح المدرسة واقناع الآباء المتشككين. إن النجاح المبكّر للمدرسة فيما يتصل بتزايد أعداد الملتحقين إليها والرضا الشعبي على افتتاحها، فاجأ المسؤولين البريطانيين الذين اعتقدوا أن المسلمين سيعارضون تدريس بناتهم، إلا أن وجهات النظر عند العرب قد تبدلت حينها، وأصبح الاستثمار في تعليم الأولاد والبنات مسألة تتعلق بالمكانة الاجتماعية لدى النخبة من العرب والسواحيليين.

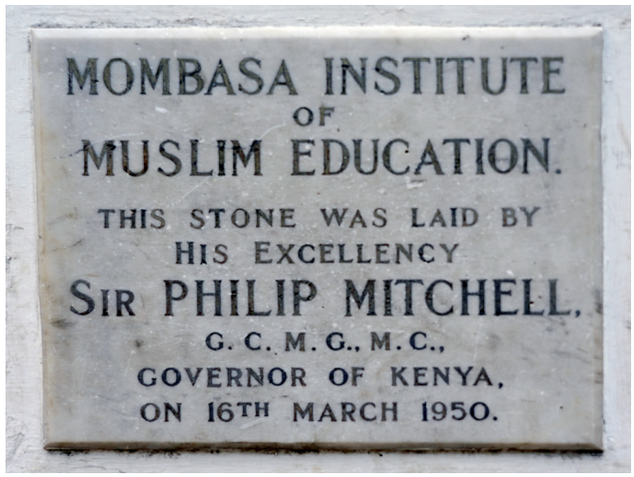
ومع ذلك، فإن بلوغ هدف التعليم التقني الحديث، بما يتوافق مع المعايير الغربية ويتناسب مع المجتمعات العربية، ويتفق مع واجبات المسلم الملتزم، لا يزال بعيداً. ولم يتحقق ذلك إلا في عام 1950م، حيث سافر السلطان خليفة وهو في عمر 70 سنة، إلى ممباسا ليدشّن رسميّاً افتتاح معهد ممباسا للتعليم الإسلامي، أول معهد عال للتعليم التقني والمهني للمسلمين في الساحل. وكان الشيخ مبارك الهناوي الذي عُيّن والياً للسلطان على الساحل في عام 1941م، قد شرع فورا بعد تعيينه في العمل على فكرة تأسيس المعهد. وحيث إنه كان عضواً مؤسساً للمعهد فقد نجح في استقطاب الطوائف المتعددة للمجتمع الساحلي. وكان من العوامل الحاسمة لتحقيق المشروع نجاحه في الحصول على أرض بمساحة 34 فداناً في موقع مرتفع في ممباسا لتقام عليه مباني المعهد.





صور من معهد ممباسا للتعليم الاسلامي التقطت في 2019م





يسار
طلاب في حرم معهد ممباسا، 2019.





صور من معهد ممباسا للتعليم الاسلامي التقطت في 2019م.

"يشير بناء معهد ممباسا للتعليم الإسلامي على طراز العمارة الأموية إلى رعاته المسلمين. وعلى غرار جمعية رعاية شرق إفريقيا، جسّد معهد ممباسا للتعليم الإسلامي التعاون بين علماء وقادة مختلف المجتمعات الإسلامية وهم سلطان زنجبار، والأغا خان، وزعماء طائفة البهرة. كما كان المعهد مدعوما من قبل الحكومة البريطانية عبر وزارة المالية والسير فيليب ميتشيل، الذي شغل منصب أول رئيس لمجلس الإدارة. وكان شعار المعهد: لكل مجتهد نصيب. ومن التخصصات الأولى التي درسها المعهد النجارة، والهندسة، والإبحار والملاحة، والتجارة البحرية. وتتوفّر في المعهد أماكن لأداء الصلوات، ويقدم مقررات عن الدين الإسلامي واللغة العربية"[2].

وفي مايو 1951م استقبل معهد ممباسا للتعليم الإسلامي أول دفعة مكونة من مائتي (200) طالب في برامجه التقنية.





الشعار الأصلي لمعهد ممباسا الإسلامي مع رموز للهندسة والملاحة في الأعلى وعبارة «لكل مجتهد نصيب».

ومرّ المعهد بعدد من التطورات شملت اسمه، وبرامجه الدراسية. ففي عام 1966م، كان المعهد ضمن مقاطعة سيدي التي تشمل الساحل الذي يتبع سكانه السلطان رسمياً، والتابع لدولة كينيا حاليّاً، وكان اسم المعهد "معهد ممباسا التقني"، وبدأ بقبول الطلاب بغض النظر عن خلفياتهم الدينية. وفي عام 1976م أصبح اسم المعهد "معهد ممباسا للعلوم التطبيقية"، وضم وقتها أقساما عدة، منها: قسم دراسات إدارة الأعمال، والكهرباء والإلكترونيات والهندسة، والبناء والهندسة المدنية، والعلوم الميكانيكية والتطبيقية. وتم ترفيع المعهد ليكون كلية جامعية بتاريخ 23 أغسطس 2007م. أما في عام 2013 فقد تحول معهد ممباسا الإسلامي إلى الجامعة التقنية لممباسا.

وبغض النظر عن كل هذه التغييرات فإن هيكل المعهد الذي تشكّل في عام 1940م، ما زال يخدم احتياجات البلد، ويبلغ عدد طلبته اليوم 14000 طالب، يدرسون على فترتين في اليوم.

تمرير القناعات الشخصية

حرص الشيخ مبارك الهناوي على توفير أفضل تعليم عصري لأبنائه، وكان من أوائل العرب في ممباسا الذين أدخلوا بناتهم إلى مدراس الإرساليات، وقد واصلت ثلاث من بناته تعليمهن والتحقن بالدراسة الجامعية. وحظي ابنه البكر فريد بتعليم مميز قاده إلى مسار وظيفي ناجح.

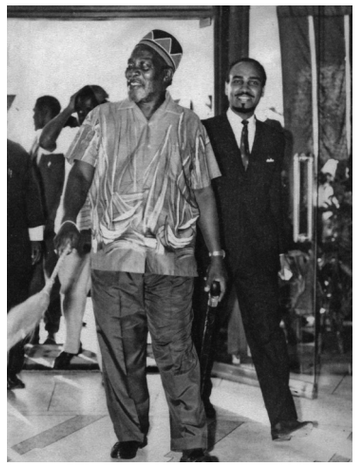
فقد سافر الشيخ مبارك الهناوي في عام 1938م إلى مصر لكي يلتحق ابنه فريد، الذي لم يتجاوز ربيعه الخامس وقتها، بكلية فكتوريا المرموقة في الإسكندرية، وهي كلية بناها الإنجليز لإعداد قادة المستقبل في المنطقة، وكان شعارها: "نحن جميعا شعب واحد". ومن أشهر خريجي هذه الكلية الناقد إدوارد سعيد، والملك حسين الأول ملك الأردن.

وأصبح فريد هذا الصبي الصغير، أول شرق إفريقيّ قُبل طالباً في كلية فكتوريا، وسيقضي سنوات طويلة بعيدا بآلاف الكيلومترات عن وطنه الأم. وقد تحقق هذا الأمر نتيجة الصداقة التي جمعت والده بمصطفى النحاس باشا الذي احتضنه وعامله على أنه أحد أبنائه وفردا من أفراد عائلته. وقد شغل النحاس باشا منصب رئيس الوزراء في الفترة بين 1928م و1952م على فترات مختلفة. وبهذا الشكل نشأ فريد في مناخ دولي وسياسي في الوقت نفسه. وبعد أن أكمل دراسته في عام 1948م سافر إلى لندن ليقضي بها سنتين لدراسة القانون، قبل أن يعود إلى كينيا عام 1960م، للالتحاق بالسلك الدبلوماسي.

وفي 12 ديسمبر 1963م، أصبحت كينيا مستقلة ورئيسها الأول جومو كينياتا. وقبل الاستقلال كان كينياتا والشيخ مبارك الهناوي قد تقابلا عدة مرات لمناقشة وضع أسس انتقال سلس للشريط الساحلي إلى الدولة الجديدة.

وأخيراً عندما قاد كينياتا كينيا نحو الاستقلال ركّز على أهمية ثقافة الحوار، التي نشرها أيضا الشيخ مبارك الهناوي. ففي أحد خطاباته للشعب قال كينياتا:

"ألتمس من كل واحد منكم- أبيض أو أسمر أو أسود- بصفتكم مواطنين كينيين أن تتحدوا، وأن تعملوا بانسجام في سبيل تقدم بلادنا.
أريد أن أخبركم أنه من غير هذا التعاون، ومن غير العمل المشترك لن نستطيع خدمة بلدنا.
لن نتقدم في أيّ اتجاه، إن لم نعمل بروح الفريق الواحد.
علينا أن نتعلم مسامحة بعضنا البعض، وعلينا أن نتبنى طريقة الأخذ والعطاء"[3].



فريد بن مبارك الهناوي مع جومو كينياتا، في أواخر ستينيات القرن العشرين.

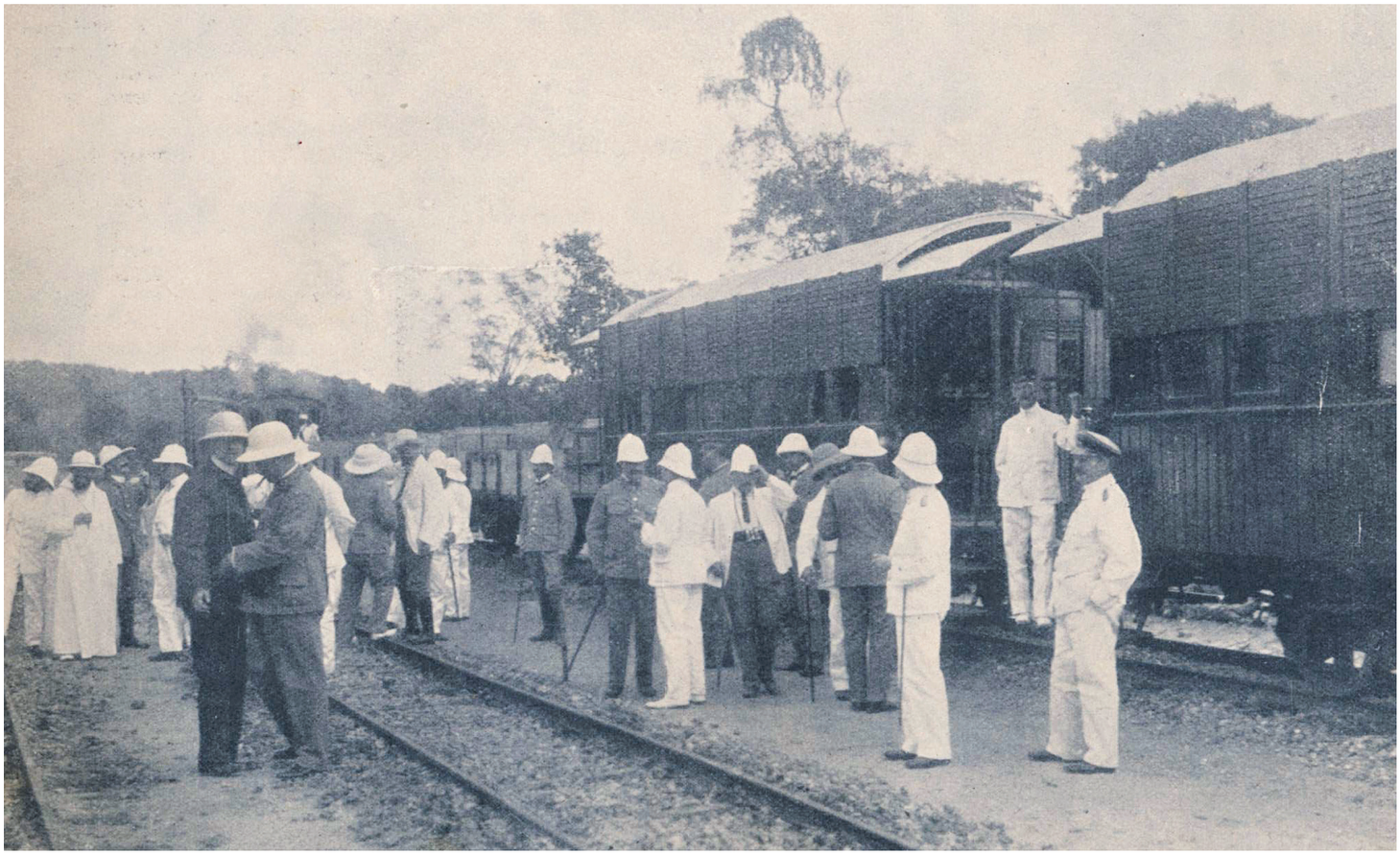
وأصبحت روح العمل المشترك ممثّلة في فريد الهناوي، عندما عيّنه كينياتا رئيساً للتشريفات لديه، ثم سفيراً لدى الكونغو ومصر وعدد من الدول العربية. وعندما بدأ السلطان قابوس بناء الدولة العصرية الجديدة، سلطنة عُمان، في سبعينيات القرن الماضي، عاد فريد إلى عُمان موطن أجداده.

وهناك دعاه السلطان قابوس للخدمة في السلك الدبلوماسي الذي شكّله السلطان حديثاً. وصار فريد الهناوي ثانية سفيراً لدى مصر، لكنه هذه المرة ممثلٌ لسلطنة عُمان.

الوساطة عند نشوب النزاعات وتعارض المصالح

بحلول عام 1890م تمكّنت القوى الاستعمارية الألمانية والبريطانية من بسط حمايتها على الأراضي التي يحكمها سلطان زنجبار، واستغلال البلاد وثرواتها الطبيعية الثمينة، وأخذ رعايا الدولتين الاستعماريتين في بناء سكة حديدية من الساحل حتى المناطق النائية في البرّ. فقطعت عربات تجانيقا الألمانية مسافة 1250 كيلومترا من دار السلام إلى كيجوما، على الساحل الشرقي لبحيرة تنجانيقا. وقد وصل القطار إلى هناك في فبراير 1914م، وكان ذلك قبل أشهر قليلة من اندلاع الحرب العالمية الأولى. أما قطار أوغندا البريطانية بامتداد 940 كيلومتراً، فقد كان جاهزاً منذ عام 1901م، لربط ممباسا بكيسومو، على الساحل الشرقي لبحيرة فكتوريا. وسرعان ما أصبح هذان الخطان بمثابة العمود الفقري لهاتين المحميّتين، وكان لبنائهما آثار كبيرة جداً على التطوّر في المنطقة وعلى الساحل، خصوصاً قطار أوغندا.

وقبل السكة الحديدية كانت نيروبي مستنقعا غير مأهول بالسكان، أما اليوم فهي أكبر مدينة في كينيا، حيث يتجاوز عدد سكانها 4 ملايين نسمة. وقد بدأ بناء خط القطار في ممباسا عام 1869م. وتحوّل مرفأ المدينة الصغير إلى ميناء حديث وحيوي، وبنيت المخازن، وأنشأت السكنات للعمّال، وفُتحت وُرش الإصلاح ومعامل التصنيع، إلا أن تكلفة البناء، التي بلغت 5.3 مليون جنيه استرليني، كانت ضعف الميزانية المقدّرة.



مسافرون ينتظرون في محطة البداية لقطار تانجنيقا في دار السلام.
صورة مأخوذة من مقالة عن جاهزية قطار تنجانيقا الألمانية، منشورة في مجلة أسبوعية ألمانية، يرجع تاريخها إلى 14 فبراير، 1914م، وبعد خسارة ألمانيا الحرب عام 1918، أصبحت الأراضي الألمانية في شرق إفريقيا وسكة حديد تانجنيقا جزءاً من شرق إفريقيا البريطانية.

ومن أجل تغطية الكلفة العالية، كان أحد خيارات البريطانيين هو بيع الأرض المهملة على طول الساحل لتحقيق تطوير اقتصادي زراعي استعماري، وبالتالي فإن الأرض البكر الخصبة التي من الممكن زراعتها وحصادها عدة مرات في السنة، والتي جذبت العُمانيين إلى الساحل منذ آلاف السنين، تجذب الآن الكثير من الأوروبيين. وبالنسبة للأوروبيين أيضا، فإن شرق إفريقيا يبدو كأنه جنة عدن، إلا أن طريقتهم في الاستحواذ على الأرض خلقت الكثير من النزاعات الممتدة.

فقد كانت مساحات شاسعة من الأراضي - التي أعلن أنها غير مملوكة لأحد أو مهملة، وعليه بيعت لمزارعين - ملكا لعائلات عربية وإفريقية وسواحيلية، وبالتالي فهذه الأراضي لم تكن في حقيقتها مهملة بل لم تكن في موسم الاستغلال الزراعي في الوقت الذي جمع البريطانيون بيانات عنها.

وقبل وصول البريطانيين كانت حيازة الأراضي على طول الشريط الساحلي خاضعة للقانون العرفي السواحيلي والشريعة الإسلامية، ولم تكن تلك الحيازات مسجّلة. وبالتالي فإن تطبيق النظام البريطاني لإصدار سندات تملك الأراضي فشل تماماً، وقاد إلى آلاف النزاعات. وفي الفترة الواقعة بين 1910 و1921م، سجّلت محكمة سجلات الأراضي في ممباسا 9367 شكوى في شرق إفريقيا.

ولم يحدث شيء كهذا عندما استوطن العُمانيون هذه المنطقة منذ آلاف السنين قبل البريطانيين، وذلك لسبب بسيط وواضح يتلخص في أن المهاجرين من الجزيرة العربية حصلوا على حقوق ملكيات الأراضي باحترام الملكيات والأعراف المحلية عن طريق الشراء أو الزواج.

وللفصل في هذا الطوفان من النزاعات على الأراضي وضعت الإدارة البريطانية مجالس إقليمية لفصل النزاعات على الأراضي. وتعتمد هذه المؤسسات القانونية على موظفي جمع بيانات مدربين، ويمتلكون معرفة بالثقافة والتراث لشعب الساحل، ومدركين لقوانين الإدارة البريطانية، ومتمكنين من التواصل المباشر مع أطراف النزاع بالعربية والسواحيلية والإنجليزية.

وكان أحد القلّة القادرين على فعل ذلك في تلك الأيام الشيخ مبارك الهناوي، الذي التحق بالخدمة المدنية البريطانية بعد أن قضى الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، وكان حينها حامياً لقطار أوغندا. وبعد هذا مباشرة، عُيّن مساعداً عربيّاً في مجلس فصل نزاعات الأراضي لجزيرة ممباسا، ونائبا للرئيس لمجلس فصل النزاعات للشريط الساحلي لمحافظة سيدي الذي يمتد مسافة 10 أميال ويتبع رسميا سلطان زنجبار.

وبحكم موقعه وتوليه هذين المنصبين وغيرهما من المناصب اكتسب الشيخ مبارك الهناوي خبرة واسعة في الوساطة بين الإدارة البريطانية والطوائف العرقية المختلفة، وخاصة في طريقة البريطانيين في التعامل مع النزاعات، وتوجهاتهم واستراتيجيات النقاش لديهم.

وفي عام 1913م اختارت الإدارة البريطانية الشيخ مبارك الهناوي ليكون أحد الأعضاء الاثنين الممثلين للعرب والسواحيليين، ليدعى إلى لجنة الاختيار المشتركة لمجلسي البرلمان الخاصة بالاتحاد الوثيق في شرق إفريقيا، ومقرّها لندن. وهدفت هذه اللجنة لاعتماد آفاق التعاون السياسي والاقتصادي بين المستعمرات والمحميات البريطانية المتعددة، وتوفير معلومات مؤكّدة عن الوضع على الأرض.

وفي كلمته شكا الشيخ مبارك الهناوي من الوضع الذي عليه فقراء الناس الذين خسروا منازلهم نتيجة لبناء الطرق، ولم يجدوا أي تعويض مقابل ذلك. وأكّد كذلك على حقيقة الوضع الخاص بالشريط الساحل الممتد 10 أميال، وهو محميّة كينيا، حيث كان هذا الشريط، حسب الاتفاق البريطاني، تحت تبعية سلطان زنجبار، وأن أي تخلّ عن هذه الأراضي سيبدو للكيانات الأخرى في شرق إفريقيا اختراقاً لشروط العقد مع السلطان، ويمس صلاحياته مباشرة.

رياض البوسعيدي

السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي



رافق السيّد خليفة ابن عمه وزوج أخته السلطان علي بن حمود لحضور مراسم تتويج الملك جورج الخامس في لندن في مايو 1911م. ونتيجة لمرضه فقد قطع السلطان علي رحلته في باريس، وقرّر التنازل عن العرش. وواصل السيّد خليفة، ممثّلاً لسلطان زنجبار، الرحلة لحضور التتويج. وقد عرض عليه البريطانيون العرش في ديسمبر 1911م. وكالسلاطين الأربعة السابقين، فقد أُلزم بتوقيع تعّهد ولاء للتاج البريطاني.

وحكم السلطان خليفة الثاني زنجبار فترة طويلة، إذ امتد حكمه من 1911م إلى 1960م.

أحب السلطان خليفة الرياضة كثيراً لكنه لم يملك الوقت الكافي لممارسة الرياضات المفضّلة لديه، وخاصة ركوب الخيل.

وكان بحّاراً متحمساً، ويبحر كثيراً بيخته الخاص الذي كان رشيقاً وسريعاً. وحينما يشارك في مسابقات الإبحار المحليّة، التي كان من المعتاد أن يفوز بها، لكنه بعد أن يثبت تقدّمه يبطئ سرعته، بروح رياضية وباحترام، ليتيح المجال للمنافسين الآخرين أن يفوزوا بالسباق. وهناك الكثير من الأمثلة التي تظهر هذه الروح عنده.

وكان إلى جانب اهتماماته الأخرى، مولعاً بجمع طوابع البريد، ويمتلك الكثير من الألبومات لها. وبعدما زادت مهام إدارة الدولة وزاد إرهاقها توقف عن جمع طوابع البريد. وعندما علم أنني أحب جمع الطوابع أخذ يجمعها لي من الرسائل ومن بطاقات المعايدة بمولد المسيح التي كانت تتدفق من مختلف أرجاء العالم.

وكان من عادة السلطان أن يزور بشكل منتظم الأماكن التي كانت لا تزال تحت سلطته وإدارته. كما دأب السلطان خليفة على حضور حفلات تتويج ملوك بريطانيا، وكان من آخر المناسبات التي حضرها حفل تتويج كل من الملك جورج السادس والملكة اليزابيث الثانية. وقد زار العديد من الدول في أثناء حكمه، وكان دائماً محل تقدير وإجلال في كل مكان زاره. وبشكل عام كان السلطان شخصاً حيويّاً وعاشقاً للحياة.

ولم يكن سلطاناً حكيما فقط، بل كان صبوراً ويعرف كيف يوازن بين صلاحياته المحدودة ومصلحة بلده وشعبه. فعلى سبيل المثال في سنة 1913م قرّر الحاكم البريطاني أن زنجبار حالها حال بقية المحميات، ستخضع لإدارة المكتب الاستعماري. وأدرك السلطان خليفة أن زنجبار، من الآن وصاعداً، ستخضع للحاكم البريطاني، فلم



لقاء السلطان خليفة بالسلطان سعيد بن تيمور، سلطان عُمان، في فندق كيمبرلاند، بلندن، في أغسطس 1960م،
من اليسار لليمين: عمر (حارس السلطان خليفة) والشيخ سعيد بن علي المغيري (مرافق السلطان خليفة)، ممثّل الحكومة البريطانية، والسلطان خليفة بن حارب، سلطان زنجبار، والمساعد الشخصي لسلطان عُمان، السلطان سعيد بن تيمور، سلطان عُمان، والكولونيل ألكسندر، المساعد الشخصي لسلطان زنجبار.



السلطان خليفة يترأس مجلس الحكم في بيت العجائب، عام 1920م تقريباً، وقد اعتاد مجلس الحكم أن يجتمع في يوم الإثنين من الأسبوع الأول من كل شهر.



أسفل
علم وعليه شعار السلطان خليفة.
يسار
السلطان خليفة قبل ركوبه سيارته
الأوستن السوداء.



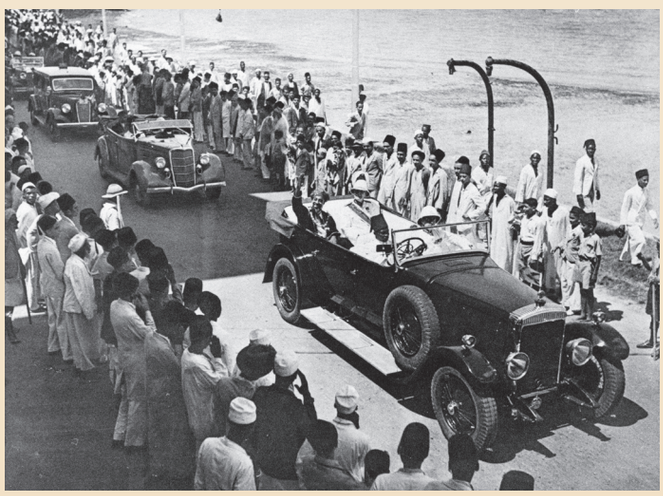
يعجبه ذلك. وهنا تحرك لإقناع البريطانيين أن يشكّلوا مجلس حماية برئاسة السلطان، وأن يكون المقيم البريطاني نائباً له. والواقع أن البريطانيين سيستمرون في إدارة زنجبار، لكن السلطان سيحتفظ برئاسة صورية مع صلاحيات محدودة.

لقد أعطى السلطان خليفة احتراماً كبيراً لأتباعه، ويبدو هذا جليّا في السنوات التي ظهرت فيها الأحزاب السياسية المعارضة. إذ تمكّن من التعامل مع تلك الأحزاب، وعمل شخصيا بمثابة قوة تحافظ على الاستقرار.

تمتّع السلطان خليفة بعلاقة طيبة مع العديد من الأسر الحاكمة، وأتذكر أن الأغا خان، محمد شاه الثالث عندما يأتي إلى زنجبار كانا يقضيان أوقاتاً طويلة معاً. وفي وقت العصر كانا يخرجان في جولة بالسيارة، أو يلتقيان في قصر كيبويني، دون مرافقين. والملك الآخر الذي اعتاد أن يزوره هو الكباكا (ملك البوغندا) الذي كان معجباً بالسلطان خليفة. وفي سنة 1956م زار الكباكا زنجبار ومعه ابنه، الكاباكا ميتيمبو الثاني، الملك الحالي. وطُلب مني وقتها قضاء الوقت معه، لأننا كنا صغيرين حينها ونتقارب في السن.

وللسلطان خليفة ثلاثة أبناء من زوجته الأولى السيّدة معتوقة بنت حمود البوسعيدي، توفي اثنان منهما في طفولتهما، بينما عاش السيّد عبدالله الذي خلف والده في الحكم عام 1960م. وبعد وفاة زوجته الأولى، تزوّج بالسيّدة نونو بن أحمد البوسعيدي.

وتوفي السلطان خليفة في ستون تاون عن عمر يناهز 81 سنة، في 9 أكتوبر 1960م.



الاحتفال باليوبيل الفضي في عام 1936م.



السلطان خليفة على العرش وحرمه السيّدة نونو.

تطورت جهود الشيخ مبارك الهناوي ومهاراته في الحفاظ على الوحدة بين أطياف المجتمع المختلفة، بعد تعيينه والياً على ممباسا عام 1937م، ثم والياً على عموم الساحل عام 1941م. لكن هذه الجهود واجهت على الدوام السياسة البريطانية القائمة على مبدأ "فرّق تسد"، التي تحكم من خلالها وتسيطر على من تحكمهم، وذلك بكسر الولاءات القويّة بين المكوّنات العرقية والاجتماعية المتعدّدة في شرق إفريقيا. وشيئاً فشيئاً نجحت الجهود البريطانية في زعزعة تلك الولاءات وهزّت ذلك الإحساس بالانتماء للمكونات العرقية المختلفة.

وحتى عام 1910م، كان القانون البريطاني يوحد في المعاملة بين العرب والأفارقة بأطيافهم المختلفة. ثم بعد عشر سنوات وجد العرب أنفسهم مصنّفين سكاناً غير أصليين لأغراض تتصل بفرض الضرائب، ومصنّفين سكاناً أصليين فيما يتصل بـ"قانون الإجراءات الجنائية".

ولكن كيف يمكن تحديد العربي والسواحيلي والإفريقي، في مجتمع يوّحد بين البشر باختلاف أعراقهم وثقافاتهم ولغاتهم؟ يتطلّب الاستعمار تحديداً صارماً للهويات معتمداً التسلسلات الهرمية الأوروبية للعرق والطبقة والدين والإثنيّة، وهو تحديد مهم جداً للبريطانيين لأنه يضمن استعلاء البيض على الشعوب المستعمرة، لكنه في ذات الوقت يمزق مجتمعاً متعدد الأعراق قرونا ممتدة.

وقد تزايد انعدام الأمان أثناء الحرب العالميّة الثانية عندما صارت ممباسا مركزاً رئيساً لدعم البحرية البريطانية وقواتها الجوّية في منطقة آسيا وإفريقيا. ونتيجة لحركة التنقل الكبيرة بين الجنود نقصت المواد الغذائية والاحتياجات الأخرى. واعتمد الناس وقتها على الشيخ مبارك الهناوي في مساعدتهم ورفع شكواهم إلى البريطانيين.



الشيخ مبارك ملازماً ثانياً عام 1940م. وبعد خدمة دامت بضعة شهور فقط، طلب الإعفاء من الخدمة العسكرية، ليتفرّغ بشكل كامل لخدمة السكّان.



برزة غير رسميّة في منزل الشيخ مبارك الهناوي.

ويتذكّر خليفة بن مبارك الهناوي قائلا: "خلال الحرب كان والدي يعقد البرزة بشكل يومي تقريباً، يلتقي فيها بالمسنين، ويتعرف على أحوال الناس ومخاوفهم، ويحاول أن يطمئنهم ويحل مشاكلهم".

والبرزة تقليد سواحيلي عربي قديم، يجتمع خلالها الجيران في أوقات محدّدة ويتبادلون العلوم والأخبار، ويناقشون المشاكل المجتمعية ويحلونها. استمرت هذه البرزة في بيت مبارك حتى بعد انتهاء الحرب.

ويذكر الأستاذ الدكتور ذوالفقار حيرجي، الذي كتب سيرة مبارك الهناوي:

"مثل هذه التجمعّات يشارك فيها الأفراد الذكور من العرب والسواحيليين والجماعات الأخرى، وهناك جلسات يحضرها الوالي لمناقشة مختلف القضايا. وفي البرزة التي تعقد بشكل يومي يمكن للمرء أن يستمع إلى الأخبار عما يدور في المجتمع، كما يمكنه أن يقدّم ما لديه من أخبار أيضاً. وبالنسبة للوالي فهي تعد شكلاً من أشكال التعرّف على أحوال الناس بشكل مباشر ومعرفة آرائهم وانطباعاتهم. كما تُبرم في البرزة أحياناً عقود الزواج، وتنشر أخبار المواليد والوفيات، وكذلك تحلّ فيها المنازعات الصغيرة. وبعد عقد من تنصيب الشيخ مبارك والياً على الساحل، كان يعقد برزته في منزله الجديد في الجهة المقابلة للبحر، في ممباسا القديمة على شارع فاسكودي جاما، الذي تغيّر اسمه لاحقاً ليكون شارع السير مبارك الهناوي"[4].

وما زال المكان حتى اليوم أمام بيت الشيخ مبارك على الواجهة البحرية في مرفأ ممباسا القديمة عامراً بالجلسات. وقد خصّص أبناء مبارك الهناوي ساحة لبرزة الجيران بشكل يومي، حيث يجتمع الرجال عصر كل يوم لتبادل الأحاديث وإطلاق النكات، ويستمع الشباب إلى الموسيقى ويتبادلون الجديد منها.



مكان البرزة أمام بيت الشيخ مبارك الهناوي، الذي أقام فيه حتى وفاته، ولا يزال أحفاده يملكونه.





الشيخ مبارك الهناوي يغادر قاعة اليوبيل ومعه بعض من الرجال العرب في ممباسا، في برزة العيد أواخر خمسينيات القرن العشرين.

لقد كان ترؤس الشيخ مبارك الهناوي لبرزات العيد الرسميّة في ممباسا أمرا في غاية الأهمية للسكان، حيث تنعقد البرزة مرتين في كل عام؛ في عيد الفطر وعيد الأضحى، وفي هاتين المناسبتين كان يتم تجديد الاعتراف بالسيادة التعاقدية للسلطان على عموم الساحل، وفيهما أيضا كان والي الساحل يتفقد بنفسه حرس الشرف الخاص به.

"أصبحت برزات العيد هي المناسبات التي يؤكد فيها البريطانيون بشكل علنيّ تزايد دور السلطنة المهم والمؤثر في المحميّة. في المقابل، فإن إقامة والي الساحل هذه المناسبات وترؤسه لها يمثل تذكيراً رمزياً للبريطانيين باتفاقية 1895م التي وقعتها مع السلطنة"[5].

ومن التقاليد الثابتة للبرزة، استقبال الشيخ مبارك لعدد من الشخصيات الاعتبارية في قاعة اليوبيل، بعد مراسم الاحتفال الرسمية. ويمثل هذا الاستقبال فرصة دائمة للوالي ليتحدث مع ممثلين لمجموعات عرقية متعددة تعيش في محيط مسؤولياته.



وعلى خطى الآباء، يدعو خليفة نجل مبارك الهناوي، الأصدقاء وبعض الأفراد من المجتمع المسلم في ممباسا إلى بيت أبيه مبارك بعد برزة عيد الفطر.

وبعد الاجتماع في قاعة اليوبيل اعتاد الشيخ مبارك الذهاب إلى مسجد المنذري للصلاة مع مسلمي ممباسا، قبل أن يدعوهم إلى منزله لتناول القهوة والخفائف. وهذه العادة استمرت أيضا لأعوام حتى وفاة الشيخ مبارك الهناوي عام 1959م.

وفي نهاية القرن العشرين تراجع الاهتمام ببرزة عيد الفطر تحديدا، حينما كان محافظ ممباسا نجيب بلالا، لكن عندما أصبح السياسي الكيني حسن علي جوهو محافظا لمقاطعة ممباسا عام 2013م، استعادت برزة عيد الفطر ألقها وأهميتها السابقة بين الناس.



قبل برزة العيد تقوم في كل سنة لجنة مكونة من مجموعة من المواطنين في ممباسا بجمع مطالب السكان واحتياجاتهم، وتدوين الملاحظات حول الآثار التي ترتبت على تنفيذ القرارات السياسية والاجتماعية ونتائجها. وفي البرزة نفسها يواجه الحاكم بنقاط النقد، ويتوقع منه أن يرد عليها بشكل مقنع ومرض، وتشارك النساء هي الأخرى أيضاً في هذه المناسبة.



المحافظ حسن علي جوهو متحدثاً إلى الحاضرين في برزة العيد عام 2019م.

وفي مقابلة أجريت له في عام 2019م، قدّم المحافظ حسن جوهو أفكاره حول أهمية برزة العيد السنوية في ممباسا في هذا العصر:

"إن الشيخ مبارك الهناوي هو أول من أقام برزة العيد، فقد جمع الناس معاً، وأتاح لهم فرصة التعبير عن آرائهم حول ما جرى خلال عام كامل من شهر رمضان حتى حلوله مرة أخرى، وترك لهم أيضا المجال ليفصحوا عن خططهم لتطوير المدينة في ذلك الوقت.

وعليه نواصل ما بدأه الشيخ مبارك، أولاً للتعبير عن تاريخنا، وثانيا لاستثمار الفرصة للتعليق، سياسياً واجتماعياً، على ما تشهده المدينة وما نريد لها في المستقبل.

والفكرة الأساس هي أن نتحدث معاً، ونعيش معاً، ويحترم كل واحد منا الآخر، ونقدر ثقافة بعضنا البعض، وجهودنا المختلفة.

إن شعب ممباسا، وجميع السكان في الشريط الممتد 10 أميال، مرتبطون بالشعب العُماني، والأسر كذلك مترابطة. وبالنسبة لنا، فإن العلاقات التاريخية مهمة جداً، ونحن نحملها معنا، فلم نفقد هويّتنا كشعب، ولم نفقد تأثيرنا وثقافتنا عبر الزمان، وذلك هو مكمن قوتنا"[6].



يجتمع أكثر من ألف نسمة من سكان ممباسا، رجالا ونساء، صغاراً وكباراً، كل عام، لحضور الاحتفالات الدينية والنقاشات في برزة عيد الفطر.







ومن بين القضايا الرئيسة التي نوقشت بشكل علني في برزة العيد في ممباسا عام 2019م كانت قضية نقص المياه العذبة في المدينة. وكان المحافظ جوهو قد بدأ بالفعل مشروعاً لبناء محطة تحلية لممباسا، لكن الناس كانوا قلقين من أن يغرق المشروع في وحل البيروقراطية ولا يرى النور أبداً، وبالتالي فقد أصرّ الناس عليه أن يكثّف جهوده لكي ينفّذ المشروع في السنوات الثلاث المتبقية قبل انتهاء فترته.

وقبل ستين سنة تقريباً، وفي فترة الشيخ مبارك الهنواي، جرت مناقشة ساخنة متصلة بالماء في مجلس المدينة، وقد قادت إلى هدم كامل لمدينة ممباسا القديمة تقريباً.



تفاصيل خرائط إحدى الخطط الأصلية لنظام الصرف الصحي لممباسا. توضّح الخطة مواقع البيوت، التي تعبرها خطوط حمراء، تحدّد مجرى الأنابيب، واتجاهات تدفقها المقررة.



تنحدر أراضي ممباسا باتجاه الساحل، وتصب المياه المتجمعة في الأنابيب الممدودة تحت الشوارع في البحر.

كان التزايد الهائل لسكان ممباسا يتطلب تطويرا سريعاً للبنية التحتية، حيث بلغ عدد السكان فيها 27000 نسمة في عام 1900م، ثم ارتفع إلى 47000 نسمة في عام 1930م، وتضاعف هذا الرقم في عام 1946م ليصل 100,000 نسمة. وتمثلت المشكلة الأساسية التي تتطلب حلاً في خلو المدينة من نظام صرف صحي جيّد، إذ كانت جميع بيوت ممباسا في ذلك الزمان لديها مراحيض الحفر البدائية، وهي بلا شك خطر صحيّ كبير يجب عدم إغفاله. ولحل هذه المشكلة برزت بعض الأصوات البريطانية في الإدارة تقترح محواً شاملاً لممباسا القديمة، وإعادة تسكين القاطنين بها. وقتها وقف الوالي مبارك الهناوي بحزم ضد هذه الفكرة، مؤكدا أن ممباسا القديمة ترمز لتراث متميّز متعدد الثقافات في الساحل، ويجب الحفاظ عليه، وعمد إلى إقناع الحكومة البريطانية لتصميم نظام صرف صحي شامل وتنفيذه.



تشير أغطية المجاري على شكل أسهم إلى القنوات الرئيسة، وإلى اتجاه تدفقها.

استغرق التخطيط والتنفيذ سنوات عديدة، ولكي ينجح النظام الجديد فرضت إدارة الصحة على جميع الملاّك أن يردموا بالإسمنت مراحيض الحفر البدائية في بيوتهم، ثم يربطوا أنابيب الصرف الصحي لبيوتهم بالأنابيب المركزية، وبالتالي ارتبطت الأنابيب الصغيرة للبيوت ببعضها مشكّلة خمسة أنابيب رئيسة مربوطة بأربع محطات دفع إلى المحطة الرئيسة للمعالجة.

وكان الوالي الشيخ مبارك الهناوي، هو القوة الموجّهة لهذا المشروع، لكن من المؤسف أنه لم ير في حياته النظام وقد اكتمل وبدأ العمل، لأنه مات في نوفمبر 1959م، بينما اشتغل النظام في أواخر ستينيات القرن العشرين.

ويلخّص الدكتور كالاندار خان، مقرر وحدة أبحاث الساحل في المتحف الوطني في كينيا، والمشتغل سنوات عديدة للحفاظ على مدينة ممباسا القديمة:

"لقد أسهمت الجهود المخلصة للوالي الشيخ مبارك الهناوي، ولا زالت في استمرار الحفاظ على الثقافة السواحيلية والطراز المعماري للمدينة؛ فقد سجلت قلعة يسوع في قائمة مواقع التراث العالمي، كما أن مدينة ممباسا القديمة مسجلة على القائمة المبدئية لمنظمة اليونسكو للتراث العالمي. ومن المؤمل أنه بعد انتهاء أكثر أعمال الترميم المقترحة على خطة الحفظ، تكون مدينة ممباسا القديمة مسجلة بشكل كامل ضمن قائمة التراث العالمي"[7].

إن تحسين الظروف الصحيّة، وتأسيس نظام صحي فعال هي جهود مهمة أيضا لمدينة ستون تاون في جزيرة زنجبار. وبعد إدخال أنابيب نقل المياه العذبة بواسطة السلطان برغش في سبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، تحسّنت الحالة، وتضاءل بشكل كبير خطر انتشار وباء الكوليرا، الذي كان يظهر بشكل متكرر في العقود السابقة. وبتأسيس المستشفيات، وتدريب الممرضات، وتعليم الأطباء في أوروبا، تطورت زنجبار لتصبح مركزا للرعاية الصحيّة في ساحل شرق إفريقيا.

رياض البوسعيدي

الرعاية الصحيّة في زنجبار



خدمة الطوارئ في زنجبار حوالي عام 1900م

يعود تاريخ المستشفيات في زنجبار إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وخاصة بعد تحويل مبنى مامبو مسيجي إلى مستشفى على الطراز الأوروبي. وكانت حكومة زنجبار بنت مستشفى في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين في الجانب البحري لمنطقة منازي موجا. وبالإضافة إلى قسم المرضى الخارجيين، تتوفّر بالمستشفى غرفة عمليات، وأجنحة للمرضى المرقّدين، وجناح عزل لمرضى السل، وعيادة أسنان خارجية. وأنشأت مؤسسة كاريمجي جيفانجي جناحاً للولادة. وتمكنت زنجبار وقتها من الوصول إلى أفضل نظام رعاية صحيّة في شرق إفريقيا.

وإلى جانب المستشفيات والمراكز الصحية في زنجبار

وبيمبا، استحدث قسم للرعاية الصحيّة المجتمعية، لمنع انتشار الأمراض المعدية واستئصالها.

كما عملت الحكومة مع صندوق الطوارئ الدولي للأطفال التابع للأمم المتحدة (اليونيسيف)، لتدريب الزنجباريين ليعملوا كمفتشين صحيين وقابلات. ونتج عن التدريب الذي قدمته منظمة اليونيسيف افتتاح السيّدة نونو، حرم السلطان خليفة، مركزاً للأمومة في منطقة ماكوندوتشي عام 1950م.

وفي يوليو عام 1955، افتتح مستشفى جديد بجانب مستشفى الحكومة القديم في منازي موجا، وسمي المستشفى الجديد باسم مؤسسة حسن علي كاريمجي جيفانجي، (وأعيدت تسميته بمستشفى ف. إ. لينن بعد 1964م). وتوفّر لدى المستشفى أحدث التقنيات والمعدّات والمرافق المتوفّرة في ذلك الزمان. واستمر المستشفى القديم في تقديم خدماته، وسمّي بالجناح الغربي، وخصص لتقديم الرعاية الصحية لكبار موظفي الدولة. وكان السلطان وجميع أفراد عائلته يتلقون العناية الطبية في هذا المستشفى. وكانت العناية الطبيّة مجانية، وجميع أنواع الأدوية متوفّرة تقريباً.

ومن بين دول شرق إفريقيا، كان لدى زنجبار خدمة متقدّمة للعناية بالأسنان لأطفال المدارس، وكان لديها مستشفى للأمراض المعدية يقع في جزيرة تشانجو (أو جزيرة السجن).

وحصل أكثر الأطباء والممرضات على تعليم وتدريب متقدم، وكانوا طواقم من المتخصصين في مجال عملهم. وفي عام 1960م أجرى الدكتور رشاد بن ناصر اللمكي، (الحاصل على الزمالة من الجمعية الملكية للجراحين في إنجلترا) عملية القلب المفتوح في هذا المستشفى. والإشارة إلى الدكتور رشاد هنا للتدليل فقط على أن مستشفى زنجبار كان مزوّداً بالمعدّات بشكل جيّد مما مكّن الأطباء من إجراء عمليات جراحية دقيقة، ولا يعني ذلك أنه لم يكن هناك أطباء زنجباريون آخرون عملوا في جزيرتي أنجوجا وبيمبا غيره.

واتصل قسم الرعاية الصحية المجتمعية بعلاقات مهنيّة مع منظمة الصحة العالمية للمساعدة في القضاء على الملاريا والأمراض المعدية الأخرى. ونتيجة لذلك التعاون أعلنت منظمة الصحة العالمية في عام 1963م زنجبار خالية من الملاريا.



مستشفى حسن علي كاريمجي جيفانجي



متحف السلام التذكاري، ويُعرف أيضاً ببيت الأمان. التقطت الصورة بمناسبة افتتاحه برعاية السلطان خليفة عام 1925.

أرشفة وثائق التاريخ المشترك وحفظها

في الفترة بعد الحرب العالمية الأولى، وبالتحديد في عام 1925م، افتتح متحف السلام التذكاري في مدينة ستون تاون بزنجبار. وكان الهدف من هذا البناء المعماري التاريخي هو إحياء ذكرى الحرب العالمية الأولى، وخصص بالمتحف ركن لجمع الوثائق الخاصة بالأثر العُماني والتاريخ الاستعماري لشرق إفريقيا وحفظها. واستُخدم المتحف في البداية أرشيفا للمحميّة البريطانية، ومع مرور الوقت استضاف المزيد من المواد الأدبية مثل المخطوطات والكتب التي تبرّع بها مجموعة من الأفراد والعائلات.

وفي عام 1954م قرّرت إدارة المحميّة البريطانية إنشاء أرشيف زنجبار، الذي أخذ اختصاصات ومهام العمل التي كان يقوم بها متحف السلام التذكاري، وفي عام 1963م، وقبيل فترة وجيزة من استقلال زنجبار، أُقيم مبنى خاص لاستضافة جميع المواد المؤرشفة الموجودة في متحف السلام التذكاري، وكذلك الكتب العربية المطبوعة طباعة حجرية، والمخطوطات العربية، والرسائل المتبادلة، إلى جانب جميع الأوراق الرسمية القادمة من قصر السلطان ومن محكمة زنجبار العليا.

وبعد الثورة في زنجبار، لم تعر دولة تنزانيا اهتماما حقيقيا بهذا الأرشيف؛ فأهملت الوثائق، التي بدأت في التدهور. ولم يتغير هذا الوضع سوى بمبادرتين دوليتين ظهرتا في منتصف ثمانينيات القرن العشرين للقيام ببرنامج علاج لذلك التدهور.

وأعيدت تسمية الأرشيف ليكون أرشيف زنجبار الوطني، وأصبح مؤسسة أهلية تخضع لقانون المحفوظات.

وعلى الرغم من أن هذا الأرشيف بدأ بجمع الوثائق والكتب والمجلات والصور، إلا أن الميزانية المخصّصة للفترات الزمنية التالية لم تكن كافية.

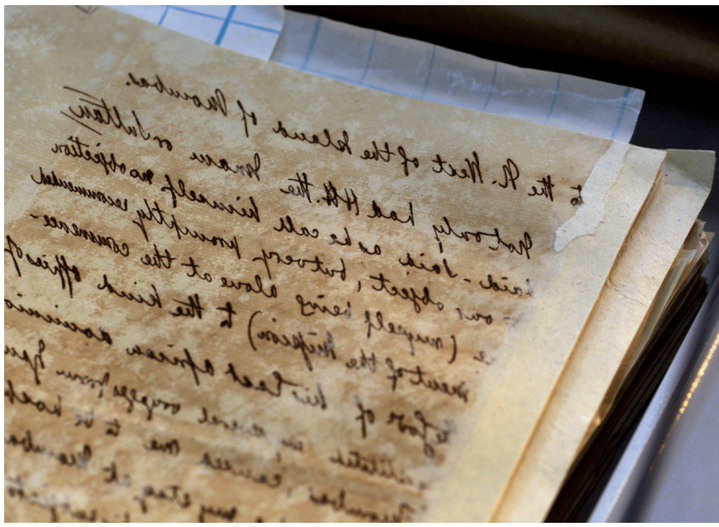
فبدأ المبنى بالتدهور من جديد، وتسرب الماء من خلال سطوحه إلى داخل غرفه معرّضاً المزيد من المجموعات والوثائق التاريخية للخطر والتلف.



نتيجة لدمار المبنى، فإن الكثير من الوثائق جمّعت بشكل مستعجل في أماكن آمنة، وتحتاج لتصنيف من جديد بشكل دقيق.

تتطلب الصيانة الاحترافية للكتب والوثائق موظفين مؤهلين وصبورين.





ولأن تاريخ زنجبار وشرق إفريقيا مرتبط جداً بتاريخ عُمان، بادرت حكومة سلطنة عُمان في عام 2018م، بتقديم مساعدات مالية وتقنية للحفاظ على الأرشيف. فجُدِّد المبنى، واُتفق على التعاون بين أرشيف زنجبار الوطني وهيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بسلطنة عُمان لإنقاذ التاريخ المشترك بين الشعبين.

إن الوثائق التي تضررت بشكل كبير تتلقى عناية محترفة للحفاظ عليها في موقعها بجهود مختصين وبأدوات حفظ فنية دقيقة، قدمتهما عُمان لزنجبار. ويجري في الوقت نفسه تدريب موظفين زنجباريين في مسقط للتعامل مع الوثائق وحفظها، باستخدام أساليب الأرشفة العلمية الحديثة.

وبشكل مواز لعمليات الحفظ، جرى العمل على حفظ الوثائق إلكترونيا عبر المسح الضوئي لتوفيرها لمجتمع الباحثين الدوليين، وحفظ الوثائق الأصلية من أي أضرار إضافية.

وبحلول عام 2019م مُسحت ضوئياً ما يقارب من 600 وثيقة، ولا تزال الآلاف من الوثائق تنتظر دورها. ولمعالجة وتصوير جميع الوثائق فإن هذه العملية ستستغرق عشر سنوات على أقل تقدير.



وبالإضافة إلى المستندات والكتابات التاريخية، يضم أرشيف زنجبار الوطني بطاقات تذكارية قديمة وسجلات شخصية خاصة مثل هذه الصفحة من مذكرات تعود إلى عام 1894م.



لمحة من مصنع عبدالله بن خلفان المحروقي للحلوى العُمانية في مدينة ستون تاون.

تراث ثقافي مشترك ما زال حيّاً

يقال إن السلطان سعيد بن سلطان عند قدومه الأول إلى زنجبار عام 1828م، وزّع الحلوى العُمانية على الناس الذين اصطفوا في فضول لاستقباله على الشاطئ. ويرجّح أن الحلويات الوحيدة التي كان يعرفها السكان حتى تلك الفترة هي الفواكه، كالموز والمانجو.

وأمام استقبال سكان ستون تاون الحار للسلطان، قدم هو في المقابل لهؤلاء السكان الحلوى العُمانية لفتة كرم منه، وكجزء مهم من تقاليد الضيافة العُمانية. وفي العقود التي تلت، انتشرت الحلوى العُمانية وانتشر استخدامها في الاحتفالات والمناسبات في جميع أنحاء شرق إفريقيا. وإلى اليوم، فإن مصانع الحلوى يمكن رؤيتها في أماكن عديدة، وخصوصاً في زنجبار، وفي المدن الواقعة على الساحل.

وتحتوي الحلوى العُمانية على عدد من المكونات الأساسية كالسمن، والسكّر المعقود، والنشأ. وبالتقليب المستمر للكتلة اللزجة على النار لساعات، على قِدر نحاسي كبير فإنها تصبح جاهزة، ليتم أخيراً سكبها في أوعية من البلاستيك أو المينا.

ولا تزال الحلوى تصنع في شرق إفريقيا باعتماد الوصفة الأصلية نفسها، ويمكنك أن تختار بين الحلوى الفاتحة والغامقة فقط، بناء على مستوى طبخ السكر المعقود. وفي المقابل فإنك في عُمان اليوم تستطيع الحصول على اختيارات عديدة ومتنوعة من النكهات مثل الزعفران، والهيل، والجوز، وماء الورد وغيرها.



عبدالله بن خلفان المحروقي

وتتوارث عادة صناعة الحلوى في العائلات التي تنحدر من الأصول العُمانية من جيل إلى جيل. ويتجاوز عمر مصنع عبدالله بن خلفان المحروقي للحلوى الواقع في قلب مدينة ستون تاون 120 سنة. ولأنه ليس لديه من يخلفه من الأولاد، فإنه ينوي تعليم هذه الصنعة وتوريثها إلى عمّاله المحليين المخلصين، لأن الأمر المهمّ بالنسبة له إستمرار هذا التقليد الذي أتى به العُمانيون منذ زمن طويل، وأن يقوم عليه صانعون ماهرون.





وتوزّع الحلوى الجاهزة، عادة، في ستون تاون في أكواب بلاستيكية صغيرة تباع في الشوارع أو يتم تقديمها في الاحتفالات والمناسبات.

ومن بين الموروثات التي قدّمها العُمانيون لزنجبار وشرق إفريقيا، ولا تزال موجودة حتى اليوم، إرث يعود إلى فترة حكم السلطان برغش بن سعيد، حيث استغل وقت هجرته القسرية وسفره الطويل إلى دول أخرى من بينها مصر. ومما أثار دهشته هناك، بالإضافة إلى المطابع العربية، هو حياة القصور؛ خاصة موسيقاها المسماة بالطرب. وكلمة الطرب العربية تعني الفرح، والسرور، والبهجة، والترفيه، وعليه فإن المصطلح لا يدل على نوع مخصوص من الموسيقى، بل على العاطفة والحالة المزاجية التي تثيرها الموسيقى.

وعندما اختير برغش سلطاناً على زنجبار في عام 1870م، أحضر موسيقيين من مصر إلى قصره، وأرسل موسيقييه إلى مصر لتعلّم العزف على الآلات التي لم تستخدم في شرق إفريقيا من قبل، مثل آلة القانون، وبهذا الشكل فإن الموسيقى التي تصدح في مصر وجدت طريقها إلى زنجبار.

أصبح الطرب تقدّمه أوركسترا مكوّنة من عدد من العازفين قد يصل إلى 25 عازفا، تصاحبهم آلات غربية وإفريقية مثل آلات الكمان، والتشيلو، والكونترباص، والأورج الهندي، والقانون العربي، والناي العربي الطويل، والعود ذي الرقبة القصيرة، والطبول الإفريقية، ومجموعة من آلات النقر المختلفة، إلى جانب أنه يوجد هناك عادةً كورال لأصوات نسائية.

وبمرور السنوات، تطوّرت هذه الموسيقى إلى نمط مستقل، عُرف بالطرب الزنجباري. وبدلاً من استخدام الإيقاعات العربيّة بشكل حصريّ، بدأ الموسيقيون بإدخال إيقاعات إفريقية. ولم تعد الأغاني باللغة العربية فقط، بل بالسواحيلية أيضاً. وحدث التفاعل بين الموسيقيين في زنجبار وعلى امتداد الساحل مع الموسيقيين في القوارب، الذين قدموا ضمن الشبكة التجارية في المحيط الهندي ومن العاملين والمشتغلين في الموانئ.





ومن القوى الدافعة لتطور الطرب الزنجباري والشهرة الدولية له المغنية سنتي بنت سعد، التي بدأت بداية متواضعة، لكنها ترقّت لتصبح أول مغنية تدعى لتكون مغنية البلاط للسلطان برغش، في قصر بيت العجائب. وهناك لم تقدّم أغان باللغة العربية فقط، كما كانت العادة حتى ذلك الوقت، لكن باللغة السواحيلية أيضاً.

وبسبب وجود قانون وقتها يمنع تقديم الغناء خارج القصر، قدّمت سنتي الغناء في بيتها الذي أصبح مكاناً للاجتماع والسماع للطرب. ولفت الارتجال الفوري للكلمات السواحيلية الانتباه إلى كلّ ما كان يدور من أحداث مهمة في الحي أو في البلاط. كما كان الطرب فرصة لنقاش الأمور السياسية ونقدها بشكل غير مباشر دون تحديد المعنى المباشر للموضوع المتحدّث عنه.



وبدعم من السلطان علي بن حمود تمكنت سنتي بنت سعد بين عامي 1928م و 1930م من تسجيل 131 أغنية في ثلاثة تسجيلات مستقلة لصالح تسجيلات "صوت سيّدة"، و"تسجيلات كولومبيا" في بومبي، التي تعرف حالياً بـ "مومباي". وببلوغ سنة 1931 بيعت 72000 ألف أسطوانة من أغاني سنتي بنت سعد، وكان لهذا الرقم أن يتضاعف لو كانت أجهزة الجرامافون والأسطوانات ليست حكراً على الأغنياء فقط. ومع ذلك فإن موسيقاها انتشرت، وأثرها امتد إلى عموم الشعب.

وهكذا تطوّر الطرب ليكون أسلوباً موسيقياً متميّزاً في زنجبار وفي الساحل، وموحَّداً للتنوّع اللحني في المحيط الهندي، ومعبرا عن الهوية السواحيلية المتشكلة بفعل التأثير الثقافي المتبادل حول المحيط الهندي.



محمد إلياس، أحد موسيقيي الطرب المشهورين المؤثرين في زنجبار اليوم.



تقود مريم حمداني، زوجة إلياس، الأوركسترا الوحيدة للنساء «أوركسترا النساء الطاؤوسيات الطربية «. ويظهر في هذا الملصق الإعلاني لحفلة موسيقية لـ بي كيدودي، ربيبة سينتي بنتي سعد، وهي واقفة في وسط الصف الأمامي. وكانت لا تزال تغنّي وقد بلغت المائة عام، وعدّت ملكة الطرب.





صور تاريخية من أرشيف زنجبار الوطني، تظهر أن لحاف الرأس الأقصر كانت تلبسه نساء المجتمع الراقي، وكذلك البنات من الطبقة الأدنى.

تظهر ملامح التبادل الثقافي والعلاقات المتينة الموجودة والمتجدّدة بين الناس في شرق إفريقيا وعُمان بشكل جلّي في ملابس النساء والرجال. وفي الجانبين، توجد قطع ملابس محدّدة هي جزء من حياة الناس اليومية هنا وهناك.

وبالنسبة للنساء، فهناك لحاف الرأس المعروف باسم (كانجا) والذي يتميز بألوانه الزاهية. والكانجا هي قطعة مستطيلة من القماش القطني، تحتوي على زخرفة في وسطها تسمى (مجي)، وحدود منقوشة تسمى (بيندو)، وعليها عبارات سواحيلية مثل الأمثال أو عبارات معاصرة، مكتوبة في إطار إضافي في وسط الزخرفة يطلق عليها (جينا).

وتباع أقمشة لحاف الرأس عادة في أزواج بقياس محدد، وتقوم النساء بقص الجزئين في المنتصف، ويلبسن جزءاً غطاء للرأس أو شالاً، والقطعة الثاني تلف حول الخصر.

تقول الأسطورة إنه في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي عندما أصبحت زنجبار سوقاً رئيساً للأقمشة القطنية الهندية البيضاء، بدأت النساء في زنجبار بتغطية المنسوجات بأنماط مطبوعة بقوالب خشبية. وكانت الألوان تستخلص من صبغات النيلي والحناء والكركم والأشجار. أما التصاميم فتستوحى من الطبيعة والأشكال الرمزية والهندسية. وتأتي عناصر التصميم من الهند وفارس وعُمان والثقافات الأخرى حول المحيط الهندي.

وكان من التصاميم الإطارية الأولى المشهورة تصميم دوائر بيضاء على خلفية سوداء، وهو يشبه ريش طير غينيا، واسم هذا الطير باللغة السواحيلة (كانجا)، وبالتالي أصبح علماً يطلق على هذا النوع من القماش. وخلال سنوات قليلة من ظهورها أصبحت الكانجات المطبوعة مطلوبة جداً ليس في مجتمع زنجبار فقط لكن على امتداد ساحل شرق إفريقيا. وقد ضاعفت التكنولوجيا هذا الانتشار، فتوسعت صناعة هذه الكانجات بصورة كبيرة جداً وبشكل رخيص في الهند وإنجلترا وألمانيا بتصاميم مختلفة كثيرة للسوق الإفريقي.





تصاميم مختلفة للكانجات المعروضة في أسواق مدينة ستون تاون وتابورة.

وكان من أسباب انتشار هذا القماش، إضافة إلى أنه رخيص، تعدد مجالات استخدامه. فالكانجا يمكن استخدامها شبكة مانعة للبعوض، ولحافاً، وستارة، وحاملا للطفل، ولتزيين جدران الغرفة، أو حتى كأداة لصيد الأسماك الصغيرة. وعلى العموم فلا توجد حدود لاستخداماتها إلا إذا كانت العبارات المكتوبة عليها غير مناسبة.

وللكلمات المطبوعة على الكانجا أهمية خاصة ويمكن اعتبارها رسالة اجتماعية ذات مغزى، إذ تقرر المرأة، عند اختيارها ارتداء الكانجا، الرسالة التي تريد ايصالها علناً والجمهور الذي ترغب نقل الرسالة له دون التعبير عنها لفظياً في شكل فريد من أشكال التواصل الاجتماعي الصامت؛ فالكانجا نفسها بحد ذاتها.



شابة من كيلوا كيفينجي ترتدي الكانجا.



تستمر عادة ارتداء الدشداشة التقليدية مع الجيل الأصغر سنا من أحفاد التجار العُمانيين.

يُلاحظ كل من سافر في دول شرق إفريقيا وهو على معرفة بسلطنة عُمان سريعاً أن الأزياء الرجالية متشابهة جداً؛ ذلك لأن الدشداشة العُمانية تُلبس، أيضاً، في تنزانيا وكينيا وأوغندا وبروندي ورواندا، وفي بعض الأماكن في دولة الكونغو الديموقراطية الشعبية، خاصة في الأماكن الواقعة على طول طرق التجارة القديمة.

والدشداشة العُمانية عبارة عن قطعة طويلة تكاد تبلغ الأرض تخاط من ثوب واحد، ويفضّل أن تكون باللون الأبيض أو بألوان محايدة. وليس لها ياقة، غير أنها مطرّزة الأطراف، وحول الرقبة والصدر، وغالباً ما تعطّر الخيوط المعقودة المتدلية من على تطريزة العنق أو ما يسمى بـ (الفراخة).

ولا شك أن شعور الانتماء إلى الوطن الأم قويّ بين أحفاد التجار العُمانيين، فهم يعدّون أنفسهم عُمانيين حتى مع جنسياتهم المنتمية لدول إقليمية. ومعظمهم يفتخرون بالتاريخ العُماني في شرق إفريقيا. وفي الوقت ذاته، هم مخلصون في ولائهم لحكوماتهم الوطنية، ولديهم علاقات طيبة مع الجماعات الإفريقية، ومعظمهم تجار ويمارسون أكثر من نشاط واحد. وهم بلبسهم الدشداشة يعبّرون عن ارتباطهم بعُمان.

والذين يلبسون الدشداشة يحصلون عليها أو يشترونها من عُمان، ومنهم من يتمكن من زيارة أقاربه هناك، ومنهم من لا يتمكنون من ذلك لدخولهم الضعيفة أو لأسباب آخرى، وفي هذه الحالة يزورهم أقاربهم من عُمان في إفريقيا. وهذا النوع من الزيارات بين الأقارب مستمر وثابت.

ولا تلبس الدشداشة العُمانية لجميع الأنشطة اليومية، إذ إنها لا تتناسب مع بعض الأنشطة كالعمل في الحقول. وهي أيضا غالية الثمن مع وجود عدد محدود من الخياطين.

وفي السنوات الأخيرة، افتتحت شركات متخصصة في خياطة الدشاديش من عُمان فروعاً لها في شرق إفريقيا، بعد أن كان السكان هنا يستوردون كميات كبيرة من الدشاديش، خاصة في أوقات المناسبات الدينية. واليوم أصبح اللبس العُماني في شرق إفريقيا أكثر رسمية واستعمالاً، خاصة لأداء صلاة الجمعة وحضور الاحتفالات الدينية والاجتماعية والأسرية.



شباب من ممباسا يتعلمون صناعة الكوفية في المركز الثقافي السواحيلي، والذي يطلق عليه عادة معهد التراث الكيني للتدريب.

ترويج الحرف التقليدية

يؤدي المركز الثقافي السواحيلي في ممباسا بكينيا، دوراً مهمّاً في الحفاظ على ثقافة الصناعات الحرفية وضمان استمرارها، حيث إن هذه الحرف نمت عبر القرون، وتشكّلت غالباً بفعل التأثير العُماني.

وتأسّس المركز السواحيلي الأول عام 1993م في ممباسا بفعل تعاون مشترك بين متحف كينيا الوطني ومنظمة العمل الدولية وبرنامج الأمم المتحدة للتطوير. وبعد فترة قصيرة افتتح مركز آخر في مدينة لامو.

ويهدف المركزان إلى تدريب الشباب المحلي على الصناعات التقليدية، ليتمكنوا من ممارسة العمل الحر المستقل، ويضمنوا دخلاً مالياً لهم. لقد شجع المركزان المشاريع الصغيرة للشباب ليس في ممباسا ولامو فقط، ولكن في عموم البلاد بأسرها. وقد أحيت هذه البرامج في الوقت ذاته، الثقافة السواحيلية، وحافظت عليها، وروّجت لها.

ويوفّر مركز ممباسا التعليم الاحترافي في مجالات عدة مثل الموضة، والأعمال الخشبية، وخياطة الكوفية، ونحت الخشب. وفي الصنعتين الأخيرتين فإن بقايا التأثير العُماني يمكن رؤيتها وملاحظتها بكل وضوح.

والكوفية هي غطاء مطرّز للرأس يلبسها الرجال من جميع الأعمار، وفي مختلف الأعمال والمكانة الاجتماعية. وهي عنصر من اللباس شائع في مختلف مجالات النشاط اليومي في جميع أنحاء شرق إفريقيا، وفي جزر القمر، وفي عُمان، والتي تسمّى فيها بـ "الكمّة". وقد أدخل التجار العرب، الذين كان أغلبيتهم عُمانيين، الكوفية إلى زنجبار وشرق إفريقيا، وانتشرت بين الناس بالتوازي مع انتشار الإسلام.



الكمة والكوفية يلبسها الرجال في مختلف مراحل حياتهم، غطاءً للرأس، منذ طفولتهم وحتى آخر عمرهم.



وبينما كان لبس الكوفية مقتصرًا في الماضي على المسلمين، إلا أنها في الوقت نفسه أصبحت موضة للجميع.



وصناعة الكوفية عمل يقوم به الرجال والنساء معا. وعادة يضع الرجال التصاميم ويجهزون المواد، أما العمل الأكبر المتصل بالتطريز فتقوم به النساء. وقديما كان الرجال في زنجبار يقومون بتطريز كوفياتهم وهم جالسون على أرصفة الميناء ينتظرون وصول السفن للقيام بتفريغ حمولاتها.

قاد الطلب الكبير على الكوفية، سواء من قبل السكان أو السواح لاستخدامها تذكاراً في السنوات القريبة إلى استخدام الآلات في صناعتها بشكل متزايد لتغطية الطلب، وبأسعار زهيدة. أمّا السكان المحليون في عُمان وشرق إفريقيا فما زالوا حريصين على لبس الكوفيات والكميم المصنوعة يدويا.

هناك العديد من الإختلافات الشكلية بين عُمان وشرق إفريقيا فيما يتصل بألوان الكوفيات، حيث يفضّل الرجال في شرق إفريقيا غالباً، لوناً واحداً بتدرجات مختلفة بين البني الفاتح والغامق، أما في عُمان فيفضلون الألوان المتداخلة بشكل متزايد.

والكوفية مصنوعة من قطعتين رقيقتين من القطن تسميان: التاج والعصابة. وبعد أن يستكمل رسم التصميم على القماش بالرصاص، تستخدم ريشة أو إبرة للثقب والخياطة في ثقوب دقيقة، حسب التصميم، والثقب الدقيق المخيط يسمّى وردة.

وفي المتوسط توجد خمس عشرة غرزة في الوردة الواحدة. واعتماداً على التصميم، فإن الكوفية الواحدة تضم بين ألف إلى ثلاثة آلاف نجمة، ويتراوح الوقت اللازم لإنجاز خياطة الكوفية حسب التصميم والوقت المخصص للعمل عليها.

ومعظم أنماط التصميم مستوحاة تقريباً من الطبيعة المحيطة، كالأوراق المنمقة والزهور، كما توجد أنماط محدّدة من التصاميم لها اسم جامع، مثل المسقطية. وهذه التصاميم يطلبها عادة العُمانيون لتصنع في زنجبار ثم تشحن إلى مسقط بكميات كبيرة.

وكما هو الحال في الكانجا بالنسبة للنساء فإن اختيار الكوفية وطريقة لبسها تعبر عن الرجل وتعطي انطباعا كبيرا عنه دون أن ينطق كلمة واحدة. ويلّخص الأستاذ الدكتور ذوالفقار حيرجي في دراسته "تقاليد الكوفية في زنجبار" معاني التواصل الصامت هذا على النحو التالي:

"وبلبس الكوفية أو عدم لبسها، وكذلك بلبس نوع معيّن من الكوفيات، وبطريقة لبس الكوفيّة بشكل محدّد يقدّم الرجل إشارات إلى الناس عن مكنوناته، وتعبّر عنه كوفيته، كما تقدّم معلومات عن ديانته وانتمائه العرقي، ومدى تقواه، وحسه للموضة، وافتخاره بوطنه، واعتداده بفحولته، ووضعه الاقتصادي، وأواصر القربى، وعلاقاته التجارية. وعليه، فإن المعنى الذي يتصوّره المتلقون وتفسيرهم لتلك الإشارات يظل أمراً آخر مختلفاً"[8].





الخطوط المرسومة على القماش تتبعها مكنة الخياطة، والخيوط البيضاء على الأجزاء بين الخطوط تُملأ بالتطريز.



ر لمنجرة الخشب ومنجرة النحت
في المركز الثقافي في ممباسا.

أما أعمال الخشب، وخاصة صناعة الأبواب المنحوتة، وهي حرفة تقليدية أخرى، فإنها تتصل أيضا بالتراث الثقافي المشترك بين عُمان وشرق إفريقيا الساحلية، وتدرّس في المركز الثقافي السواحيلي في شرق إفريقيا. وتتلقى مناجر الخشب طلبات للأبواب العُمانية التقليدية، ويذهب ريع مبيعاتها لصيانة مركز التدريب، لأن معظم النحاتين على طول الساحل الكيني تلقوا تعليمهم هنا.

ولقرون طويلة كانت الأبواب المنحوتة بالزخارف عنصراً مهمّاً من عناصر العمارة العُمانية. ومع أن العمارة العُمانية التقليدية تتسم عادة بالبساطة، كانت أبواب المداخل، ولا تزال، تمثل بطاقة تعريف لصاحب الدار ومكانته الاجتماعية، وهي تمثل رمزاً لمستوى ثراء قاطني المنزل.

لقد ازدهر إنتاج أبواب المداخل المنحوتة في زنجبار بشكل كبير في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. ولم يستقدم السلطان برغش الموسيقيين من مصر فحسب، بل استقدم أيضا نحّاتين من الهند، والذين قدموا ومعهم خبراتهم وتصاميمهم.

والأبواب المتأثرة بالثقافة الهندية تعلوها نصف دائرة على شكل قوس به فتحات وثقوب تسمح بمرور الهواء من خلالها. وفي المقابل، تملك الأبواب العُمانية إطاراً مستطيلاً يحيط بالباب، وعليه توقيع النحات، وتاريخ الصنع، وآيات قرآنية منحوتة أو أبيات شعرية، ويتم تزيين إطار الباب والعمود الأوسط المثبت على أحد المصراعين.



هذا الباب القديم بتصميمه العُماني التقليدي يتناسق مع مبنى جديد في ماليندي، وبسبب قوّة تحمّل الأبواب، فإنها الخيار المناسب في شرق إفريقيا وعُمان.





يُعتمد في صناعة الأبواب الضخمة على خشب صلب من أشجار البيئة المحلية مثل شجرة فاكهة الخبز (Ukwa)، أو أخشاب الساج والمهوجني المستورد من الهند.





يمين
باب عُماني تقليدي في مدخل سوق لامو.
يسار
باب منحوت لمنزل بسيط في المدينة القديمة في لامو.

ومن بين الزخارف شائعة الاستخدام في النحت، السلاسل التي ترمز للأمان، والخطوط المتموجة، والأسماك التي ترمز لتقاليد التجارة الملاحية. كما تستخدم رموز للنخيل، وأغصانها، ومنمنمات حرف S المقلوب الذي يرمز لدخان اللبان، تعبيرا عن الرخاء. وتنتشر تصاميم زهرة اللوتس، وغيرها من الزهور على الأبواب العُمانية.

وغالبا ما يكون الباب هو الجزء الذي يبنى أولاً من أجزاء البيت، لأنه يأخذ وقتاً طويلاً للحصول على الخشب المطلوب من الهند أو من إفريقيا الوسطى، ثم لتحديد تفاصيل النقش، وصناعة الأجزاء المكونة للباب لتتطابق بدقة.

ويعكس وجود هذه الأبواب في عُمان التبادل الثقافي بين عُمان والمراكز الثقافية التي أسّسها العُمانيون على امتداد ساحل شرق إفريقيا، من أقصى مدغشقر في الشمال إلى رأس دلجادو في الجنوب. ولم تحظ منطقة في هذا الساحل بالحفاظ على الكثير من المواد والشواهد غير المادية لهذا الإرث الثقافي المشترك أكثر مما حظي به أرخبيل لامو في كينيا.



سكك المدينة القديمة في لامو ضيّقة جداً، وبالتالي فهي تناسب المشاة فقط، والتنقل بالحمير أو بواسطة الدراجات. كما أن واجهات المنازل جميعها بلا زخرفة، وتتجاوزها العين، وذلك بخلاف البيوت من الداخل، التي تكون عادة في حالة جيدة جداً.

لامو والحفاظ على التراث الثقافي والتقاليد

ظل أرخبيل لامو لقرون ممتدة جزءاً متكاملاً مع المحيط الهندي، لكنّه منفصل بشكل كبير عن البرّ الإفريقي. وحتى قرابة 60 سنة مضت ما زالت القوارب هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى أرخبيل لامو. ومن أهم جزر هذا الأرخبيل لامو، وماندا، وباته. وإلى جانب مدرج الطيران الصغير في جزيرة ماندا، فإن وسائل النقل الحديثة اليوم تتكون من الدراجات النارية والهوائية، والقليل من سيارات النقل الجماعي في لامو.

وبفضل هذه العزلة فإن مدينة لامو القديمة لم تفقد تراثها الثقافي الغني لصالح الحداثة، وسُجِّلت في قائمة التراث العالمي من قبل اليونيسكو في عام 2001م.



المباني الواقعة في مرفأ لامو على الواجهة تعود جميعها، تقريباً، إلى القرن التاسع عشر.

وقد عبّرت اليونيسكو عن القيمة العالمية العظيمة لها على النحو الآتي:

"إن مدينة لامو القديمة الواقعة على جزيرة تحمل الاسم نفسه، تقع على ساحل شرق إفريقيا، وتبعد عن ممباسا حوالي 350 كم، هي أقدم مثال على المستوطنات السواحيلية، وأكثرها حفظاً. (...)

تتميّز المدينة بسككها الضيّقة ومبانيها الحجرية الرائعة، وبأبوابها ذات الانحناءات المتأثرة بالمزيج الفريد من نوعه للثقافة السواحيلية، والعربية، والفارسية، والهندية، والأوروبية، المتصلة بأساليب بناء المباني. وتوفّر المباني المطلّة على الواجهة البحريّة، بممرّاتها وشرفاتها المفتوحة انطباعاً بصريّا موحّداً للمدينة للداخل إليها من جهة البحر. وبينما تتزيّن دواخل المباني العتيقة بأسقفها المرسومة ونوافذها الكبيرة (ماداكا)، والصغيرة (زيداكا)، وبأواني الخزف الصيني، فقد حوفظ عليها بشكل جيّد، وأصبحت تحمل تاريخاً عريقاً، يمثّل تطوّر تقنيات البناء السواحيلي المعتمدة على المرجان والجير وأعمدة القُرم. (...)

وكما يصفها الباحثون السواحيليون المرموقون بأنها مهد الحضارة السواحيلية، فإن لامو أصبحت مركزاً دينيّاً مهمّاً في شرق إفريقيا ووسطها، منذ القرن التاسع عشر الميلادي، جاذبة الدارسين للدين الإسلامي والثقافة السواحيلية، وهي اليوم مستودع كبير للثقافة السواحيلية، التي حافظ أصحابها على قيمهم التقليدية منطلقين من مفهوميّ الوحدة والترابط الاجتماعيان"[9].



فناء داخلي كبير وحوله الغرف يمثل معمار لامو التقليدي.

ومن أهم الأسباب التي حافظت على المدينة القديمة في لامو تلك المواد المستخدمة في بناء البيوت، والطريقة التي بنيت بها. وكما في المدن الأخرى على امتداد الساحل السواحيلي، تقتطع الصخور من الشعب المرجانية، والأعمدة الخشبية من أشجار القُرم (المانجروف)، والتي تُعد أفضل المواد الموجودة للبناء، بالإضافة إلى وفرتها في الأرخبيل من حيث الوفرة.

تتكون الجزر أساساً من المنحدرات المرجانية، التي تشكلت منذ فترات ما قبل التاريخ، عندما كان مستوى البحر أكثر ارتفاعاً. ولا يزال طوب الحجر الجيري المرجاني المستخدم في صيانة المباني وتجديدها، يستخرج ويجلب من المحاجر في جزيرة ماندا. وكما في الأيام الخوالي، فإن الطوب يُلحم ببعضه بخرقة بواسطة نثارة حجر الجير المرجاني التي تُحرق أولاً ثم تُترك حتى تبرد.

الكتل المقتطعة من محجر ماندا تشحن بواسطة القوارب إلى ميناء لامو، ثم تنقل من هناك بالحمير إلى مواقع البناء.









واجهات بعض بيوت المدينة القديمة في لامو كانت ولا تزال تُغطّى بطبقة من المرجان.

وتتواجد هذه البيوت المبنية بهذا الشكل أيضا في المملكة العربية السعودية واليمن وعُمان، وعليه يمكن الافتراض أن تقنية البناء هذه انتقلت إلى الساحل في شرق إفريقيا جزءاً من التبادل الذي حدث في أثناء التبادل التجاري.

وكانت منطقة لامو في القرن العاشر الميلادي مركزاً اقتصادياً مهماً في طرق التجارة البعيدة، وكان التجار العُمانيون يجمعون العاج في هذه المنطقة، ثم ينقلونه على سفنهم إلى الهند، بل إلى أبعد من ذلك حتى وصلوا به إلى الصين. وتدل بعض الشواهد تعود للقرن الثالث عشر الميلادي على أن مجموعة من قبيلة النباهنة هاجروا من عُمان إلى جزيرة باته في لامو.

وقد تطورت أنشطة البناء في حكم السلطان سعيد بن سلطان ليس في زنجبار وحدها، بل في لامو أيضاً، كما أن معظم مدن اليوم في هذه المنطقة تعود إلى القرن التاسع عشر الميلادي.



القصر السابق للحاكم العُماني على لامو، يقع على واجهة البحر، ويضم بين جنباته متحفا.









يُعرف الطراز المعماري الخاص بلامو بزخارفه الدقيقة على المشكاوات على الجدران، ويسمّى «زيداكا»، وتستخدم هذه الخزانات الجدارية المفتوحة لإظهار ثراء الأسرة، وتتزيّن بقية الجدران بالجص المزخرف.

بينما يتجه الطراز المعماري السكني في عُمان نحو البساطة وقلة الزخارف، إلا أننا نجدها حاضرة في البيوت القديمة للعائلات التجارية العُمانية الإفريقية، فتجد الجص المزخرف حول الأبواب، وتجدها في الممرات، وحتى على الجدران، بالإضافة إلى الزخارف على الأبواب المنحوتة، وربما تكون فكرة الزخرفة قدمت إلى عُمان من شرق إفريقيا.



تغطّي أشجار القُرم في منطقة لامو مساحة 33500 هكتار، بما نسبته 60% من مجملها في كينيا. وتكمن أهمية أشجار القُرم في أنها تخلق بيئة مهمة للقشريات، والأسماك، والطيور، وتحجز كميات ضخمة من الكربون، فضلا عن أنها تحافظ على الساحل المهدّد من عوامل التعرية ومخاطر الفيضانات.

لم تكن محميّات القُرم الكبيرة على طول ساحل شرق إفريقيا مهمة لبناء حوالي 750 بيتا حجرياً قويّاً في لامو وأماكن أخرى فحسب، بل جاوزت أهميتها الساحل، وكانت مهمة أيضا للمناطق الواقعة على الخليج العربي والعراق.

ولخشب القُرم كثافة فيزيائية عالية جداً، لذلك فإن أعمدته ثقيلة وقوية جداً في الآن نفسه، مما يجعلها مثالية جداً للتسقيف. بالإضافة إلى ذلك، فإن القُرم لا تهاجمه الرمّة، وهي منتشرة كثيراً في الأجواء الاستوائية ويشكل هجومها خسارة كبرى على المساكن.

وهناك فرق شاسع بين استقرار أعمدة القُرم ومتانتها مقارنة بالأعمدة المربّعة المصنوعة من جذوع النخيل، والتي كانت واسعة الانتشار في عُمان لبناء السقوف، وذلك لتوفّر هذه المادة. وتنتمي النخيل نباتياً إلى عائلة الحشائش، وخشبها خفيف جداً، وهي مليئة جداً بالألياف، التي تعد غذاء مفضلا للرمّة.

وأصبحت أعمدة القُرم من أهم البضائع التجارية بين شرق إفريقيا وعُمان، وهذه الحقيقة مهجورة من قبل الباحثين الغربيين لاعتقادهم أن هذه الحقيقة أقل من أن تُذكر.



يمين
صورة تاريخية لأعمدة القُرم مخزّنة في ساحة في مدينة ستون تاون. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر الميلادي فرض سلطان زنجبار عشوراً على القُرم، بلغ 10% على الأعمدة المصدّرة.

وبالنسبة للعمارة في عُمان، فإن تجارة الأخشاب تمثّل أهمية عظيمة، ذلك إن خشب القُرم كان مستخدماً في جميع القصور الكبيرة للتجار الأفارقة السابقين في عُمان، وكذلك في تحصينات الدولة. ويمكن القول إن سعة حجم الغرف في عُمان تحدد مقاساتها سابقاً في ساحل لامو، اعتماداً على طول ألواح القُرم، التي كان يزيد طول بعضها على 7 أمتار.

وكانت أكبر غابتين لأشجار القرم في شرق إفريقيا تقعان في الدلتا الممتدة لنهر روفيجي، التي تبعد قرابة 120 كيلومتراً جنوب زنجبار في مقاطعة لامو، وهي أراض كانت واقعة ضمن أملاك سلطان زنجبار. وتشير الأرقام الأولية الخاصة بتجارة ألواح القُرم والتي تعود إلى عام 1901م، أنه تم في ذلك العام تصدير ما يقارب 400000 عمود، وكانت أهم صادرات لامو.



عملية تسقيف باستخدام أخشاب القرم في تجديد قصر سكني لتاجر عُماني في ولاية إبراء، عُمان.

ولكن أهمية القُرم لا تكمن في استخدامها أعمدة للتسقيف فحسب، بل إن القُرم الشرق إفريقي يضم أعلى معدّل لحمض التانين في العالم كلّه. ويستخرج هذا الحمض من لحاء هذه الأشجار ويستخدم في صناعة الجلود. إضافة إلى ذلك، فإن أحد الأنواع السبعة لأشجار القُرم في شرق إفريقيا على الساحل، عُدت الأفضل لصناعة صواري السفن الشراعية، واستخدم نوع آخر منها لأضلاع القوارب. أما فحم خشب القُرم فهو بضاعة مطلوبة في الشرق الأوسط كذلك، إذ يعد أفضل من فحم شجر السمر.



أعضاء من مبادرة التشجير والمحافظة في لامو، الذين لا يقتصر عملهم على زراعة شتلات أشجار القُرم، بل يقومون بقطع بعض الأشجار المنتقاة، التي تذهب للاستخدام المحلّي.



وتحت الحكم الاستعماري للألمان والبريطانيين، استغلت الشركات الأوروبية القُرم بشكل واسع، مما قاد إلى إهلاك غابات القُرم. ولأجل إعادة تأهيل القُرم إلى المستوى الذي يمكن السماح بحصاده ثانية، اضطرّت تنزانيا وكينيا إلى حظر تجارة خشب القُرم في ثمانينيات القرن الماضي، وهذا بلا شك كان قرارا إيجابيا لإعادة إحياء المصادر الطبيعية واستدامتها. إلا أن هذا القرار ترتبت عليه خسائر وأضرار تكبدها عدد كبير من السكان في لامو فقد بلغ الضرر السلبي اقتصادياً مستويات كبيرة. وفي السنوات الأخيرة فقط ظهرت مبادرات حكومية وخاصة للتشجير وإدارة غابات القُرم، وعادت تجارة القُرم مرة أخرى ولكن بشكل محدود.

مهرجان لامو الثقافي والمولد النبوي

تحتفظ روزنامة لامو بحدثين مهميّن هما الأبرز في قائمة أنشطتها للحفاظ على التراث غير المادي لهذه المدينة، وضمان انتقاله للأجيال القادمة، وحفظ الترابط الاجتماعي لسكّان هذا الأرخبيل. وهذان الحدثان هما مهرجان لامو الثقافي، والاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

أقيم مهرجان لامو الثقافي للمرة الأولى في عام 2001م، للاحتفال بالتراث الثقافي المحلّي والحفاظ عليه، وقد اجتذب منذ بداياته السكان المحليين، إضافة إلى السوّاح الزائرين للمقاطعة، من جميع أنحاء العالم الذين أسهمت أموالهم في إحياء هذه المناسبة .

تشكل سباقات السفن الشراعية أهم فعاليات المهرجان الثقافي ليس للسواح فحسب بل للسكان المحليين أيضاً.



ويقدّم المشاركون القادمون من أنحاء مختلفة من الأرخبيل رقصاتهم، ويشاركون بموسيقاهم، وتقاليدهم الخاصة، بينما يجتذب الحكّاؤون أخيلة المستمعين المتسائلة. وبجانب عرض الحرف التقليدية مثل النقش بالحناء، ونحت الخشب، وبناء القوارب، وصناعة الحصر، ونسج الحبال، تقام المسابقات المختلفة.



وصول أول قارب إلى خط النهاية واستقبال الجمهور له بالتصفيق والهتافات.

ويستعد المتسابقون بشكل جيّد مسبقاً، وهم يتلقون تشجيعاً وهتافاً من الجمهور الحاضر. كما تقام أيضا على الواجهة البحرية مسابقات في السباحة والتجديف بالقوارب، وسباق الحمير، إلا أن أبرز المسابقات وأكثرها أهمية سباقات السفن الشراعية. ولا تزال قوارب الإبحار العربية تؤدي دورها كأهم وسائل النقل في الأرخبيل، كما كانت كذلك لقرون عديدة ماضية في زمن النفوذ العُماني في شرق إفريقيا. لكن يبقى الفارق الوحيد في أن قوارب اليوم أصغر بكثير من سابقاتها. وقد حدّد وقت المهرجان ليتوافق مع هيجان الأمواج مما يزيد السباق صخباً وحماساً.



تعمل هذه المرأة على النص الذي ستشارك به في المسابقة الشعرية لعام 2019 في قلعة لامو، حيث إن الموضوع المقرر لهذه العام هو «آثار الثقافة العربية والتقانة في الحياة السواحيلية».

ومن الفعاليات الخاصة في هذا المهرجان السنوي، حدث خاص ينظم في قلعة لامو، ألا وهو المسابقة الشعرية، حيث يحدّد للمتسابقين موضوع ينظمون حوله شعراً بالطريقة السواحيلية التقليدية، ويهتم المحكّمون بنقد القصائد والمفاضلة بينها واختيار الشاعر الفائز، الذي يحظى لاحقا بتقدير مجتمعي كبير. ومما ينبغي الإشارة إليه هنا، أن لامو هي مسقط رأس الأستاذ الدكتور أحمد شيتش نبهاني، المولود في 27 نوفمبر عام 1927م، والذي يعدُّ الأب المعاصر للشعر السواحيلي.

لقد كوّن الأستاذ الدكتور نبهاني نفسه بنفسه، وساعد الكثير من الأكاديميين المشهورين الباحثين في الثقافة والشعر السواحيليين. ويحسب لنبهاني أيضاً مساعدته في جمع المخطوطات السواحيلية والعربية لجامعة دار السلام، وفي ترجمة المخطوطات السواحيلية المكتوبة بالحرف العربي لجامعة هامبورج في ألمانيا.

وعندما توفي في لامو في فبراير 2017م، نعاه الرئيس الكيني أوهورو كينياتا، بالعبارات الآتية:

سنظل مقدّرين جهود نبهاني في التأليف، وتعليم اللغة السواحيلية والشعر والثقافة، وهي مجهودات مشهود لها عالميّاً.

ومن قصائد نبهاني التي أشار فيها إلى المهرجان الثقافي في لامو، قصيدته التي سماها "نحن نرقص لأننا":

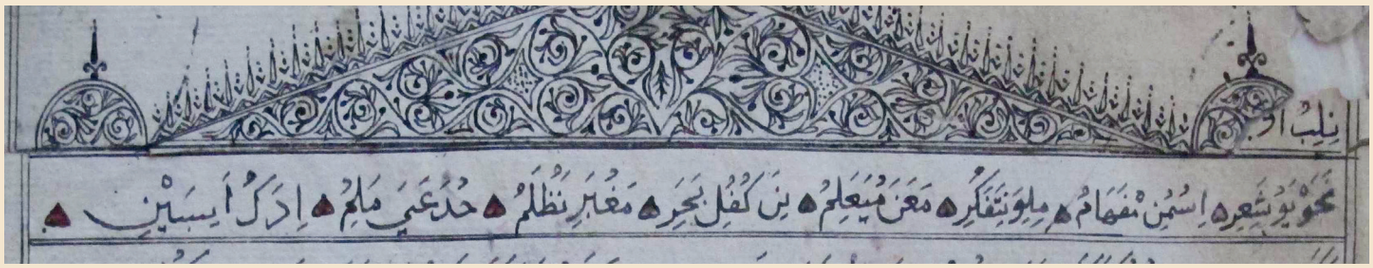
"حين تحتفل لامو، فإن الثقافة السواحيلية تتجدد
يجتمع الناس كل عام
لمشاهدة السواحيليين وتعلم طريقتهم في الحياة
ينسج الحرفيون الكوفية والحبال بإتقان
وتتسابق السفائن العظيمة
والراقصون يدورون في الهواء
وتقدّم الحمير عرضها
والسابحون يتباهون بمهاراتهم على المياه الصافية
بينما يستمتع الزوّار بالمنظر الجميل
ومنذ القديم يقودنا تراثنا
ونحن نحمل تاريخنا بقوّة
هدية إلى المحبين في لامو"

أحمد شيخ نبهاني

(النص مترجم للعربية من ترجمة القصيدة بالإنجليزية لمارجريت سيركن)[10]

رايدر سامسون

الشعر في الثقافة السواحيلية



[جزء من مخطوطة تعود إلى قرابة مائة عام ضمن مجموعة مقتنيات المركز الشرق إفريقي للبحوث حول التراث الشفهي واللغات القومية الإفريقية المعروضة في الأرشيف الوطني في زنجبار]

Nahau ya ushairi isomeni mufahamu * *m(w)elewa na tafakuri maana muyaalimu*

inakufuli bahari maghubari na dhulamu * *hudu'aya m(w)alimu endako asibaini*

تدبّر في فنون الشعر وافهم * معانٍ صاغها فطن فهيم

فإن النظم أجمعه سحاب * يجلّي صوغه سحر نظيم

ينتمي البيتان السابقان إلى قصيدة قديمة تنشد وهي مكتوبة بالحروف العربية بعد فترة طويلة من زمن نظمها، ولا يعرف تاريخ القصيدة لأن القصائد محفوظة في الذاكرة وتتناقلها الأجيال شفهيّاً من جيل إلى جيل. ويسمّى إنشاد الشعر "كيسواهيلي"، تماما مثل تسمية اللغة نفسها، حيث تعني الكلمة أيضا التغنّي بالشعر.

ويتحدث بالسواحيلية كلغة أولى أو ثانية اليوم، أكثر من 200 مليون نسمة في العالم. ولها فنون عديدة، يأتي الشعر في مقدمتها، وله مكانة خاصة، حيث تعقد له جلسات إنشاد في مناسبات خاصة وعامة عديدة. ومن تلك المناسبات الأعراس، والمآتم، والمناسبات الدينية والسياسية كما أنه يقرأ أيضاً في المناسبات الاجتماعية عند استقبال ضيوف رسميين، فينشد في حضورهم

القصائد الطوال، كما ينشد في السباقات المختلفة في مديح الفائز وتهنئته بالجائزة. وتغنّي فرق الطرب في مناسبات عديدة قصائد منظومة ببلاغة فائقة.

لقد تحدثت الشعوب على طول الساحل الشرق إفريقي في المحيط الهندي الغربي باللغة السواحيلية قبل وصول الإسلام في القرن السابع الميلادي بكثير. والأغاني التي نظمها الشاعر العظيم فومو ليونجو، الذي عاش بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين لم تدوّن حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وتعتبر معلّقته "تيندي أو تينزي" في غالبها ترجمة لشعر ديني بالعربية، وقد دوّنت بالحروف العربية قبل أن تبدأ كتابتها بالحروف اللاتينية، وذلك في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

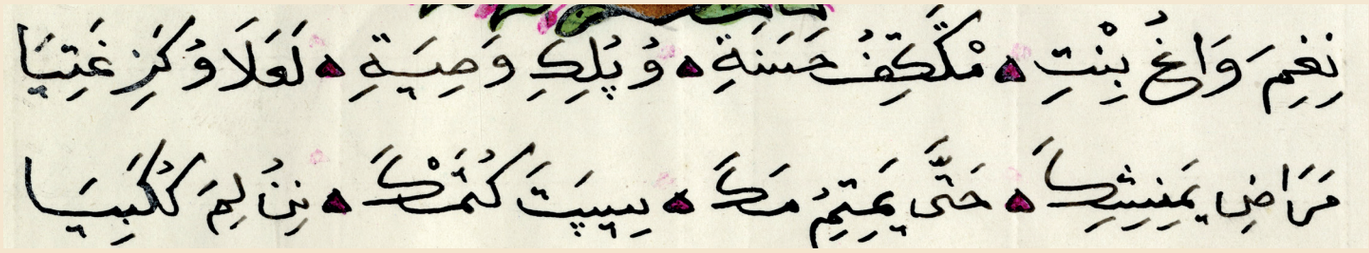
وقد نُظمت معلقة "تيندي" على بحر واحد وقافية موحّدة، ويبلغ طولها تقريبا 4000 بيت، وتشبهها في الطول "قصيدة رأس الغول" التي تبلغ 4583 بيتاً، والتي تعود إلى عام 1855م. وقد تكون قصيدة تشو تشا هيركال، القصيدة الأقدم الباقية بشكل مكتوب.

ويعود تاريخها إلى عام 1233 هـ/ 1755م. ومثل معظم القصائد المنظومة قبل القرن العشرين، فهي مكتوبة بالحروف العربية وبطريقة كتابة القصائد العمودية التي يكتب الشطر الثاني مقابلا للشطر الأول.

وتحتل القصائد مكانة خاصة في المجتمع السواحيلي، ليس في التاريخ الأدبي للغة فقط، بل لكونها مرآة لقيم تلك اللغة ونظرتها للعالم والناس.

ولعل أبرز الأمثلة الحيّة على ذلك قصيدة (Utenzi wa Mwana Kupona) أي كتاب موانا كوبونا، المنظومة في سنة 1275هـ/1858م، في باته، للشاعرة موانا كوبونا بنت مشام التي نالت شهرة واسعة، ليس على الصعيد المحلّي فحسب، بل بطباعة مخطوطاتها المكتوبة في عشرينيات القرن التاسع عشر الميلادي، وفي الثلاثينيات منه عن طريق الفنان محمد كيجوما من لامو. وفي مطلع القصيدة التي تتألف من 102 بيت، عبرت الشاعرة من خلالها عن حالتها عند مرضها وهي تقدم نصيحة لابنتها:

أنها "عقود من اللآلئ" (tungo za lulu)، يغوص الشاعر في أعماقها؛ ليستخرج أساليبها، مما أنتج العديد من الأساليب وأنواع الشعر في صميم هذه الثقافة.



(مكتبة جامعة هامبورج، قصيدة موانا كوبونا، تحقيق محمد كيجوما، لامو 1331هـ/1912م)

*negema wangu binti * mchachefu wa sanati * upulike wasiati * asa ukazingatiya*

*maradhi yamenshika * hatta yametimu mwaka * sikupata kutamka * neno lema kukwambiya*

بنيّتي الجميلة * فلتَقرُبي ولتسمعي

مع أنك صغيرة * لكنْ رجاءً فلتعي

لا زلتُ حولا كاملا * مريضةً في مضجعي

فلم تتح لي فرصة * بأن أواســـي أدمـــعي

فلتقبلي نصيحةً * من قلبِ أمٍ مُوجـــَعِ

وبعد 150 عام من نظم تلك القصيدة كتب علي الماوي جواباً في 575 بيتاً إلى موانا كوبونا، "Jawabu la Mwana Kupona"، مثبتاً كيف يعيش الشعر التقليدي في المجتمع السواحيلي المعاصر.

وينظر إلى القصائد في الثقافة السواحيلية على

وتتنوع هذه الأساليب من قصيدة البيت الواحد الطويل مثل النصوص (ماجينا) التي تكتب على أغطية الرأس النسائية (الكانجا/ الليسو)، إلى القصيدة التي تمتد لآلاف الأبيات. وبين ذلك نجد القصائد القصيرة التي تتراوح بين أربعة أبيات إلى ثمانية، كالقصائد الوطنية وقصائد الحرب. والرباعيات من القصائد (مشيري)

لشعراء مثل موياكا (1840-1776م)، أو أغاني (نينبو) أو أبيات أحمد ناصر جمعة بهالو (2019-1939م). وقد أثبت كثير من الشعراء أنهم مترجمون عظام للشعر العربي الكلاسيكي ونقله شعراً إلى اللغة السواحيلية. ويعد المخطوط لترجمة عيدروس عثمان للشعر العربي المغنّى قصيدة الهمزيّة يعدَ أحد أقدم الآثار الأدبية السواحيلية.

وفي المقابل، فإنه ومع مرور الزمان نشرت آلاف القصائد السواحيلية في الصحف السواحيلية، وجاءت في شكل أسئلة مقدمة للمحررين بصيغة حوار (استفسارات منظومة) عن جميع المواضيع الممكنة، من الحب إلى السياسة، ومن الطبيعة إلى الملاحة البحرية، ومن التعليم إلى التاريخ، ومن الدين إلى الفلسفة.

وكانت صحيفة المرشد (مونجوزي) التي صدرت في زنجبار في الفترة (1964-1941) واحدة من الصحف الأسبوعية التي تنشر قصائد فصيحة من نظم قرائها، وكان الشيخ عبدالله بن صالح الفارسي (1982-1912)، مترجم القرآن الكريم إلى السواحيلية، أحد محرري هذه الصحيفة المسؤولين عن نشر هذه القصائد. وفي تنجانيقا، خصوصاً، حظت قصائد شعبان روبرت (1909-1962)، التي نشرت أولاً في صحيفة مامبو ليو، بمتابعة واسعة من القرّاء.

ويعتبر الشعر السواحيلي علامة من علامات نقاء قائله وصفاءه الذهني، وهو فن يحتاج مهارة عالية، وتتميز فيه النساء بشكل خاص، اللاتي يفضل الكثير منهن أن يبقين مجهولات. كما أن المعرفة بالشعر السواحيلي القديم (كينجوزي) ولهجاته العديدة، ومهارة نظم بحوره المستعصية هي متطلبات أوليّة للفوز بلقب أمير الشعراء (بينجوا). وعبر القرون عدّ الشعر السواحيلي الأسلوب الأهم لنقل العلوم والآداب والتعليم.

ومن أهم شعراء الشعر السواحيلي، الشاعر الملّقب بـ"الإعصار"، واسمه حاجي جورا حاجي (1933-2021م)، وهو شاعر من تومباتو، وقد جاوب شاعرا آخر من ممباسا، تساءل عن جذور أصل "السواحيلية" في تسمية اللغة السواحيلية:

اسمع كلامي يا أخي * وانظر بعيني موقن
أصل الكليمة ثابت * ليس بعيد الموطن
فإن عرفت أصلها * أفلحت دوما فزنِ
إن السواحل أصلها * فغص لنيل المأمن



الموسيقى الروحية والتلاوات القرآنية هي أنشطة مهمة في احتفالات المولد النبوي.

وقد يكون المولیدي من أهم مهرجانات روزنامة لامو الثقافية، وشاهدا مؤثّرا على التبادل الثقافي بين العرب العُمانيين والثقافة السواحيلية. والمولیدي اسم شائع للاحتفال بميلاد النبي محمد، صلى الله عليه وسلم. ويحتفى بهذه المناسبة العظيمة في جميع الأقطار الإسلامية، ويحتفل بها بشكل خاص في لامو.

وتعود هذه الطريقة الفريدة للاحتفال في شرق إفريقيا إلى العالِم الإسلامي صويلح بن علوي بن عبدالله جمال الليل، المعروف شعبيّاً بالشريف حبيب صويلح، وهو من الأشراف الذين يرجع نسبهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وجاء هذا العالم من جزر القُمر إلى لامو عام 1866م، في أثناء حكم السلطان ماجد بن سعيد. لقد وجد انفتاح عقل سلاطين عُمان وتسامحهم نظيراً فكريّاً يتمثل في الشريف حبيب صويلح. ويظل مسجد الرياضة، الذي بناه هذا الشريف مركزاً لاحتفالات المولد النبوي. لقد دعي جميع سكّان الأرخبيل إلى المسجد للرقص والاحتفال بالمولد، بغض النظر عن خلفيتهم الطائفية أو مكانتهم الاجتماعية. وبهذه الطريقة تطوّرت نسخة احتفالية مبهجة أيضاً للمولد، مما عزّز الروابط الثقافية في مجتمعات لامو المتنوّعة، وهو أمر مستمر إلى اليوم.

وعلى امتداد الفترة الزمنية للاحتفالية التي تمتد لأسبوع، تمتلئ لامو بصلوات المتقين، وبالإيقاعات المختلفة للدفوف المصاحبة للرقص والإنشاد من الزائرين القادمين من أماكن شتى في الأرخبيل. ولعل أهم حدث في هذا الاحتفال هو الموكب الذي يقام في اليوم الأخير، وتحديدا في يوم الجمعة، الذي ينطلق من مسجد الرياضة إلى ضريح الشريف حبيب صويلح، ثم يعود إلى نقطة الانطلاق ثانية.



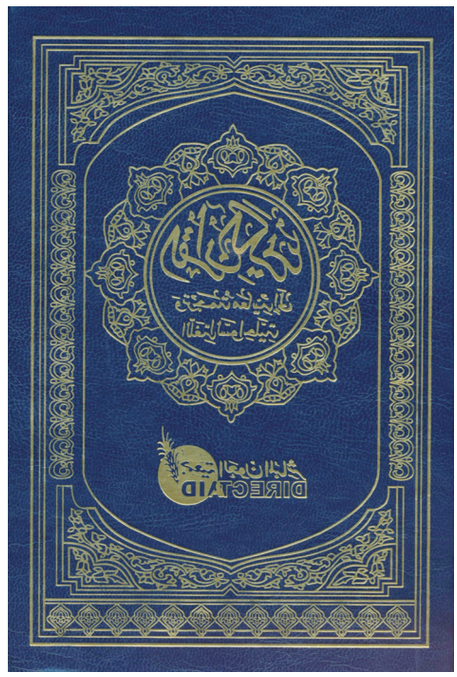
«الرزفة أو الرزحة» رقصة مشهورة في عُمان أيضاً.

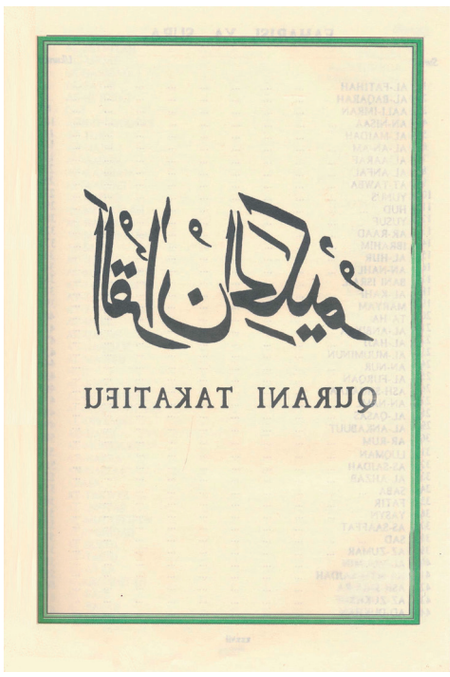
إن احتفالية المولد هذه ليست مهمة لسكان الأرخبيل فحسب، لكنها مناسبة مهمة للأقارب في أرجاء المعمورة للاجتماع، وزيارة الأرحام، والاحتفال بالعطلة معاً، ويشارك عُمانيون إلى اليوم في هذه الاحتفالية.

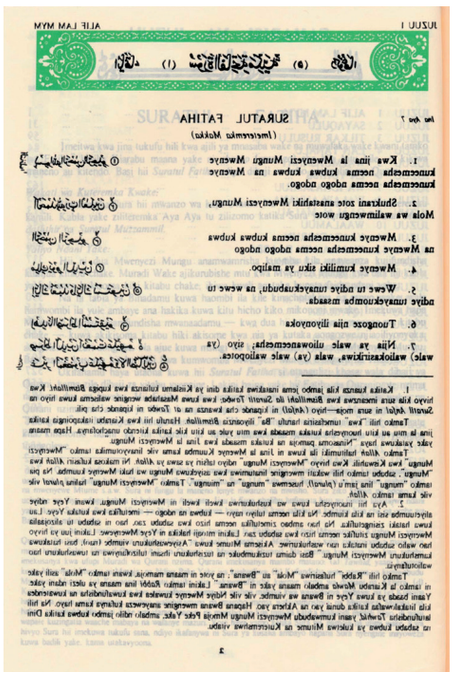
الشيخ عبد الله الفارسي وكتابه "قرآني تكاتيفو"

لعل أهم ما يوحد المسلمين في جميع أنحاء شرق إفريقيا اليوم هو القرآن الكريم بترجمته السواحيلية، وهو مصدر تشريعهم وما تقوم عليه حياتهم اليومية.

تنسب أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة السواحيلية للقس جودفري ديل، وهو منصّر مسيحي في زنجبار. وقد نشرت جمعية تعزيز المعرفة النصرانية في لندن هذه الترجمة في عام 1923م، لكي تكون مصدراً للمعلمين النصارى الأفارقة العاملين في بعثة جامعة وسط إفريقيا. لكن المسلمين لم يقبلوا بهذه الترجمة لأنها تعكس عقيدة الخلاص النصرانية.







واستمر الأمر حتى ظهرت ترجمة أخرى إلى السواحيلية في عام 1953م، وكانت للشيخ مبارك بن أحمد بن أحمد، كبير الطائفة الأحمدية في شرق إفريقيا، إلا أن تفسيره لبعض الآيات وفقاً للتقاليد الأحمدية أدّى إلى رفض قاطع لهذه الترجمة من قبل المجتمع السنّي في شرق إفريقيا.



مع أن شهرة الشيخ عبدالله الفارسي كانت واسعة وأنشطته عديدة إلا أنه لا توجد للشيخ صور عدا صورة قديمة واحدة نشرت له في إحدى الجرائد.

وبعد هاتين المحاولتين الفاشلتين، برزت الحاجة الملّحة إلى ترجمة إسلاميّة معتمدة. وقام بهذا العمل الشاق، والذي يحتاج وقتاً طويلاً الشيخ عبدالله بن صالح الفارسي، المولود في الأول من ديسمبر عام 1912م في زنجبار لأسرة عُمانية.

التحق الشيخ عبدالله الفارسي، بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم، بمدرسة ابتدائية محليّة عام 1924م، ثم واصل تعليمه ودرس العلوم الإسلامية في زنجبار لدى معلمين مشهورين في زمانه.

وفي عام 1960م، عيّن قاضياً للقضاة في زنجبار، وبعد الدمار الذي أعقب ثورة زنجبار، استقال من منصبه عام 1967م، وقَبِل دعوة الرئيس كينياتا وهاجر إلى كينيا، وعمل فيها قاضيا للقضاة قرابة 14 عاماً، حتى تقاعد عام 1981م. توفي الشيخ عبد الله الفارسي بتاريخ 9 نوفمبر 1982م، بعد ثمانية أشهر من مغادرته كينيا والتحاقه بعائلته العُمانية في مسقط.

وقد صدرت الطبعة الأولى لترجمة الشيخ عبدالله الفارسي وتفسيره القرآن الكريم بعنوان (قرآني تكاتيفو) عام 1969م. ونُسخت من الطبعة الأولى 7000 نسخة، ثم زاد العدد لما يقارب 100000 نسخة في الطبعات اللاحقة حتى عام 1987م.

يمين
نسخة من قرآني تكاتيفو المنتشرة في شرق إفريقيا في الوقت الحاضر.

أما تقدير المؤسسات الإسلامية الكبرى لترجمته، فلم يحدث إلا بعد وفاته، حيث اعتمد قسم الدراسات الإفريقية والترجمات بجامعة الأزهر رسميا (قرآني تكاتيفو) في 28 أكتوبر 1944م، بعد خضوع الترجمة لثلاثة مستويات من الاختبارات.

وأكد الشيخ أحمد محضار، قاضي قضاة كينيا حالياً، على أنه لا يتوجب فقط على طلبة التربية الإسلامية في المدارس الحكومية اعتماد قرآني تكاتيفو، بل حتى القضاة في المحاكم يجب أن يعودوا لهذه الترجمة. ويرى الشيخ محضار، أن الشيخ عبدالله الفارسي فتح معاني القرآن الكريم الحقيقية للمسلمين المتحدثين باللغة السواحيلية، ولم يعد الأمر بالنسبة لهم قراءة دون فهم. ومن خلال هذه الترجمة والتعليقات المصاحبة أصبحوا يعرفون معنى كل كلمة واردة في هذا الكتاب المقدّس، ولذلك أثر مهم على المجتمع في شرق إفريقيا اليوم.



الشيخ أحمد محضار، قاضي القضاة في كينيا.

العُمانيون والمجتمع الشرق إفريقي اليوم

استمرت زيارة التجار العرب والاستقرار في شرق إفريقيا لمئات السنين، وفي القرن التاسع عشر الميلادي فتح التجار العُمانيون بشكل أساسي، المنطقة التي تبلغ حتى البحيرات العظمى في وسط إفريقيا لأنفسهم وتجارتهم. لكن ذلك التفاعل مع السكان الأفارقة وثقافتهم لم يتخذ أبدا نشر الإسلام هدفاً له. وكان هذا مناقضاً بشكل تام مع جهود المنصّرين لنشر ديانتهم، الذين حرصوا دوما على إيجاد موطئ قدم لهم في شرق إفريقيا، بمساعدة تامة من السلاطين والتجار العُمانيين.

ونتيجة لجهود المنصرين وإصراراهم، يعتنق أكثريّة الشعوب الإفريقية اليوم الديانة المسيحية. وتربو نسبة المسيحيين في جمهورية الكونغو الديموقراطية على 90% من إجمالي السكان. بينما ينحصر وجود المسلمين على مقاطعة مانيما، خاصة مدينتي كاسونجو وكيندو وهي مناطق تجارة العُمانيين من أمثال تيبو تيب، ولا يزال يسكنها مجموعة من أحفاد أولئك التجار. وليس عجيباً أن ترى الرجال يلبسون الدشداشة في هذه المناطق بالتحديد.

والصورة نفسها يمكن أن ترى في المدن على طول شرق إفريقيا، وعلى خطوط القوافل التجارية القديمة في البرّ، التي استبدل بها خطوط النقل الحديثة بشكل مطابق، خصوصاً في تنزانيا. وظلّ هؤلاء الأفارقة العُمانيون مرتبطون بقوة بأقاربهم في سلطنة عُمان، وشكلوا مجموعات محلية نشطة متداخلة مع البقية. ومع أنهم أقلية، إلا أنهم يشعرون بمسؤولية تجاه المجتمع، ولديهم رغبة مستمرة لإحداث مساهمة مهمة لما فيه المصلحة العامة.



صرّح بلاسيد لوبامبا نجيبو أسقف أبرشية الروم الكاثوليك في كاسونجو في مقابلة:
„إن وصول المسلمين إلى هذه المنطقة أثر على تاريخ كاسونجو. وقد تعلمنا أن هؤلاء المسلمين قدموا من عُمان. ومارسوا الإسلام قابلين العيش المشترك. لم تكن هناك مشكلة، ولا صراع ديني. وفي الأسرة الواحدة ستجد المسيحي وتجد المسلم. والفلسفة بسيطة: يقول كل واحد: أننا قبل أن نكون مسيحيين أو مسلمين نحن إخوة".[11]

ومن المفيد هنا ذكر "جمعية الاستقامة لمسلمي تنزانيا"، التي تضم بشكل أساسي مواطنين تنزانيين من أصول عُمانية، وتدعمها مساعدات وتبرعات من أعضائها وتمويل حكومي من سلطنة عُمان.



أعضاء مجلس إدارة معهد الاستقامة خلال اجتماعهم السنوي في عام 2019م، في دار السلام.

وعبر العقود القليلة الماضية نجحت جمعية الاستقامة في تأسيس شبكة من المساجد والمعاهد التعليمية الدينية وغير الدينية في جميع أنحاء البلاد. وأكبر مشاريع جمعية الاستقامة في زنجبار هو الحرم الجامعي لمعهد الاستقامة في تونجو، ومركز العلوم الإسلامية التابع له.

بدأ مشروع تونجو بصفين دراسيين للسنة الأولى والثانية للمرحلة الابتدائية، وذلك في عام 2005م. ومن هذه الخلية التعليمية الصغيرة تشكّل مشروع تربوي متكامل ومستقل، يتضمن روضة ومدرسة ابتدائية ومتوسطة، وما زالت هذه المرافق تقدم خدماتها حتى اليوم فهي مؤسسات يتم تمويلها لتعليم الأولاد والبنات على حد سواء. وتحدد الرسوم بحسب دخل رب الأسرة. وتقدّم المدرسة نظام التعليم في أربع سنوات حسب المتطلبات التعليمية في زنجبار، كما أن المدرسة وبفضل المساندين، تقدّم لكل طالب وجبة غداء متوازنة بشكل يومي.



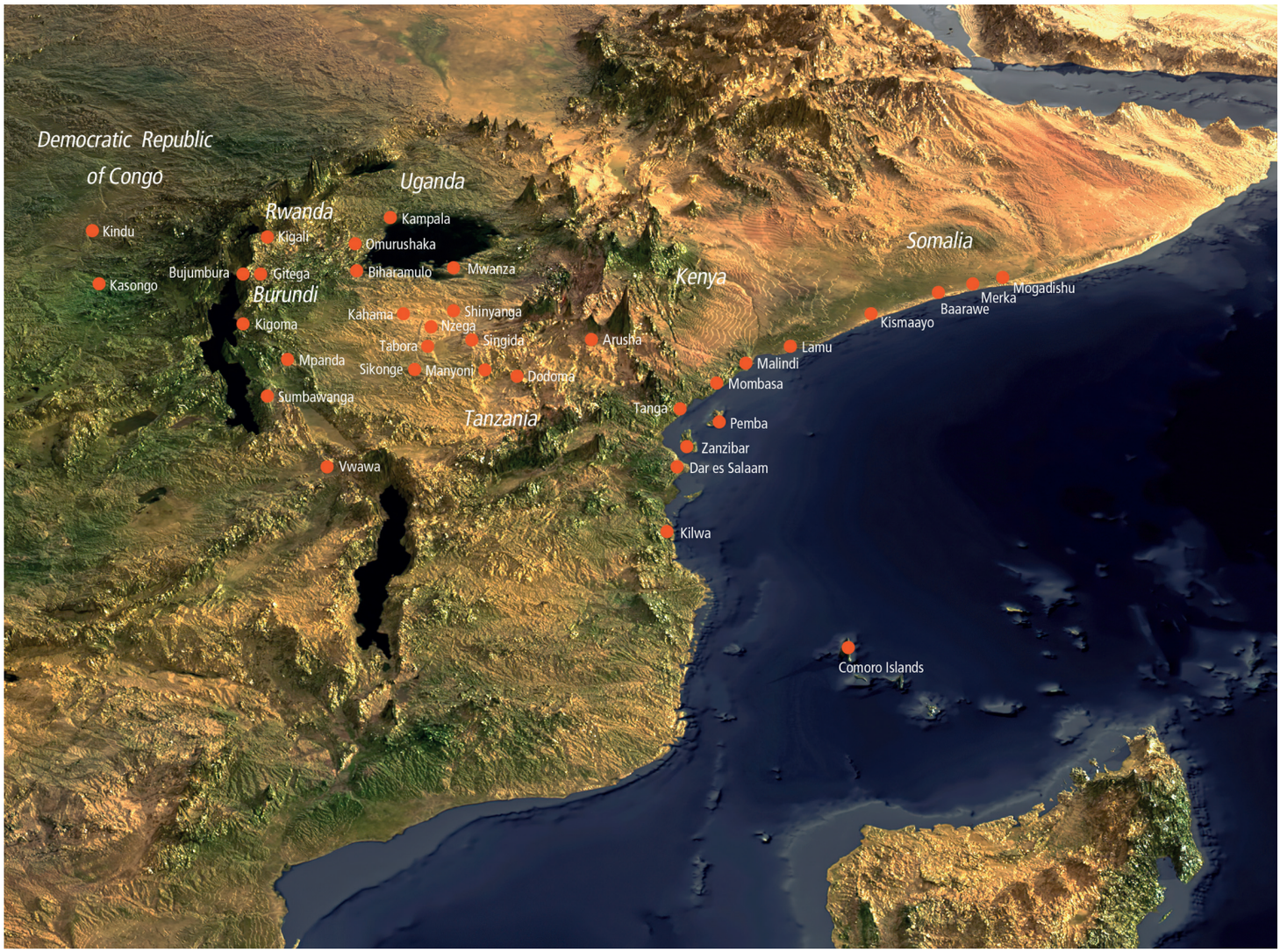


أعلى
منظر لجزء من حرم معهد الاستقامة في تونجو.
أسفل
الحصص الدراسية في المدرسة المتوسطة في تونجو تقدم في صفوف مختلطة.

افتتح مركز العلوم الإسلامية في 14 أغسطس 2015م، بحضور الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، المفتي العام لسلطنة عُمان. ويضم المركز الذي يعد كليّة جامعية إسلامية مسجداً للطلبة المقيمين في حرم الكلية، ومنزلاً لإمام المسجد وسكنا داخليا للطلبة المقيدين في المركز.

ويجب التذكير أن المدارس، التي تديرها جمعية الاستقامة، غير متحيّزة، فنجد فيها على سبيل المثال بعض الطلبة والأساتذة المسيحيين. وهذا أمر غير مستغرب، ذلك لأن جمعية الاستقامة ترى نفسها مؤسسة تقدم خدمات للمجتمع بأكمله بغض النظر عن خلفياتهم الدينية والعرقية. وعلى النهج ذاته، تشغّل المؤسسة مستوصفاً يمتلك سيارات إسعاف خاصة به في دار السلام، إلى جانب بعض المراكز الصحية في البرّ الإفريقي.

ويضم مجلس إدارة معهد الاستقامة رجال أعمال من أصول عُمانية، وهم من أبرز رجال المجتمع المؤثرين. وإلى جانب نشاطهم في إدارة المعهد، فهم يديرون مشاريع في جميع أنحاء البلاد كمحطات تزويد الوقود، ومصانع القطن، ومصانع للمشروبات، وشركات الشحن والبناء، وكل ما يمكن تخيّله من الأعمال. وهم روّاد أعمال مغامرون بنجاح، ويتبنون في الوقت ذاته مسؤوليات اجتماعية. ونتيجة لخبراتهم الواسعة، فقد تمكنوا من بناء المدارس وتجديد المساجد وبنائها، إلى جانب قيامهم بأعمالهم التجارية اليومية المعتادة.



تشير النقط الحمراء في الخريطة إلى المناطق التي يسكنها اليوم أناس ينحدرون من أصول عُمانية وينتمون عائليا إلى بعض التجار العُمانيين. وما زالوا يحافظون على روابط عائلية قوية مع عُمان. وتوزيع سكناهم يتطابق مع امتداد الطرق التجارية القديمة للقوافل.

إنّ الحضور العُماني في شرق إفريقيا ليس مجرد حكاية من الماضي، لكنه حضور يعيش في الكثير من شواهد التراث الثقافي المشترك، التي تخلّقت عبر قرون من التبادل. وفوق ذلك، فإنه جزء من النسيج الاجتماعي لعدد كبير من السكان الذين ستجدهم في جميع أنحاء شرق إفريقيا يتفاخرون بانتمائهم العائلي إلى عُمان.

ومن أبرز الشخصيات المعروفة عالمياً في هذا الصدد امرأة تدعى سامية صولوحو حسن، وهي سياسية تنزانية ولدت في زنجبار، وتنتمي عائلتها إلى ولاية المضيبي بسلطنة عُمان، والتي أصبحت مؤخرا رئيسة لجمهورية تنزانيا بعد وفاة الرئيس جون ماجوفولي في مارس 2021م. وهذا شاهد واضح على أن أحفاد التجار العُمانيين متجذّرون بقوّة اليوم في الحياة اليومية والسياسية في شرق إفريقيا. إنهم ليسوا نكرات من التاريخ، بل جزءا حيوياً من مجتمع شرق إفريقيا، يساهمون بقوة في صياغة المستقبل للأجيال القادمة، انطلاقاً من التاريخ المشترك.



خاتمة

هجرة أم استعمار

إن دور العمانيين في شرق إفريقيا لم ينته بعد، وفي أثناء البحث لجمع مادة هذا الكتاب وإنتاج ثلاثة أفلام وثائقية مصاحبة لم نجد شواهد دالة على الحضور العماني في العالم المادي لشرق إفريقيا فحسب، بل قابلنا أناساً يجسدون ذلك التواصل القديم الذي استمر لقرون عديدة. والشواهد الحيّة على هذه العلاقة المفعمة بالنشاط تنتشر من الكونغو حتى جزر القُمر، وتمتد من مقديشو حتى موزمبيق. وبغض النظر عن الاضطرابات والتمزقات التاريخية، فإنّ تجاربنا أكدت لنا أن العلاقة بين عُمان وشرق إفريقيا لم تنقطع بشكل يتعذّر معه استردادها؛ فعُمان حاضرة في شرق إفريقيا حضور شرق إفريقيا في عُمان، والشواهد القاطعة على ذلك التأثير المتبادل، وهي كثيرة، تتمثل حتى في اتفاق أذواق الطعام، واللغة؛ فعند دخولك إلى مجلس في مسقط فإنك ستجد لا محالة أحد كبار السن، يتحدث السواحيلية.



ما هو الإرث الذي خلّفه الحضور العماني في شرق إفريقيا؟ وللإجابة عن هذا السؤال فإن فريقا ألمانيا-عمانيا قاده المخرج فريدرش كلوتش قضى خمس سنوات متتبعاً تاريخ الحضور العماني المدهش وغير المعروف في شرق إفريقيا. وقد زار الفريق أرشيفات في عُمان وزنجبار، وقابل متخصصين حول العالم، والتقى بأناس من أصول عُمانية يعيشون في شرق إفريقيا، في أماكن مثل كوسونجو في جمهورية الكونغو الديموقراطية.

وفي هذا الوقت الذي نشط فيه خطاب إنهاء الاستعمار بتوجهاته المختلفة، كـ "ثقافة الإلغاء"، و"سياسات الهوية"، فإن علينا أن نطرح السؤال الآتي: هل كان الحضور العماني في شرق إفريقيا استعماراً أم هجرة؟

وللإجابة عن ذلك فإن علينا أن نعود لبدايات الصلات التي ربطت الجزيرة العربية بشرق إفريقيا، مما ذكرناه في الفصول الأولى لهذا الكتاب، وفي الحلقات الأولى من الفيلم الوثائقي. ومن السهل جداً العثور على إثبات يدل على التواصل الذي يعود إلى بدايات العصر الإسلامي. ومن الممكن جداً أن تلك العلاقات، المعتمدة على الرياح الموسمية في المحيط الهندي، تعود إلى فترات أبكر من ذلك. وفي بدايات هذه الروابط، وهذا مجمع عليه من قبل المؤرخين، التي تطورت كانت هناك دوافع اقتصادية لذلك التبادل. وقد أنشئت الطرق التجارية، اعتماداً على الرياح الموسمية التي تحمل السفن المتجهة جنوباً في أشهر الشتاء، وشمالاً في أشهر الصيف. والرحلة من مسقط إلى زنجبار أو لامو أو الرحلة بالاتجاه المعاكس تستغرق أربعة أسابيع. وعلى طاقم السفينة والتجار العُمانيين الانتظار ستة أشهر قبل البدء في رحلة العودة. لذا نشأت المستوطنات التجارية، وزاد طول مدة الانتظار من تلك العلاقات لتتجاوز حدود التجارة الصارمة.

ومهّدت طرق التجارة النشطة لموجات من الهجرات المتقطّعة في تاريخ الجزيرة العربية وشرق إفريقيا. وغذّى هذه الهجرات عددا من العوامل أبرزها: الجفاف، والأوبئة، والنزاعات القبلية، والاضطهاد، والطرد، وفوق ذلك الحروب. ومن هذا المنظور فإن تلك الهجرات التاريخية تتشابه مع الهجرات في العصر الحديث.

والجواب المبدئي عن تساؤلنا المطروح هو كالتالي: يمكن القول بتسمية المستوطنات الأولى للعمانيين في شرق إفريقيا بالهجرات. لكن كيف يمكننا تبرير قرار السلطان سعيد بن سلطان نقل مركز قوّته إلى شرق إفريقيا في ثلاثينيات القرن الماضي، وإعلان زنجبار عاصمة لمملكته الساحلية عام 1840م؟ هل كان هذا فعلا استعماريّاً؟

حدّد المؤرخون الفروق الأساسيّة بين الأمرين. وفي مقابلة أجريناها لهذا المشروع، بسّط الأستاذ الدكتور ألان فورمهيرز، مدير مركز دراسات الشرق الأوسط، بجامعة ولاية جورجيا الأمريكية، آراءه، وقد توصل هذا المؤرخ إلى أنّ ما تمّ في ذلك الوقت كان حركة غير اعتيادية اتبعها السلطان سعيد، حيث كانت الدول الأوروبية أثناء الحقبة الاستعمارية، تحافظ على قوتها وتعززها في مراكز سلطتها، في حين كان يعاد تحويل تدفق البضائع، وسلسلة المنافع بمستوياتها المتعددة، وتراكم الثراء إلى لشبونة ولندن وباريس وبرلين. ولم تفكّر الإمبراطورية البريطانية، وهي أعظم القوى المستعمرة وأطولها مكثاً على امتداد المحيط الهندي، في نقل مركز قوتها إلى الهند، ولا في نقل عاصمتها من لندن إلى بومبي.

وفقا لهذا النهج المنطقي، يمكننا، بكل ثقة، أن نعّد قرار السيّد سعيد بن سلطان بنقل عاصمة إمبراطورتيه إلى زنجبار، بأنه فعل هجرة. إضافة إلى ذلك، وكما سبق توضيحه في الفصول السابقة ذات العلاقة من هذا الكتاب والفيلم الثاني من حلقاتنا، المتصل بالتاجر العماني تيبو تيب، فإن انتشار الزواج بين الأعراق مؤشر آخر على أن الوجود العماني في شرق إفريقيا كان فعل هجرة، لا يسعى إلى الاستعباد وتأسيس العبودية، فلم يؤسس العمانيون مستعمرات لقهر الشعوب الأصلية لصالح السادة، بل كانت المنافع متبادلة. كما أن الرق نظام موجود من القديم، ومنتشر، وقد شارك فيه الأوروبيون والأمريكيون والعرب والآسيويون، والشعب السواحيلي، بالإضافة إلى مشاركة الأفارقة أنفسهم في



هذه التجارة. وواقع الأمر لا يؤكد صحة المزاعم الاستعمارية.

إن علاقة العمانيين بموطنهم الأم لم تنقطع أبداً، وهم لم يهاجروا إلى شرق إفريقيا ويستقروا هناك بشكل دائم. لقد نظروا إلى أنفسهم على أنهم مكوّن من المجتمعات السواحيلية المتعدّدة القوميات، والتي ساعدوا في تشكيلها على سواحل شرق إفريقيا. وتقدم حياة الشيخ مبارك الهناوي وأعماله، وهو بطل الحلقة الثالثة لسلسلة أفلامنا، دليلاً كافياً لهذا الاستنتاج.

أحداث رئيسة في التاريخ العماني-الشرق إفريقي أعيد تمثيلها في مواقعها الأصلية. واستخدمنا مقتنيات أصلية متى ما كان ذلك ممكنا، أو قمنا بإعادة صناعة بعضها حسب آراء الخبراء المختصين. لكنّ التركيز الأساسي لهذا الإنتاج ليس لضمان الدقة التاريخية للمواد المساعدة والأزياء، وإنما لتحديد السمات النوعية والمواقف الكبرى التي تسود التاريخ العُماني.

تراث مشترك

لقد حاولنا في هذا المشروع إبراز دور الحضور العُماني في شرق إفريقيا في النهضة التقنية العظيمة، وفي المجال الزراعي، والرفاه المعيشي، لأن الساحل السواحيلي ازدهر بالتقدّم الاقتصادي والدبلوماسي، وكان هناك انصهار لأصول الثقافة غير المادية.

وسارت فوائد التجارة في خطين اثنين؛ فقد استوردت الموارد الطبيعية والأخشاب والمواد الغذائية غير الموجودة في شبه الجزيرة العربية لتغطية الاستهلاك المحلّي، ومنها صُدِّرت إلى الأسواق الخارجية. ويمكن القول إن آثار وذكريات شرق إفريقيا حيّة، تقريباً، في كل بيت عماني اليوم.

خلفت التطوّرات السياسيّة في الستينيات، وخاصة أحداث زنجبار في عام 1964م، جروحاً عميقة، لكنّها لم تنجح في قطع الصلة بين عُمان وشرق إفريقيا. وإلى جانب العائلات ذات الأصول العُمانية، فإن الحضور العُماني في شرق إفريقيا يُستشعر من خلال المشاريع العديدة المدعومة والمموّلة من الدولة العُمانية، متمثلة في المؤسسات الثقافية والخيرية، ومن بينها هذا المشروع المتعدد الوسائط.

إن مقصد الأفلام الثلاثة وهذا الكتاب هو نشر الوعي بالتراث المشترك بين عُمان والدول الواقعة في شرق إفريقيا. وفي أثناء هذا المشروع شاهدنا واستمتعنا بالمساعدة والترحيب الذي أبداه السكان السكان في شرق إفريقيا لنبلغ هدفنا في حفظ الإرث العُماني والاعتزاز به لكونه جزءا لا يتجزأ من تراث شرق إفريقيا.

فريدرش كلوتش

ميونخ، 2022

الملحق

فريق عمل شركة ديماكس لمشروع "بيت العجائب: الحضور العماني في شرق إفريقيا"
أفلام وثائقية والكتاب المصاحب



فريدريش كلوتش
كاتب سيناريو، وسينمائي ومخرج أفلام، متخصص في الأفلام الوثائقية والدرامية. صنع خلال عمله – بوصفه كاتبا ومخرجا مستقلا - العديد من الأفلام الوثائقية للقنوات التلفزيونية العامة. وهو رئيس مشروع «الحضور العماني في زنجبار وشرق إفريقيا»، والمسؤول عن المسار الفنّي لسلسلته الوثائقية المكونة من ثلاثة أجزاء، إلى جانب قيامه بالبحث وكتابة مادة الحلقة الأولى، التي تركّز على السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي.



جورج بوب
مؤلف كتب، ومنظم معارض، وفنّان تشكيلي. ركّز منذ عام 1992م على سلطنة عمان مجالاً لأنشطته الإبداعية وأعماله الفنيّة، ومؤلفاته، ومعارضه، والمشاريع المتصلة بذلك. نشر عدة دراسات وكتب عن سلطنة عُمان، ونظّم معارض متنقلة حول الثقافة والدين فيها. وهو كاتب سيناريو الحلقة الثالثة من سلسلة الأفلام في هذا المشروع، والمتصلة بالسير مبارك الهناوي. وهو، أيضاً، كاتب ومؤلف الكتاب المصاحب.



يواخيم بولس
مؤلف ومنتج للأفلام والبرامج المتصلة بها منذ 1986م، وعضو في جمعية الصحفيين الألمانية. وقد نال العديد من الجوائز نظير أعماله في هذا المجال. قدم يواخيم بولس دعما كبيرا منذ عام 2019م، كمنتج ومدير مالي في تصوير سلسلة الأفلام الوثائقية العالمية عن الحضور العماني في شرق إفريقيا. كما قام بجمع المادة العلمية وكتابة سيناريو الحلقة الثانية من سلسلة أفلام هذا المشروع، والمتصلة بتيبو تيب.



جمعة المسكري
مستشار أمن تقنية معلومات عُماني، ولد في زنجبار ويعيش في ألمانيا. وفي رؤيته الخاصة إنه يجب على الإنسان أن يعرف تاريخه الخاص ليفهم مسار مستقبله الشخصي، ويعد المسكري جسر تواصل بين الشرق والغرب، وقد أسهم بعضويته في هذا المشروع بشكل واضح، فهو المستشار في شؤون حوار التداخل الثقافي، وممثّل للمشروع في التواصل مع المؤسسات الرسمية، والشخصيات المحليّة.



مايكل ديكنسون
باحث أمريكي، ومتعاون مع جورج بوب لما يزيد على 10 سنوات، في البحث والتأليف الخاص بسلطنة عُمان. أسهم في هذا المشروع بعمله مديراً للإنتاج ومواقع التصوير، ومترجماً، ومراجعاً لغويّاً، ومن خلال بحثه المعمّق وجمعه للمادة، خاصة المادة المتصلة برحلة أحمد بن النعمان الكعبي إلى نيويورك سنة 1840م.

المساهمون في الكتاب



رياض بن عبدالله بن سعيد البوسعيدي
ولد في بيت السركال (بيت الحكم سابقا) في أثناء حكم السلطان خليفة بن حارب، والسلطان خليفة هو زوج عمته السيّدة نونو بنت أحمد. جمع معلومات كثيرة جداً عن أمور تاريخية مختلفة تتصل بزنجبار. وكان ضمن حاشية السلطان في أثناء زيارته دار السلام، وتانجة، وممباسا، ولامو. درس القانون الدولي في جامعة براغ، ثم علم الاجتماع في جامعة ليدز بالمملكة المتحدة.



د. سليمان المحذوري
باحث ومؤرخ في العلاقات التاريخية والثقافية بين عمان وشرق إفريقيا. مؤلف كتاب "زنجبار في عهد السيد سعيد بن سلطان، دراسة في التاريخ الاقتصادي". يعمل في هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، بسلطنة عمان.



الأستاذ الدكتور ألان فرومهيرز
باحث ومؤرخ في العلاقات التاريخية والثقافية بين عمان وشرق إفريقيا. مؤلف كتاب "زنجبار في عهد السيد سعيد بن سلطان، دراسة في التاريخ الاقتصادي". يعمل في هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، بسلطنة عمان.



د. جويدو جريسيلس
مدير عام المتحف الملكي لإفريقيا الوسطى في ترفويرن، ببلجيكا. والمتحف مؤسسة علمية فيدرالية للبحث ونشر المعلومات المتصلة بالجوانب المختلفة لإفريقيا في حقول علم الأحياء، وعلوم الأرض، وعلم الإنسان، والتاريخ والزراعة. والمتحف مرجع مشهور بمقتنياته الخاصة بإفريقيا الوسطى، ومعترف به عالميّاً لما يضمّه من قاعات عرض، وما يقوم به من أبحاث حول الثقافة، والتراث الطبيعي، والمجتمعات والبيئات الطبيعية لإفريقيا.



الأستاذ الدكتور ذوالفقار حيرجي
أستاذ في قسم دراسات علم دراسات الإنسان بجامعة يورك، بتورينتو، في كندا. تركز دراساته على الإسلام والمجتمعات الإسلامية في السياقات التاريخية والمعاصرة، تحديداً في إفريقيا والمحيط الهندي. ومن مؤلفاته "مقاربات للقرآن في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى" (2019)، و "بين إمبراطوريتين" (2012)، والكتاب الأخير سيرة ذاتية مفصّلة عن الشيخ مبارك الهناوي.

المساهمون في الكتاب



د. بيرجت ميرشن
اتخذت منذ أول زيارة لها إلى سلطنة عمان في عام 1995م، كأستاذة زائرة في جامعة السلطان قابوس، من عُمان وطناً والمحور الذي تركز عليه في أبحاثها. وقد اكتسبت الدكتورة ميرشن بمرور السنوات - التي امتدت إلى 25 سنة، تدريساً، وبحثاً ميدانيّاً، وتواصلاً مع المجتمعات المحليّة، وعملاً استشارياً لمؤسسات حكومية، وشركات مختلفة، في تاريخ عمان الثقافي - معرفة كبيرة بالتراث المادي والثقافي للسلطنة، وأنماط الحياة فيها.



الأستاذة الدكتورة كارن بولفر
أستاذ مشارك في التاريخ الإفريقي بجامعة بولونيا في إيطاليا، حيث تدرّس التاريخ الإفريقي الحديث، وإفريقيا والعالم، وتاريخ المحيط الهندي. وقد عملت سابقاً باحثة في قسم العملات والميداليات، بالمتحف البريطاني في لندن. وتركز أبحاثها على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لشرق إفريقيا مع التركيز على التاريخ النقدي والعمالي. وهي رئيسة منظمة الدراسات الإفريقية في إيطاليا (ASAI).



د. رايدر سامسون
باحث ومحاضر متقاعد في اللغة السواحيلية واللغويات، جامعة لايدن، هولندا. كما عمل في عدد من المؤسسات التعليمية من بينها المعهد الآسيوي الإفريقي، ومركز دراسة ثقافات المخطوطات التابعان لجامعة هامبورج (AAI/ CSMC) ، وجامعة هومبولدت في برلين ، وكلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن (SOAS)، وكلية اللغات الإفريقية (Afrikassnde Taalkunde) في لايدن، وجامعة تاكيولوكي (Takiluki) في زنجبار، وهو أيضا أستاذ زائر في جامعة لشبونة، وجامعة كاتوليكا لشبونة، وجامعة وارسو، وجامعة سانت بطرسبرغ، وجامعة نابولي، وجامعة دار السلام، وجامعة بيروت، وجامعة القمر، وجامعة بوجومبورا.



الأستاذ الدكتور إبراهيم الزين صغيرون
عمل أستاذاً للتاريخ العماني الحديث بجامعة السلطان قابوس، في سلطنة عمان، في الفترة 2013-1989م، وعُيّن رئيسا لقسم التاريخ من عام 1998 حتى سبتمبر 2003م. درّس جميع المقررات المتعلقة بعمان وشرق إفريقيا، كما أشرف على أبحاث طلبة الماجستير والدكتوراه في مجالات مختلفة من التاريخ العماني في شرق إفريقيا. نشر العديد من الكتب والدراسات في مجال الدور السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي لعمان في شرق إفريقيا وإفريقيا الوسطى.

شكر وتقدير

إن أردت إنصاف قصة، فعليك النظر إليها من زوايا مختلفة. وفي مشروع «الحضور العماني في شرق إفريقيا» فإن تعاوناً وثيقاً بين الباحثين، والخبراء، وشهود العيان المعاصرين من جميع أنحاء العالم كان حاضراً بشكل منقطع النظير.

وتقديرنا العميق يذهب إلى:

- مبارك عبدالقادر عبدالله ، نصب جيدي التذكاري الوطني
- خانات عبود ، زنجبار، تنزانيا
- الأستاذ الدكتور إبراهيم نور شريف البكري ، مسقط ، سلطنة عمان
- رياض البوسعيدي ، مسقط، سلطنة عمان
- الحاج محمد علي، متحف لامو ، كينيا
- الأستاذة ليلى اللمكي ، مسقط، سلطنة عمان
- ناصر الفرعي ، موانزا ، تنزانيا
- خليفة بن مبارك الهنائي، مسقط، سلطنة عمان
- د. سليمان المحذوري ، مسقط، سلطنة عمان
- د. محمد بن ناصر المحروقي، مسقط، سلطنة عمان
- علي المنذري، ممباسا، كينيا
- سالم المزروعي، ممباسا، كينيا
- أ. سلطان الشيباني ، مسقط، سلطنة عمان
- د. نويمي أرازي، ترفويرن، بلجيكا
- فاروق علي شيراجدن، ممباسا، كينيا
- تيرسو دوس سانتوس، رئيس مكتب اليونيسكو في تنزانيا
- جواتشم دوستر، برلين، ألمانيا
- الأستاذ الدكتور طارق الشريف، مملكة البحرين
- الأستاذ الدكتور ألان فورمهرز، أتلانتا، الولايات المتحدة
- مساجاتا نجولاتي سعيد فونديكيرا، تابورة، تنزانيا
- جويدو جريسيلس، ترفويرن، بلجيكا
- مريم حمداني، زنجبار، تنزانيا
- سعادو هاشم، ممباسا، كينيا
- الأستاذ الدكتور ذوالفقار حيرجي، تورينتو، كندا
- الأستاذ الدكتور فالري هوفمان، جامعة إلينوي، الولايات المتحدة
- محمد إلياس، زنجبار، تنزانيا
- المحافظ حسن علي جوهو، ممباسا، كينيا
- الإمام بيرتن كلامبو، كاسونجو، الكونغو
- د. كلاندر خان، ممباسا، كينيا
- السفير ستيوارت لينج، كامبريدج، المملكة المتحدة
- د. أليكسندر ليفينجستون سميث، ترفويرن، بلجيكا
- د. بيرجت ميرشن، مسقط، سلطنة عمان
- علي إبراهيم ميزا، ممباسا، كينيا
- الشيف قادي شيخ أحمد محضار، نيروبي، كينيا
- كارلوس مونتالفاو، لشبونة، البرتغال
- ستامبول عبدالله ناصر، ممباسا، كينيا
- بلاساید لوبامبا ندجيبو، كاسونجو، جمهورية الكونغو الديمقراطية
- حسن نداتاما، أوجيجي، تنزانيا
- الأستاذ الدكتور بياتريس نيكولليني، ميلان، إيطاليا
- الأستاذ الدكتور كارين بالافير، بلوجنا، إيطاليا
- د. أنيت باتزيلت، مسقط، سلطنة عمان
- جيرمي بريستهولدت، سان دييجو، الولايات المتحدة
- د. مايكل ريس، ميونيخ، ألمانيا
- الأستاذ الدكتور ستيفن روكيل، تورينتو، كندا
- الأستاذ الدكتور إبراهيم صغيرون، الخرطوم، السودان
- الإمام جمعة سالم، دار السلام، تنزانيا
- أرونا شادا، كوسونجو، جمهورية الكونغو الديمقراطية
- الأستاذ الدكتور عبدالشريف، زنجبار، تنزانيا
- فاروق توبان، كراتشي، باكستان
- د. عيسى الحاج زدّي، زنجبار، تنزانيا
- جيرمي جونز، أكسفورد، المملكة المتحدة

الدعم المؤسسي:

- جمعية مامان تيبو تيب ،كاسونجو، جمهورية الكونغو الديمقراطية
- أكاديمية دول داو للموسيقى، زنجبار، تنزانيا
- وكالة مطبعة الحكومة، زنجبار، تنزانيا
- معهد المتاحف الوطنية في الكونغو
- جمعية الاستقامة الخيرية الإسلامية العالمية في تنزانيا
- متحف لامو، كينيا
- وزارة الثقافة والفنون، جمهورية الكونغو الديمقراطية
- وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان
- وزارة الدفاع، مسقط، سلطنة عمان
- وزارة الخارجية، مسقط، سلطنة عمان
- وزارة التراث والسياحة، مسقط، سلطنة عمان
- وزارة التراث والسياحة، زنجبار، تنزانيا
- وزارة الإعلام، مسقط، سلطنة عمان
- المتحف الوطني في كينيا، نيروبي، كينيا
- هيئة الوثائق والمحفوظات، مسقط، سلطنة عمان
- حديقة الأشجار والنباتات العمانية، مسقط، سلطنة عمان
- المتحف الملكي لإفريقيا الوسطى، ترفويرن، بلجيكا
- مؤسسة السيدة سالمة، زنجبار، تنزانيا
- مؤسسة سميثسونيان، واشنطن، الولايات المتحدة
- المركز الثقافي السواحيلي، ممباسا، كينيا
- الجامعة التقنية في ممباسا، كينيا
- مشروع زماني، جامعة كيب تاون، جنوب إفريقيا
- أرشيف زنجبار الوطني، ستون تاون، تنزانيا
- شركة زنجبار لصناعة السكر المحدودة، زنجبار
- تحالف المانجروف بلامو، كينيا

الهوامش والمصادر

الفصل الأول
بناء علاقة مع شرق إفريقيا

الهوامش

1 **Cleuziou, S., Tosi M.:** *Black boats of Magan: Some thoughts on Bronze Age water transport in Oman and beyond from the impressed bitumen slabs from Ras al Junayz*. In: Parpola, A. and P. Koskikallio (eds.): SouthAsian archaeology 1993 II. Helsinki, AASF Ser. B (1994)

2 https://whc.unesco.org/en/list/434

3 **Weisgerber, G.:** … *und Kupfer in Oman*
In: Der Anschnitt 32, 2–3 (1980)

4 **Prange M. K., Götze, H.-J., Hauptmann, A., Weisgerber, G.** *Is Oman the Ancient Magan? Analytical Studies of Copper from Oman*. Young, Suzanne M.M./ Pollard, A. Mark/Budd, Paul/Ixer, Robert A. (Eds.): Metals in Antiquity. BAR International Series 792, Oxford 1999, 187–192.

5 **Oman Ministry of Foreign Affairs.:** *Jewel of Muscat Calendar,* Muscat 2012, p 54

6 **Horton, M.:** *Ibadhis in East Africa: Archaeological and Historical Evidence*. In: Oman and Overseas, Hildesheim 2013, p 98

7 **Ibn Battuta, A.:** *The Travels of Ibn Battuta A.D. 1325–1354*. Trans. Gibb, H. A. R., London 1995, p 379

8 https://whc.unesco.org/en/list/144

9 **Sheriff, A.:** *The Swahili coast: Africa's Window on the Indian Ocean*. In: Oman and Overseas, Hildesheim 2013, p 86

10 **Staples, E.:** *The Formation of Oman's Maritime Power under the Yaariba and Sayyid Said*. In: Oman and Overseas, Hildesheim 2013, p 192

مصادر **الصور** (المقدمة والفصل الأول)

Al Maskari, Juma: p 37, 49 (a/b)
Al Shaibani, Sultan: p 40
Biblioteca Nacional de Portugal: p 48
Edition Temmen: p 46
Klütsch, Friedrich: p 12, 18, 19, 33, 35, 47 (a/b)
Ministry of Awqaf and Religious Affairs, Oman: p 31
Ministry of Information, Oman: p 34
Popp, Georg: p 12 (b), 38, 41, 50
Puls, Joachim: p 13, 44
Smithsonian Institution: p 32
Map of Indian Ocean showing Trade routes and Monsoon winds
Map drawn by Willie Ryan, 2016, with art direction by Lisa Vann
Sailors and Daughters: Photography and the Indian Ocean online exhibition, 2015
Connecting the Gems of the Indian Ocean: From Oman to East Africa
National Museum of African Art
Weisgerber, Gerd: p 24 (a/b)
Mohammed90m / Wikimedia Commons / CC-BY-SA 4.0 / Model of Magan Boat: p 27
Zanzibar National Archives: p 14, 15, 17
36.1.26 Courtesy the Melville J. Herskovits Library of African Studies Winterton Collection, Northwestern University: p 10

المصادر

- **Agius D. A.:** *Classic ships of Islam. From Mesopotamia to the Indian Ocean*. Leiden 2008
- **Agius D. A.:** *Seafaring in the Arabian Gulf and Oman. People of the Dhow*. London 2005 (reprinted 2009)
- **Al Maamary, A. H.**: *Omani–Portuguese history*. New Dehli 1982
- **Begemann, F., Hauptmann A., Schmitt-Strecker S., Weisgerber G. :** *Lead isotope and chemical signature of copper from Oman and its occurance in Mesopotamia and sites on the Arabian Gulf coast*. In: Arabian Archaeology and Epigraphy 21 (2010)
- **Brathurst, R. D.:** *Maritime trade and Imamate government. Two*

Paris 1998

• **Guilmartin, J. F.:** *Gunpowder and galleys. Changing technology and Mediterranean warfare at sea in the sixteenth century*. London and New York 1974

• **Hamilton, A.:** *A new account of the East-Indies. Being the observations and remarks of Alexander Hamilton from the years 1688 to 1723*. New Dehli 1995

• **Hourani, G. F.,** *Arab seafaring in the Indian Ocean in ancient and medieval times*. Dartmouth 1995

• **Horton, M.:** *Ibadis in East Africa: Archaeological and Historical Evidence*. In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Ibn Battuta, A.:** *The Travels of Ibn Battuta A.D. 1325–1354*. Trans. Gibb, H. A. R., London 1995

• **Mazrui, A. and Sharif I. N. :** *The Swahili. Idiom and identity of an African people*. Trenton N. J. 1994

• **Melekandathil, P.:** *From Slumber to Assertion: Maritime Expansion of the Ibadis of Oman and the Responses of Estado da India, 1622–1720*. In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Middleton, J.:** *The World of the Swahili*. New Haven 1992

• **Ministry of Heritage and Culture:** *Oman a seafaring nation* Muscat 2005

• **Newitt, M.:** *A history of Portuguese overseas expansion 1400–1668*. London 2005

• **Newitt, M.:** *The Portuguese in East Africa and the Omani Reconquest of East Africa*. In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Pearson, M. N.:** *Port cities and intruders. The Swahili coast, India and Portugal in the early modern era*. Baltimore 1998

• **Serjeant, R. B.:** *Omani naval activities off the Southern Arabian coast in the late 11th/17th century, from Yemeni chronicles.* In: The Journal of Oman Studies 1,2 (1975)

• **Serjeant, R. B.:** *Omani naval activities off the Southern Arabian coast in the late 11th/17th century, from Yemeni chronicles. principle themes in the history of Oman to 1728*. In: Hopwood 1972

• **Boxer, C. R.:** *Fort Jesus and the Portuguese in Mombasa*. London 1960

• **Chami, F.:** *East Africa and the Middle East relationship from 1st millenium BC to about 1500 AD.* In: Journal of Africanistes 72,2 (2002)

• **Chami, F.:** *The Tanzanian coast in the first millenium AD,* Uppsala 1994

• **Chami, F.:** *Kilwa and the Swahili towns*. In: Larsen 2009

• **Chaudhuri, K. N.:** *Trade and civilisation in the Indian Ocean*. Cambridge 1985

• **Chittik, H. N.:** *Kilwa, an Islamic trading city on the East African coast*. Nairobi 1974

• **Chittik, H. N.:** *East Africa and the Orient. Ports and trade before the arrival of the Portuguese*. In: Menaud 1980

• **Cleuziou, S., M. Tosi:** *Black boats of Magan: Some thoughts on Bronze Age water transport in Oman and beyond from the impressed bitumen slabs from Ras al Junayz.* In: Parpola, A. and P. Koskikallio (eds.): SouthAsian archaeology 1993 II. Helsinki, AASF Ser. B (1994)

• **Flecker, M.:** *A ninth-century Arab or Indian shipwreck in Indonesian waters.* In: International Journal of Nautical Archaeology 29 (2000)

• **Flecker, M.:** *A ninth-century Arab or Indian shipwreck in Indonesia: First evidence for direct trade with China.* In: World Archaeology *32 (2001)*

• **Freeman-Grenville, G. S. P.:** *The East African Coast*. Oxford 1962

• **Freeman-Grenville, G. S. P.:** *The Swahili coast, 2nd to 19th centuries. Islam, Christianity and commerce in Eastern Africa.* London 1988

• **Ghubash, H.:** *Oman une démocracie islamique millénaire. La tradition de l'Imama. L'histoire politique moderne (1500–1970)*.

• **Williamson, A.:** *Harvard archaeological survey of Oman in the tenth century AD*
In: Proceedings of the Seminar of Arabian Studies 4 (1974)

• **Wilkinson, J.:** *Ibadhism: Origins and early development in Oman*. Oxford 2010

• **Wilkinson, J.C.:** *The Imamate tradition of Oman*
Cambridge 2009

الفصل الثاني
ميلاد امبراطورية تجاريّة

الهوامش

1 **Dr Allen Fromherz:** *From Muscat to Zanzibar,* Sayyid Said ibn Sultan's Cosmopolitan Empire, Sultan Qaboos Cultural Center. Washington, p 3

2 **https://digital.library.upenn.edu/women/ruete/arabian/arabian.html#I:** *Memoirs of an Arabian Princess* by Emily Ruete, Ruete (Salamah ibnt Saïd; Sayyida Salme, Princess of Zanzibar and Oman) (1844–1924) Translated by Lionel Strachey. New York: Doubleday, Page and Co., 1907

3 **Dr Issa Al Hajj Ziddy:** *The Omani Renaissance in Zanzibar 1832–1963*. Muscat 2017, p 95

4 **https://digital.library.upenn.edu/women/ruete/arabian/arabian.html#I:** *Memoirs of an Arabian Princess* by Emily Ruete, Ruete (Salamah ibnt Saïd; Sayyida Salme, Princess of Zanzibar and Oman) (1844–1924) Translated by Lionel Strachey. New York: Doubleday, Page and Co., 1907

5 **Dr Issa Al Hajj Ziddy:** *The Omani Renaissance in Zanzibar 1832–1963,* Muscat 2017, p 102/103

6 **Dr Issa Al Hajj Ziddy**: *The Omani Renaissance in Zanzibar*

In: The Journal of Oman Studies 1,2 (1975)

• **Severin, T.:** *The Sindbad Voyage*. London 1982

• **Sheriff, A.:** *East African Coast and its role in maritime trade*.
In: Mokhtar 1981, II

• **Sheriff, A.:** *The Swahili coast: Africa's Window on the Indian Ocean*. In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Staples, E.:** *The Formation of Oman's Maritime Power under the Yaariba and Sayyid Said*. In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Teles e Cunha, J.:** *Oman and Omanis in Portuguese Sources in the Early Modern Period (ca. 1500–1750)*.
In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Tibbets, G.R.:** *Arab navigation in the Indian Ocean before the coming of the Portuguese being a translation of Kitrab al-fawa'id fi usul al-bahr wa l-qawa'id of Ahmad ibn Majid Al Najdi*. Trans. with notes. London 1981

• *The Travels of Marco Polo. Trans. Latham, R. New York 1982*

• *The Periplus maris Erythraei*. Trans. Casson, L. Princton 1989

• *Three Voyages of Vasco da Gama and his viceroyalty*. From: Landas da India of Gaspar Correa. Trans. Stanley, H.E.J., London 1869

• **Vossmer, T.:** *Indigenous fishing vessels of the Sultanate of Oman*.
In: International Journal of Nautical Archaeology 26,3 (1997)

• **Vossmer, T.:** *The Jewel of Muscat project: reconstructing an early ninth-century CE shipwreck*. In: Proceedings of the Seminar of Arabian Studies 41 (2011)

• **Vossmer, T.:** *Omani Seafaring and Omani Boats*.
In: Oman and Overseas. Hildesheim 2013

• **Weisgerber, G.:** *… und Kupfer in Oman*
In: Der Anschnitt 32, 2–3 (1980)

Or. 27.135 D 1, Creative Commons CC BY License: p 64
Popp, Georg: p 78 (l/r), 79 (a/m/b)
Puls, Joachim: p 59, 104, 81 (b), 104
Lieutenant Blosse, Henry Lynch: Portrait of Said ibn Sultan. ca. 1860. Peabody Essex Museum, Salem, MA: p 52
Mooney, Edward L.: Portrait of Ahmad bin Naaman. 1840. Peabody Essex Museum, Salem, MA (USA): p 93
National Records and Archives Authority, Oman: p 89, 90, 91
Windrain / Wikimedia Commons / CC-BY-SA 4.0 / 1 thaler Maria Theresia 1780: p 114
Zanzibar National Archives: p 56, 60, 62, 67, 70 (a/b), 71, 72, 73, 79, 80 (a/b), 87
62.2 Courtesy the Melville J. Herskovits Library of African Studies Winterton Collection, Northwestern University: p 69 (l)
43.1.7.2A Courtesy the Melville J. Herskovits Library of African Studies Winterton Collection, Northwestern University: p 69 (r)
74.7.2 Courtesy the Melville J. Herskovits Library of African Studies Winterton Collection, Northwestern University: p 75

مصادر الصور

Alamy Stock Photo: ID EFANH2 HMS Implacable: p 83
Alamy Stock Photo: ID MMM31W Hippolyte Sebron – Rue de New York 1840: p 93
Alamy Stock Photo/Gado Images: ID KHCBJ0 Panorama of New York City 1840: p 96/97 Alamy Stock/agefotostock: ID RKPJJX Weingärtner A. – City of Brooklyn: p 94
Alamy Stock Photo/Granger: ID FG6TKD Whaling 1855: p 116
Alamy Stock Photos/Lakeview Images: ID 2AHWM9T Kampala, Uganda about 1800s: p 118
Alamy Stock Photos/Classic Image: ID BYYT5M Muteesa I Mukaabya Walugembe Kayiira: p 121
Alchetron.com/Edmund-Roberts-(diplomat): p 84
Al Maskari, Juma: p 66, 68
Brady, Mathew: Imperial print of Martin van Buren. Metropolitan Museum of Art: p 96
Dickinson, Michael: p 107 (a/b), 108
Klütsch, Friedrich: p 58 (a/b), 61, 63 (a/b), 81 (a/m/b),
Landen, Robert G: Oman Since 1850: p 110
Leiden University Libraries, Portrait of Emily Ruete in Omani dress

1832–1963, Muscat 2017, p 159/160

[7] **https://whc.unesco.org/en/list/173/**

[8] **Dr Allen Fromherz:** *From Muscat to Zanzibar, Sayyid Said ibn Sultan's Cosmopolitan Empire,* Sultan Qaboos Cultural Center. Washington, p 30/31, 2016

[9] **Wellsted J. R.:** *Journey in the interior of Oman, in 1835*. Journal of the Royal Geographical Society, Vol. 7, 1837

[10] **Cole A. B.:** *Plans of Edmund Roberts for Negotiations in Nippon*. Monumenta Nipponica, Vol. 4, No. 2, 1941

[11] **Eilts, H. F.:** *Ahmad Ibn Na'aman's Mission to the United States in 1840: The Voyage of al-Sultanah to New York City*. Embassy of Oman Washington 1989, p 6

[12] **The Evening Post** (New York), May 9, 1840

المصادر

- **Al Hajj Ziddy, I.:** *Classic ships of Islam. The Omani Renaissance in Zanzibar 1832–1963*. Muscat 2017
- **Allen, C. H.:** *The State of Muscat in the Gulf and East Africa, 1785–1928,* International Journal of Middle East Studies, 14/2, May 1982
- **Al Mughairi, S.:** *Juhaynat Al Akhbar fi Tarikh Zanjubar, ed. Al Sulaibi, M.,* Muscat 2001
- **Al Mukadam, M.:** *A Survey of Diplomatic and Commercial Relations Between the United States and Oman in Zanzibar.* Portland State University 1990
- **Bennett, N. R.:** *Americans in Zanzibar, 1825–1845,* Essex Institute Historical Collections 95, no. 1, 1959

• **Jones, J., Ridout, N.:** *Oman, Culture and Diplomacy* Edinburgh University Press 2012

• **Kechichian, J. A.:** *Oman and the World: The Emergence of an Independent Foreign Policy*. Santa Monica: Rand 1995

• **McDow, T.:** *Buying Time*. Athens (USA) 2018

• **Modelski, G. and Thompson, W. R.:** *Seapower in global politics, 1494–1993*. Seattle 1988

• **Nicholls, C. S.:** *The Swahili Coast: Politics, Diplomacy and Trade on the East African Littoral, 1798–1856*. New York: Africana Pub. Corp. 1971

• **Nicolini, B.:** *The first sultan of Zanzibar: scrambling for power and trade in the nineteenth-century Indian Ocean*. Princeton 2012

• **Nicolini, B.:** *Makran, Oman and Zanzibar: Three-Terminal Cultural Corridor in the Western Indian Ocean, 1799–185*. Boston: Brill 2004

• **Nicolini, B.:** *The Myth of the Sultans of the Western Indian Ocean During the Nineteenth Century: LA New Hypothesis,* African & Asian Studies 8, no. 3, 2009

• **Presthold, J.:** *The Sultana in New York: A Zanzibari Vessel between two Worlds,* in 'World on the Horizon: *Swahili Arts Across the Indian Ocean*', ed. Purpura, A. and Meier, P., Krannert Art Museum and Kinkead Pavilion 2018

• **Roberts, E.:** *Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam and Muscat*. New York 1837

• **Ruete, E.:** *Memoirs of an Arabian Princess from Zanzibar*. New York 1989

• **Said-Ruete, R.:** *Said ibn Sultan (1791–1856) Ruler of Oman and Zanzibar: His Place in the History of Arabia and East Africa*. London 1929

• **Sheriff, A.:** *Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar: Integration of an East African Commercial Empire into the World Economy*. London 1987

• **Bennett, N. R.:** *Americans in Zanzibar, 1845–1865,* Essex Institute Historical Collections 97, no. 1, 1961

• **Bhacker, M. H.:** *Trade and Empire in Muscat and Zanzibar: The Roots of British Denomination*. Routledge 2002

• **Bishara, F.:** *Sea of Dept: Histories of Commerce and Obligation in the Indian Ocean, 1850–1940,* Duke University Dissertation 2012

• **Brooks, G., Bennett, N. R.:** *New England Merchants in Africa: A History Through Documents*. Boston 1965

• **Bennett, N. R.:** *Americans in Zanzibar, 1845–1865,* Essex Institute Historical Collections 97, no. 1, 1961

• **Bhacker, M. H.:** *Trade and Empire in Muscat and Zanzibar: The Roots of British Denomination,* Routledge 2002

• **Bishara, F.:** *Sea of Dept: Histories of Commerce and Obligation in the Indian Ocean, 1850–1940,* Duke University Dissertation 2012

• **Brooks, G., Bennett, N. R.:** *New England Merchants in Africa:*

• **Cotheal, A. I.:** *Treaty between the United States of America and the Sultan of Muscat: The Arabic Text,* Journal of the Ameri can Oriental Society 4, 1854

• **Eilts, H.:** *Ahmad ibn Na'aman's Mission to New York City* Essex Institute Historical Collections 98, no. 1, 1962

• **Farsi, A. S.:** *Sayyid Said Ibn Sultan. The Joint Ruler of Oman and Zanzibar*. New Delhi 1986

• **Gates-Hunt, R. H.:** *Salem and Zanzibar: A Special Relationship,* Essex Institute Historical Collections 117, no. 1, 1981

• **Gray, J. M.:** *History of Zanzibar, from the Middle Age to 1856*. London 1962

• **Ibn Razik, S.:** *History of the Imams and Sultans*. London 1871

• **Ibn Ruzaiq:** *al-Fath al-muibn fi sirat al-sadat al-Bu Saidiyyib* Muscat 2001

- **Vicenzo M.:** *History of Seyd Said, Sultan of Muscat*. London 1819
- **Wellsted, J. R.:** *Travels in Arabia,* Volume 1. London 1838
- **Wellsted, J. R.:** *Journey into the interior of Oman,* Journal of the Royal Geographical Society, Volume 7. London 1837

الفصل الثالث
اكتشاف قلب إفريقيا

الهوامش

1 **Hahner-Herzog, I.:** *Tippu Tip und der Elfenbeinhandel in Ost- und Zentralafrika im 19. Jahrhundert.* München, 1990, p 339–345

2 **Al Hajri, H.:** *The Land of Security: Western Perceptions of Religious Tolerance in Oman*. In: British Journal of Arts and Social Sciences, Vol.15 No.II, 2013

3 **Laing, S.:** *Tippu Tip: Ivory, Slavery and Discovery in the Scramble for Africa.* Surbiton, 2017, p 38

4 **Adam Hochschild:** *Leopold's Ghost,* London, 2000, p 29-3

5 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 44–45

6 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 89–91

7 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 107/108

8 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 108/109

9 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 116

10 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 118

11 **Dr H. Brode:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*, London 1907, p 125/126

12 **Sadgrove, P. C.:** *The Press, Engine of a Mini-Renaissance, Zanzibar (1860–1920)*. In: Philip Sadgrove, editor(s). History of Printing and Publishing in the Languages and Countries of the Middle East. In: Journal of Semitic Studies, 2005 p 153–154

13 **https://archnet.org/sites/3787**

مصادر الصور

Alamy Stock Foto / CPA Media Ltd: ID 2B026AJ Tippu Tip: p 122
Alamy Stock Foto / Antiqua Print Gallery: ID W0BMYJ The London Docks – the interior of the Ivory warehouse: p 125
Alamy Stock Foto / Old Images: ID JMA379 Ludwig Krapf: p 145
Alamy Stock Foto / Classic Image: ID AKMPB3 David Livingstone: p 149 (l)
Alamy Stock Foto / Well/Bot: ID 2H4365M Henry Morton Stanley: p 149 (r)
Alamy Stock Foto / World History Archive: ID 2CWBM01 Tippu Tip's camp at Stanley Falls: p 155
Alamy Stock Foto / Classic Image: ID BPRDNW Henry Morton Stanley watching the Vouagogos tribe preparing for battle: p 157
Alamy Stock Foto / CPA Media Pte Ltd: ID 2B026AK Tippu Tip: p 165
Alamy Stock Foto / World History Archive: ID D96D9X Henry Morton Stanley with Gatlin machine gun: p 168
Alamy Stock Foto / World History Archive: ID D95T88 Henry Morton Stanley on his 1874–1876 African expedition: po 174
Alamy Stock Foto / Artokoloro: ID D30CYR Henry Morton Stanley 'Look out! You drop that box, I'll shoot you': p 177
Alamy Stock Foto / Photo 12: ID P67J8B Congo Conference 1884–1885: p 178
Alamy Stock Foto / Pictorial Press Ltd: ID B6DP0R King Leopold II: p 180

• **Al Murjibi, H. (Tippu Tip):** *Maisha ya Hamed ibn Mohammed al Murjaibi yaani Tippu Tip*. Kiswahili text and English translation by Whiteley W. H., Kampala 1974

• **Biginagwa, T.J.:** *Historical Archaeology of the 19th Century, Caravan Trade in North-Eastern Tanzania: A Zooarchaeological Perspective*. York 2012

• **Brennan, J.R.:** *Lowering the Sultan's Flag: Sovereignity and Decolonization in Coastal Kenya* In: Comparative Studies in Society and History (vol 50/4), 2008

• **Brode, H.:** *Tippoo Tib, The Story of His Career in Central Africa*. London 1907

• **Burton, R.:** *Zanzibar and Two Months in East Africa*. In: Blackwell's Edinburgh Magazin (vol 83), 1858

• **Burton, R.F.:** *Zanzibar: City, Island and Coast*. London 1872

• **Conrad, J.:** *Heart of Darkness*. London 1899

• **Coupland, R:** *Exploitation of East Africa 1856–1890* London 1939

• **Decker, M.:** *The 'Autobiography' of Tippu Tip: Geography, Genre wand the African Indian Ocean*. In: Inventions (vol 17), 2014

• **East, J.:** *Dernburg and Rathenau on German East Africa: Official Reports on a Study-Tour through Colonial Tanzania in 1907*. Translated with an Introduction by John W. East, 2019

• **Ghazal, A.:** *The Other 'Andalus': The Omani Elite in Zanzibar and the Making of an Identity, 1880s–1930s*. In: The MIT-Electronic Journal of Middle East Studies (vol 5), 2005

• **Ghazal, A. (Ed.):** *Islam and Arabs in East Africa: A Fusion of Identities, Networks and Encounters*. The MIT Electronic Journal of Middle East Studies, 2005

• **Glassman, J.:** *Feasts and Riot: Revelry, Rebellion, and Popular Consciousness on the Swahili Coast, 1856–1888*. Portsmouth 1995

Alamy Stock Foto / Antiqua Print Gallery: ID GBXBT7 Large States in the Congo Basin: p 181
Alamy Stock Foto / World History Archive: ID MR38EB Satirical cartoon depicting King Leopold II of Belgium: p 182
Alamy Stock Foto / Granger NYC: ID FFAMEM Carl Peters: p 204
Al Maskari, Juma: p 131, 135, 137 (a/b), 144,
Al Kharussi, Harith: p 193
Deutsches Elfenbeinmuseum Schloss Erbach: p 124
Frank G. and Frances Carpenter / Wikimedia Commons / US Library of Congress's Prints and Photographs division: ID cph.3c02973 / Men with elephant tusks: p 139
German Federal Archives, image 146-1984-067-35 / Hoffmann, Paul / Wikimedia Commons / CC-BY-SA 4.0 / fighters: p 138
Glassman, Jonathon / Feasts and riot: revelry, rebellion, and popular consciousness on the Swahili Coast, 1856–1888: p 209
Klütsch, Friedrich: p 128, 130, 132, 133, 146, 147, 167, 183, 184, 186 (l/r), 187, 191 (r), 201 (l/r), 203
National Library of Scotland. Creative Commons Share-alike 2.5 UK: Scotland. As relevant, copyright Dr. Neil Imray Livingstone Wilson. Creative Commons Attribution-NonCommercial 3.0 Unported: p 158
NordNordWest / Wikipedia / Karawanenrouten Ostafrika.jpg / https://creativecommons.org/licenses/by-sa/3.0/de/legalcode: p 127
Oman and Zanzibar Virtual Museum / omanisilver.com: p 207, 208
SteinsplitterBots / Wikimedia Commons / Africa and its inhabitants (1899) 14783575285.jpg: p 141
Zanzibar National Archives: p 143, 191, 192, 194, 196, 197, 198, 199

المصادر

• **Al Busaidi, R.A.:** *Pictorial History of Zanzibar 1800–1964*, Muscat 2021

• **Aldrick, J.:** *The Sultan's Spymaster: Peera Dewjee of Zanzibar* Naivasha 2015

• **Nicolini, B.:** *Slave Trade in the western Indian Ocean during the 19th century: the role of Baloch mercenaries*. In: A. Korn, P. Titus, & C. Jahani (Eds.), *The Baloch and Others: Linguistic, Historical and Socio-Political Perspectives on Pluralism in Balochistan*, 2008

• **Nicolini, B.:** *The Makran-Baluch-African Network in Zanzibar and East Africa during the XIX century*.
In: African and Asian Studies (vol 5), 2006

• **Pallaver, K.:** *The African Native Has No Pocket: Monetary Practices and Currency Transitions in Early Colonial Uganda*.
In: IJAHS 48:3 Special Issue: Wealth in Pluralities. Intersections of Money, Gender, and Multiple Values Across African Societies, 2015

• **Pallaver, K.:** *A triangle: Spatial processes of urbanization and political power in 19th-century Tabora, Tanzania*.
In: 'AFRIQUES' (vol 11), 2020

• **Pallaver, K.:** *What East Africans Got for Their Ivory and Slaves: The Nature, Working and Circulation of Commodity Currencies in Nineteenth-Century East Africa*.
In: Currencies of the Indian Ocean World, London, Palgrave Macmillan, Palgrave Series in Indian Ocean World Studies, 2019

• **Pallaver, K.:** *Muslim Communities, Long-distance Traders and Wage Labour along the Central Caravan Road, Tanzania 19th century*.
In: 'STORICAMENTE' (vol 8), 2012

• **Pallaver, K.:** *Donkeys, Oxen and Elephants: in Search for an Alternative to Human Porters in 19th century Tanzania*.
In: 'AFRICA' (vol 65), 2010

• **Pallaver, K.:** *A Recognized Currency in Beads: Glass Beads as Money in Nineteenth-century East Africa: the Central Caravan Road*.
In: Money in Africa, LONDON, British Museum Research Publications, 2009

• **Pesek, M.:** *Das Ende eines Kolonialreiches: Ostafrika im Ersten Weltkrieg*. Frankfurt 2010

• **Pesek, M.:** *Sulayman b. Nasr Al-Lamki and German colonial policies towards Muslim communities in German East Africa*.
In: Islam in Afrika, 2002

• **Gooding, P.:** *Lake Tanganyika: Commercial frontier in the Era of Long-Distance Commerce, East and Central Africa, 1830–1890*.
London 2017

• **Hahner-Herzog, I.:** *Tippu Tip und der Elfenbeinhandel in Ost- und Zentralafrika im 19. Jahrhundert*. München 1990

• **Hinde, S.:** *The Fall of the Congo Arabs*. London 1897

• **Hochschild, A.:** *Leopold's Ghost*. London 2000

• **Hoffman, V.J.:** *Muslim-Christian Encounters in Late Nineteenth Century Zanzibar*. In: The MIT Electronic Journal of Middle East Studies (vol 5), 2005

• **Laing, S.***: Tippu Tip: Ivory, Slavery and Discovery in the Scramble for Africa*. Surbiton 2017

• **Lebègue, J.:** *La vie en Afrique, ou, Trois ans dans l'Afrique centrale*. Paris 1887

• **Limbert, M.:** *Personal Memories, Revolutionary States and Indian Ocean Migrations*. In: The MIT Electronic Journal of Middle East Studies (vol 5), 2005

• **Loimeier, R.:** *Sansibar: Eine ostafrikanische Hafenstadt und ihre Zeiten im 19. und 20. Jahrhundert*.
In: Comparativ – Zeitschrift für Globalgeschichte und vergleichende Gesellschaftsforschung (vol 17), 2007

• **Mathew, G., Oliver, R. (Eds.):** *History of East Africa*.
Oxford 1963

• **McDow, T.F.:** *Buying Time*. Athens 2018

• **Middleton, D., Jephson, A.:** *The Diary of A.J. Mounteney Jephson: Emin Pasha Relief Expedition*. 1887–1889. London 1999

• **Mwaruvie, J.M.:** *The Ten Miles Coastal Strip: An Examination of the Intricate Nature of Land Question at Kenyan Coast*. In: International Journal of Humanities and Social Science (vol 1), 2011

• **Nicolini, B.:** *The Myth of the Sultans in the Western Indian Ocean during the Nineteenth Century: A New Hypothesis*.
In: African and Asian Studies (vol. 8), 2009

الفصل الرابع
الإرث العماني في حاضر شرق إفريقيا

الهوامش

1 **Hirji. Z.:** *Between Empires*, London 2012, p 54–55

2 **Hirji. Z.:** *Between Empires*, p 133

3 **British Movietone:** *Speech of Jomo Kenyatta,* 13th August 1963

4 **Hirji. Z.:** *Between Empires*, p 114

5 **Hirji. Z.:** *Between Empires*, p 109/110

6 **Interview Klütsch, F.** with Governor Hassan Ali Joho, Mombasa 2019

7 **Interview Popp, G.** with Kalandar Khan, Mombasa 2017

8 **Hirji. Z.:** *The kofia tradition of Zanzibar,* in R. Barnes (ed.), *Textiles in Indian Ocean Societies,* London 2005, p 82

9 **https://whc.unesco.org/en/list/1055**

10 **Abungu, G.:** *Lamu: Kenya's Enchanted Island.* New York 2009, p 174

11 **Interview Klütsch, F.** with Placide Lubamba, Kasongo 2020

مصادر الصور (الفصل الرابع والخاتمة)

Al Busaidi, Riadh: p 249
Al Maskari, Juma: p 251
Bennett, Peter: p 258 (b)
Hinawy Family Archive: p 210, 215, 217, 218, 219, 220, 221,

- **Renault, F.:** *Tippo-Tip: un potentat arabe en Afrique central au XIXe siècle.* Paris 1987
- **Rhodes, D., Breen, C., Forsythe W.:** *Zanzibar: A Nineteenth-Century Landscape of the Omani Elite.* In: International Journal of Historical Archaeology (vol 19), 2015
- **Rockel, S.J.:** *Caravan Porters of the Nyika: Labour, Culture, and Society in Nineteenth Century Tanzania.* Toronto 1997
- **Rockel, S.J.:** *Forgotten Caravan Towns in 19th Century Tanzania: Mbwamaji and Mpwapwa.* ANZANIA: Journal of the British Institute in Eastern Africa, 41:1, 2006
- **Sadgrove, P.C.:** *The Press, Engine of a Mini-Renaissance, Zanzibar (1860–1920).* In: Philip Sadgrove, editor(s). History of Printing and Publishing in the Languages and Countries of the Middle East. Journal of Semitic Studies. Oxford University Press 2005
- **Sanders, E.R.:** *Missionaries and Muslims in East Africa before the Great War.* Henry Martyn Seminar, Westminster College, Cambridge, 9 March 2011
- **Sheriff, A., Ferguson E. (eds):** *Zanzibar under Colonial Rule,* Athens 1991
- **Slade, R.:** *King Leopold's Congo.* London 1962
- **Stanley, H.M.:** *How I Found Livingstone.* London 1872
- **Stanley, H.M.:** *Through the Dark Continent.* London 1878
- **Vierke, C.:** *Johann Ludwig Krapf: The Life and Work of a Missionary and Scholar-Traveller in Nineteenth Century East Africa.* Mombasa 2007
- **Waller, H.:** *The Last Journals of David Livingstone in Central Africa from 1865 to His Death.* London 1874
- **Wiederkehr, T.:** *Der Sklavenhändler, der die Sklaverei bekämpfen sollte. Tippu Tip als Gouverneur des Kongo-Freistaats 1887–1890. Analyse eines Kooperationsverhältnisses.* Bern 2016

• **Brennan, J. R.:** *Poison and Dope: Radio and the art of political invective in East Africa, 1940–1965*. Leiden 2008

• **Carmichael, T.:** *British 'Practice' Towards Islam in The East Africa Protectorate: Mulim Officials; Waqf Administration, and Secular Education in Mombasa and Environs, 1895–1920***.**
In: Journal of Muslim Minority Affairs (vol 17/2), 1997

• **Curtin, P. D.:** *African enterprise in the mangrove trade: the case of Lamu*. In: African Economic History No. 10, 1981

• **Decker, C.:** *Mobilizing Zanzibari Women: The Struggle for Respectation and Self-Reliance in Colonial East Africa*. New York 2014

• **Declich, L.:** *The Zanzibar National Archives.*
In: Nuova Serie (vol. 78/2): The Arabic Manuscripts of the Zanzibar National Archives: A Checklist, 2006

• **East, J. W. (Trans.):** *The Causes of the 1905 Maji Maji Rebellion in German East Africa (Tanzania)*. ACADEMIA 2019

• **El-Maawy, Ali A. A.:** *Jawabu la Mwana Kupona.*
TATAKI, Dar es Salaam 2011

• **al-Farsy, Sheikh Abdullah Saleh:** *Qurani Takatifu (Tafsir)*.
The Islamic Foundation, Nairobi 1969

• **Gräbner, W.:** *Tarabu – Populäre Musik am Indischen Ozean.*
wIn: Veit Erlmann (ed.): Populäre Musik in Afrika. Museum für Völkerkunde, Berlin 1991

• **Gräbner, W.:** *The Swahili Coastal Sound*. In: Broughton, Simon and Ellingham, Mark with McConnachie, James and Duane, Orla (eds.): World Music, Vol. 1: Africa, Europe and the Middle East, p 690–697, London 2000

• **Haji Gora Haji:** *Kimbunga*. TUKI, Dar es Salaam 1994

• **Hirji, Z.:** *Relating Muscat to Mombasa: Spatial tropes in the kinship narratives of an extended family network in Oman.*
In: Anthropology of the Middle East (vol 2), 2007

• **Hirji. Z.:** *Between Empires.* London 2012

222, 227, 236, 237, 239
Dickinson, Michael: 256, 257 (b), 260 (a), 262, 265, 266 (b),267
Ilyas Mohamed: p 258
Istiqama Muslim Community of Tanzania: p 294
Klütsch, Friedrich: p 213, 214, 238, 240, 241, 242, 243, 245, 246, 251, 252, 260 (b), 264, 267, 268, 270, 272, 273 (b), 274 (m), 275, 276 (a), 279, 280, 288, 289, 295, 297
NASA: https://visibleearth.nasa.gov A1-D2: p 296
Popp, Georg: 254, 255, 257 (a), 261, 266 (a), 269, 276 (b), 278 (r)
Puls, Joachim: p 223, 224, 225, 244, 273 (a), 274 (l/r), 277, 281, 282, 292, 299, 302
Zanzibar National Archives: p 212, 222, 232, 233, 234, 235, 248, 250, 253, 259, 278 (l)

المصادر

• **Abungu, G., Abungu, L.:** *Lamu – Kenya's Enchanted Island.*
New York 2009

• **Aldrick, J.:** *Sir Ali ibn Salim and the Making of Mombasa.*
Naivasha 2018

• **Allen, J. W. T.:** *Tendi*. Heinemann Educational Books, London 1971

• **Abd Hamid, H.:** *From Bad to Worse: The Implementation of the Land Titles Ordinance in Coastal Kenya, 1908–1960s.*
In: African Studies Association of Australasia and the Pacific, 2003 Conference Proceedings – African on a Global Stage

• **Abdulaziz, M. H.:** *Muyaka – 19th Century Swahili Popular Poetry*.
Kenya Literature Bureau, Nairobi 1979

• **Amina Abubakar Sheikh na Ahmad Sheikh Nabhany:**
Utendi wa Mwana Kupona. Utendi wa Ngamia na Paa.
Heinemann Educational Books (E.A.), Nairobi 1972

• **Neal, S.:** *A Colonial Dilemma: British Policy and the Colonial Economy of Tanganyika 1918–1938*. Canberra 1981

• **Parkar, A.:** *Manuscripts and Transmission of Knowledge in Swahili Society: A Comparative Analysis of Form and Usage of Qasida al-Hamziyya*. Unpubl. PhD thesis, Hamburg 2019

• **Reinwald, B.:** *'Tonight at the Empire' Cinema and Urbanity in Zanzibar, 1920s to 1960s*. In: Afrique & Histoire 2006/1 (vol 5), 2006

• **Sheikh, A. S.:** *Islamic Education in Kenya: A Case Study of Islamic Integrated Schools in Garissa County*. Nairobi 2013

• **Stern, R. E.:** *Housing the Urban Poor in Africa: Policy, politics, and Bureaucracy in Mombasa*. Berkeley 1978

• **Steyn, G.:** *The Impacts of Islandness on the Urbanism and Architecture of Mombasa*. In: Urban Island Studies (vol 1), 2015

• **Steyn, G.:** *The Lamu house – an East African architectural enigma*. Pretoria 2002

• **Suhonen, R.:** *Mapinduzi Daima – Revolution Forever: Using the 1964 Revolution in Nationalistic Political Discourses in Zanzibar*. Helsinki 2009

• **Sunseri, T.:** *Wielding the Ax: State Forestry and Social Conflict in Tanzania 1820–2000*. Ohio 2009

• **Topp Fargion, J.:** *Kasha Langu: A popular song from Mombasa* In: Swahili-Forum (vol 5), Köln 1998

• **Whiteley, W.:** *Swahili – The Rise of a National Language*. Methuen & Co Ltd. London 1969

• **Yahya-Othman, S.:** *If the cap fits: 'kanga' names and women's voice in Swahili society*.
In: Afrikanistische Arbeitspapiere, Köln 1997

• **Yeniguna C., Al Rahbi Y.:** *The Omani Diaspora in Eastern Africa*.
In: International Journal of Innovation, Creativity and Change (Vol. 15, Issue 7), 2021

• **Hirji. Z.:** *The kofia tradition of Zanzibar*. In: R. Barnes (ed.), Textiles in Indian Ocean Societies. London 2005

• **Idha, M.:** *The Mangroves of Lamu-History, Socio-economic and Conservation Issues*. Nairobi 1998

• **Kijuma, Muhammad & Abdilatif Abdalla (Ed.):** *Utenzi wa Fumo Liyongo*. Chuo Kikuu cha Dar es Salaam, Dar es Salaam 1973

• **Knappert, J.:** *Traditional Swahili Poetry*. E. J. Brill. Leiden 1967

• **Linnebuhr, E.:** *Kanga: popular cloths with messages*.
In: Werner Graebner (ed.) Sokomoko: Popular Culture in East Africa (Matatu vol. 9). Amsterdam 1992

• **Mainoya, J. R., Mesaki, S. and Banyikwa, F. F.:** *The distribution and socio-economic aspects of mangrove forests in Tanzania*.
In: Proceedings of the workshop MAN IN THE MANGROVES: The Socioeconomic Situation of Human Settlements in Mangrove Forests, (eds) Kunstadter, P. Bird E. and Sabhasri, S., Pattaya, Thailand, 27-31 May 1985, sponsored by the United Nations University and the National Research Council of Thailand

• **Mathews, N.:** *Jumuiya ya Kiislamu ya Istiqaama Tanzania and Modern Ibadism in East Africa, 1985–2016*.
In: Oman, Ibadism and modernity, 2018

• **Mathews, N.:** *Imagining Arab Communities: Colonialism, Islamic Reform, and Arab Identity in Mombasa, Kenya, 1897–1933*.
In: Islamic Africa (vol 4/2), 2013

• **McDow, T. F.:** *Being Baysar, (In)Flexible Identities in East Africa*.
In: The MIT Electronic Journal of Middle East Studies (vol 5), 2005

• **Mgeni bin Faqihi:** *Utenzi wa Rasi 'lGhuli*. Edited by Leo van Kessel. Tanzania Publishing House, Dar es Salaam 1979

• **Mwaruvie, J. M.:** *The Ten Miles Coastal Strip: An Examination of the Intricate Nature of Land Question at Kenyan Coast*. In: International Journal of Humanities and Social Science (vol 1), 2011

• **Nassir, Ahmad Juma Bhalo:** *Malenga wa Mvita*.
Oxford University Press, Nairobi 1971

سلاطين زنجبار وفترات حكمهم

